

النابعة الترباني

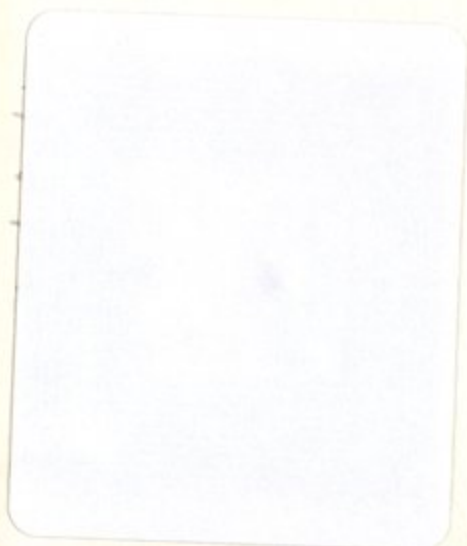


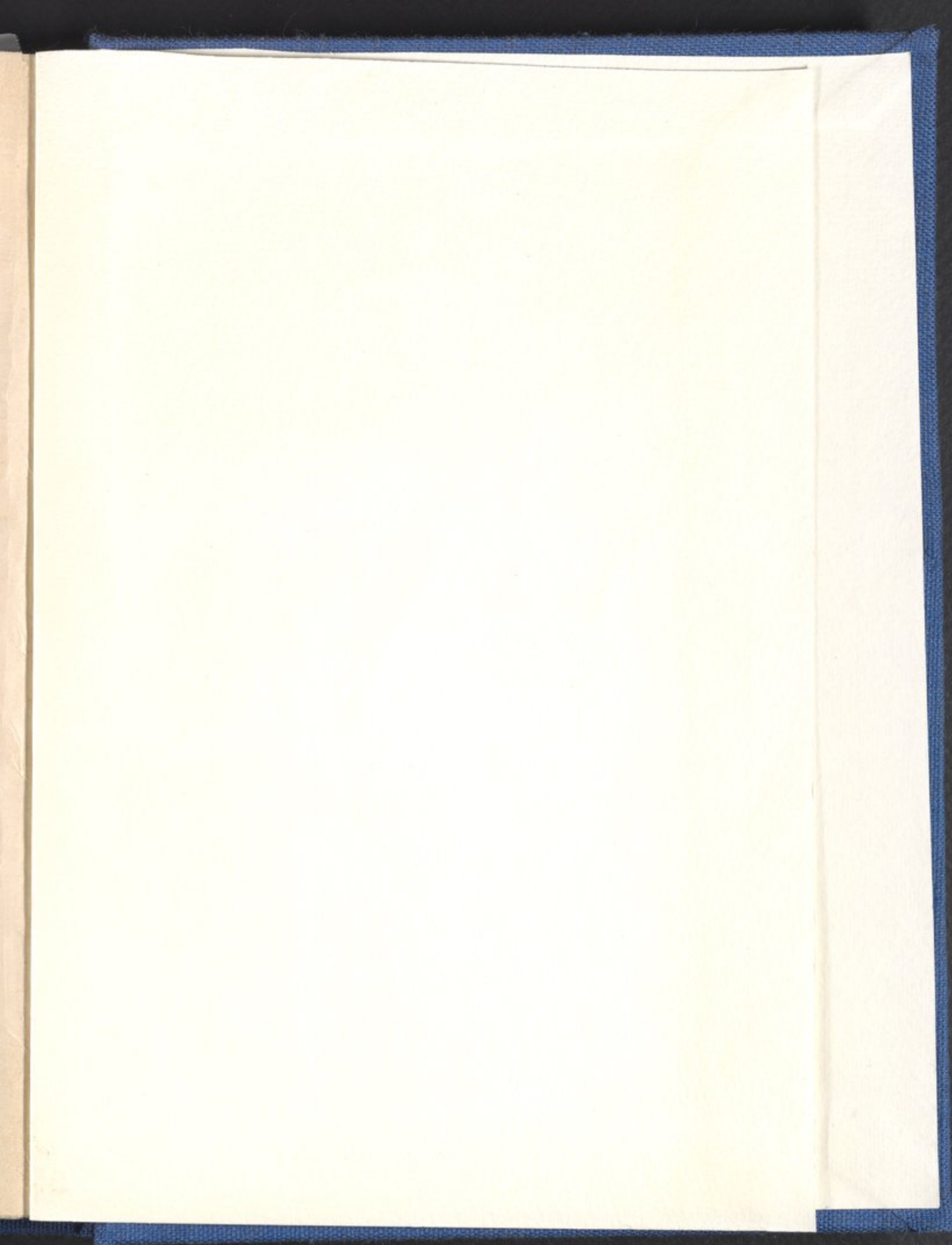
01-B 3832

Put Sul 5 H

1315

- Recase





PJ

al-Nābighah al-Dhabyānī -

7696

N25

256x

1949

النَّبَإُ بَعْدَ الذِّبْيَانِ

تأليف

عَمْرٍو الدَّسُوقِي

الأستاذ بكلية دار العلوم بجامعة فؤاد الأول

الناشر

دار الفكر العربي

مطبعة نهضة مصر بالقاهرة

كتابنا المجلد ١١

٨١١، ١

دع ٢٠

كتاب

رقم ١١

كتابنا المجلد ١١



كتابنا المجلد ١١

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وبه نسـتـعين

مقدمة

ثارت منذ مدة معركة أدبية حول الشعر الجاهلي ابتدئت بالشك في هذا الشعر وتزييف كثير منه ، وتصدى لمن شك فيه بعض الكتّاب ، يقرعون الحجّة بالحجة والدليل بمثله ، وهدأت المعركة قليلا ، واطلع الناس من هذه المناقشات الأدبية على وجهات نظر مختلفة عادت على الأدب والمتأدبين بفوائد جمّة .

ثم أثّرت المعركة مرة أخرى بدعوى أن هذا الشعر قد جنى جناية كبيرة على الأدب العربي ، وألبسه ثوبا خاصا ، ولونا معينا ، وأن الأولى أن يوضع هذا الشعر في المتاحف يطلع عليه من يهوى القديم ويحن إليه ، ومن يريد التزود من تراث السلف أو يضطره البحث العلمي والأدبي إلى قراءته ، أما أن يظل هذا الشعر يلح على عقول أبنائنا في عصرنا هذا ، فمعنى ذلك الاستمرار في الطريق التي رسمها للأدب ، والتي سار عليها أدباء العربية منذ ذلك العصر حتى اليوم .

وقد قام بعض الأدباء بفند هذا الرأي ويدحضه ، ويدافع عن الشعر الجاهلي ، ولكن المعركة لم تسفر عن شيء ، فقد ظل الشعر الجاهلي حيث هو ، وظل الطلبة في سعاهد العلم المختلفة يقرءونه ويحفظون بعض نصوصه ، وإن كان بعض الأدباء لا يزال يدعوا إلى قصره على المتخصصين في الأدب ، والشغوفين بالابحاث اللغوية .

وقد تتبععت هذه المعارك منذ نشأتها ، وإن كنت لم أخض فيها مع الخائضين ، ثم

أُتيحت لي فرصة تدريس الأدب الجاهلي بكلية دار العلوم فوضعت نصب عيني منذ اللحظة الأولى أن أتعرف وجه الصواب ، وأصل إلى الحقيقة في شأن هذا الشعر الجاهلي ، وإلى أي حد أصاب من شك فيه ، ثم أرى قيمة هذا الشعر ، وهل هو نتاج عصر غبر ، وحياة بعيدة عنا كل البعد ، وليس فيه من الصور الفنية والخيال الأدبي ، ما يدعونا إلى التمسك به والعكوف عليه ، أو أن هذا تجن لاموضع له ، وأن في هذا الشعر آيات فنية رائعة ، ولكن لم يتح للناس أن يعرفوها على حقيقتها ، إذ لم تعرض عرضاً جديداً شائقاً يُجلى مواضع الجمال والفن فيها ؟ !

وقد تسكفت لي الحقيقة العارية بعد الدرس الطويل ، ورأيت أن خير معرض ينبلج فيه وجه الحق في هذه القضايا هو دراسة شاعر جاهلي من شعراء الطبقة الأولى أجعل حياته وشعره موضوعاً لبسط الرأي الذي وقفت عليه ، وإن كان كل شاعر له ظروف خاصة به ، بيد أن هناك عوامل مشتركة تجمع بين الشعراء الذين نشؤوا في بيئة واحدة وعصر واحد .

X وقد وقع اختياري على النابغة الذبياني ليكون موضع هذه الدراسة ؛ لأنه أحد ثلاثة أجمع النقاد قديماً وحديثاً على عددهم شعراء الطبقة الأولى في العصر الجاهلي ، وهم امرؤ القيس ، وزهير ، والنابغة ، واختلفوا في أي الثلاثة أحق بالسبق . وقد سعد زميلاؤه ولاسيما امرؤ القيس بأبحاث شتى في القديم والحديث ، وإن لم تبلغ بعد الدرجة التي نصبو إليها ، أما النابغة فلا أعرف باحثاً خصه بالدرس المستفيض ، ووضع شعره في ميزان النقد الحديث ، وعرض فنه عرضاً يليق بمكانته الأدبية وبشهرته في عالم الشعر وآثرت النابغة بالدرس لسبب آخر ، وهو أن شعره يعطينا صورة واضحة عن مهمة الشاعر الجاهلي وأثره في بيئته وأثر بيئته فيه ، فقد كان النابغة شاعر القبيلة يشعر بالتبعية الملقاة على عاتقه ، وتنتظر منه القبيلة القيام بواجبه إزاءها . ثم إنه اتصل بالحضارات القريبة منه ، وتجلى أثر هذا الاتصال في شعره ، فانسع أفقه ، وتنوع خياله

وهو بهذا يعطينا فكرة صالحة عن العقلية الجاهلية في أعلى صورها . زد على ذلك أن النابغة نهج في الشعر منهجاً تبعه فيه من أتى بعده من الشعراء حتى اليوم ، فهو ذو أثر قوى في الشعر العربي ، فإن كان ثمة جناية على الأدب العربي فهي جنايته ، ولست هنا في مقام الإفاضة في هذا الأثر الذي تركه النابغة في أدبنا فلذلك موضعه من الكتاب . ولكن النابغة بسلوكة هذا النهج دفعني إلى دراسته حتى أتعرف على أثر الشعر الجاهلي في الأدب العربي ممثلاً فيه .

وقد ابتدأت بحثي بتمهيد تاريخي بسطت فيه تاريخ اللغة العربية وتطورها حتى وصلت إلى عصر النابغة ، وكيف اتصلت هذه اللغة بالحضارة ، واتسعت مادتها ، وطرق التعبير فيها ، وتوحدت لهجاتها . ثم تكلمت على بيئة النابغة ، فالقبيلة — وهي وحدة المجتمع في البادية — كان لها أثر كبير في الشاعر ، والأغراض التي تناولها في شعره ، كما كان للصحرى أثر واضح في خياله وتفكيره وطباعه ولغته ، وكذلك كان للحروب التي شهدتها ، والحياة التي عاشها في ظل ملوك الحيرة والغساسنة .

ثم تكلمت عن ديوانه ، والجهود التي بذلت في تحقيقه ، ومعرفة الصحيح والمنحول من شعره ، وفضل المستشرقين في ذلك .

أما حياة الشاعر ، وخلقه ودينه وفنه فقد جعلت شعره المصدر الأول الذي استقي منه مادة بحثي على قلة ما وصل إلينا منه ؛ لأنه أصدق محدث عن ذلك ، ولا سيما والشاعر الجاهلي كان صادق الحديث عن نفسه ، وعن بيئته .

وقد حاولت جهدي أن أعرض الصور الفنية الجميلة لدى النابغة في معرض شائق ، ولا سيما تلك التي تمت إلى عنصر إنساني عام ، يعجب بها كل من يطلع عليها ، وقد أردت بذلك أن أجذب القارئ إلى الاطلاع على الشعر الجاهلي ؛ لأن به مادة شبيهة ، وفناً جميلاً لا يصح أن يحرمهما .

ولما كانت لغة الشعر الجاهلي تحتوي على كثير من الغريب ، مما يجعل التمتع به ليس

ميسوراً إلا على من يقف على معاني ألفاظه ؛ إذ قد بعد العهد بيننا وبين العصر الجاهلي وعادت الألفاظ المألوفة لدى عرب الجاهلية غريبة لدينا ، فقد عنيت بشرح الآيات التي سقتها في مجال الاستشهاد .

هذا وإن من عوامل النهضة الأدبية التي يجب أن نوليها اهتماماً زائداً ، عرض التراث الأدبي القديم في ثوب جديد يلفت إليه الأنظار ، ويحبب فيه جمهرة القراء ، حتى لا يزهدوا في القديم فلا يكون لهم جديد . فالأمة التي لا تعنى بماضيها وقديمها ، لا يكون لجديدها أساس متين يرتكز عليه وسرعان ما ينهار .

وقد بذلت بعض المحاولات في عرض صور من الشعر الجاهلي في شكل طلي شائق ، من مثل ما فعله الدكتور طه حسين بك في (حديث الأربعاء) ، ولكنها صور محدودة ، وبطريقة صحفية ليس فيها كثير من التحقيق العلمي ، وإن باغت الغاية التي كتبت من أجلها .

ولا أدعى أن كتابي هذا يرى من النقص ، ولكنني بذلت جهدي في أن أساهم في إحياء التراث الأدبي القديم ، وأن أعرض شاعراً جاهلياً من الصف الأول عرضاً جديداً متوخياً التحقيق العلمي على قدر المستطاع ، ولعلني أكون قد وفقت فيما قصدت إليه ، على الرغم من الصعوبات الجمة التي يجدها الباحث في الشعر الجاهلي ، والمسائل الشائكة التي عليه أن يعالجها ، والله الموفق للصواب .

عمر الرسوفي

القاهرة } ربيع الأول ١٣٦٨
يناير ١٩٤٩

تمهيد تاريخي

- ١ -

الأمة العربية :

يعرف العصر الذي عاش فيه النابغة الذبياني بالعصر الجاهلي ، وهو اسم أطلق في الإسلام ^(١) على تاريخ الأمة العربية قبل بعثة الرسول عليه السلام .

وتاريخ عرب الجزيرة في هذه الفترة غامض ، ولا سيما إذا حاولنا أن نكشف عن نشأة الأمة العربية ، وكيف صهرت في أحقاب التاريخ السحيقة حتى بلغت هذا النضج العقلي واللغوي المتمثلين فيما خلفته من آثار أدبية شعراً ونثراً .

بيد أن ثمة فترة يسيرة من تاريخ هذه الأمة لا تزيد عن قرنين من الزمن قبل الإسلام ظهرت فيها إلى ضوء التاريخ ، فاستطعنا أن نعرف شيئاً عن حياتها ومجتمعاتها وعاداتها وحروبها .

هذا وقد جلا الكشف عن بعض النقوش اليمنية شيئاً من تاريخ سكان الجزيرة القدماء الذين سكنوا اليمن حيناً من الدهر ، وكونوا بها دولا ذات حضارة من معينية وسبئية وحميرية ^(٢) . وإن كان العلماء لا يزالون عاكفين على دراسة هذه النقوش ولما يفرغوا منها ، ليقولوا كلمتهم الأخيرة في تاريخ هذه الدول .

(١) راجع بلوغ الأرب للألوسي ج ١ ص ١٥ وما بعدها ففيه بحث واف عن كلمة (جاهلي)

(٢) يرجع (جلزر) Glaser أن أقدم النقوش التي اكتشفت يرجع إلى القرن الخامس عشر قبل الميلاد ، وأن أحدثها يرجع إلى القرن التاسع أو الثامن قبل الميلاد ، وأن النقوش المعينية هي أقدم النقوش ، وتليها السبئية ، ثم الحميرية .

ويرى (مولر) Müller أن السبئية والمعينية كانتا متعاصرتين ، وأن أقدم النقوش يرجع إلى ما بين سنة ٩٠٠ ، و ٨٠٠ قبل الميلاد .

ويتفق كلاهما على أن الدولة الحميرية غلبت السبئية وأسست سنة ١١٥ ق م .

راجع الجزء الثاني من

Müller : Die Burgen und Schlosser Sudarbiens

Glaser : Zwei Inschriften über den Dammbruch von Marib — وراجع

ويقسم المؤرخون العرب عادة إلى: عرب بائدة، وعاربة، ومستعربة. أما العرب البائدة فهم الذين ورد ذكر بعضهم في القرآن مثل عاد وثمود. وقد وجد بشمال الحجاز بالقرب من (تيماء) في (العلا والحجر)^(١) وغيرها بعض النقوش بالخط المودى، ولكنها لا تليق ضوءاً كافياً على تاريخ هؤلاء القوم، ولا نكاد نعرف عنهم على وجه اليقين إلا ما ذكره القرآن الكريم على سبيل العظة والاعتبار. ومن العرب البائدة طسم وجديس، وقد رويت عنهما أساطير لاتصل إلى مرتبة التاريخ. ومنهم العمالقة ويقال: إنهم الهكسوس الذين غزوا مصر وأسسوا بها بعض الأسر الفرعونية، وعليهم وفد إبراهيم عليه السلام، ولهم استوزر يوسف الصديق^(٢). ولكن أخبار هؤلاء لم تثبت على وجه اليقين، وما هي إلا روايات تروى، وقد يكون لها نصيب من الصحة.

أما العرب العاربة فينسبون إلى يعرب بن قحطان، وهم سكان اليمن الذين كونوا الدول السالفة الذكر، وسموا بالعاربة لأنهم أصل الأمة العربية.

والمستعربة: هم سكان الشمال الذين وفدوا على الجزيرة من البلاد المجاورة واختلطوا بأهلها فتعربوا، وينسبون إلى اسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام.

وتنبئنا النقوش اليمنية التي اكتشفت: بأن لغة القحطانيين الأول تختلف اختلافاً محسوساً عن اللغة العربية كما رويت في الشعر الجاهلي، وكما نزل بها القرآن الكريم، حتى قال أبو عمرو بن العلاء^(٣): « ليست لغة حمير بلغتنا ولا عربيتهم بعريتنا »، وهنا لابد لنا من كلمة موجزة في تاريخ اللغة العربية لنعرف كيف توحدت لهجاتها،

(١) راجع الفصل الأول من بروكلمان في كتابه:

Semitische Sprachwissenschaft

ويقول بروكلمان عند الكلام على اللغة الآرامية: إنه قد وجدت بعض الآثار في شمال الحجاز منقوش عليها كتابة تختلف عن الآرامية. وهي بثلاثة خطوط: لحاني ومودى وصفوى وفيها تستعمل أداة التعريف (ها) بدل (أل)، وليست لغتها مشابهة للغة العرب في أدايتهم المعروفة. وأبجديتها مأخوذة عن الفينيقيين مباشرة.

(٢) يرى بعض المؤرخين المحدثين أن العمالقة أسسوا دولتين إحداهما بالعراق وهي دولة حاموراني والأخرى بمصر وهي الأسرة الثالثة عشرة، وقد خرج إبراهيم (وكان على عهد حاموراني) قاصداً مصر حوالي سنة ١٩٢١ ق م.

(٣) أبو عمرو بن العلاء بن عمار أحد القراء السبعة، وأحد من أخذت عنهم اللغة توفي سنة ١٥٤ هـ.

وامتزجت عناصرها المختلفة حتى وصلت إلينا كاملة الأداء متقنة التركيب على عهد
النابغة الديباني ، ثم بلغت ذروتها في القرآن الكريم .

تاريخ اللغة العربية :

اللغة العربية هي إحدى اللغات السامية ^(١) ، ويرى علماء اللغات آراء شتى في الموطن
الأصلي للأمم السامية ، ولكن الرأي الراجح لديهم الآن هو أن جزيرة العرب كانت
الموئل الأول لهذه الشعوب خرجت منها على موجات متتابعة في أحقاب التاريخ ،
وأنها كانت يوماً ما تتكلم لغة واحدة ^(٢)

وقد يعترض على هذا بأن من الصعب تحقيق الموطن الأول للأمم السامية في
عصر لم يلق عليه التاريخ أى ضوء ، ولكن إذا نظرنا إلى الشام والعراق في العصور
التاريخية وجدناهما هدفاً لهجرات متتابعة من الصحراء المجاورة لهما . ولما كانت الحبشية
تشارك مع مجموعة اللغات السامية في خصائصها ، فيظن أن الجزيرة العربية كانت موطن
الساميين قبل هجرتهم ، وأنهم نزحوا منها شمالاً وجنوباً وغرباً إلى البلاد الخصبة
القريبة منهم .

قد يقال : بأن اللغة لا تنتقل بالوراثة من جيل من الناس إلى جيل آخر فحسب ،
ولكنها قد تفرض على شعوب أخرى ليست لها علاقة وراثية بالشعب الذى فرض
لغته ، مثل ذلك اللغة اللاتينية في القديم حيث فرضت على (السلت) ، والعربية بعد
الفتح الإسلامي ، والإنجليزية في العصور الحديثة .

(١) اللغات السامية هي : العربية ، والسريانية ، والفينيقية ، والآشورية ، والبابلية ، والآرامية ،
والحبشية ، والمصرية القديمة على الأرجح ؛ وسميت سامية نسبة إلى سام بن نوح ، وهذه التسمية تبع فيها علماء
اللغات تقسيم التوراة ، وإن كانوا يرون أنها لا تنطبق على التحقيق العلمى من حيث أصول الأجناس ، ولكنهم
وجدوا أن هذه المجموعة من اللغات تشارك في خصائص معينة ، من حيث تركيب الجملة ، والمفردات ، وطرق
النحت واشتقاق الكلمات ، ورأوا كلمة (سامية) قصيرة وسهلة التداول فأقروا تقسيم التوراة هذا (وهذه
الفقرة الموجود بها التقسيم في الإصحاح العاشر من سفر التكوين)

راجع الفصل الأول من بروكلمان Senitische Sprachwissenschaft

(٢) راجع تاريخ اللغات السامية لإسرائيل ولفنسون ص ٤ - ٦

ومن المرجح أن البابلية فرضت على أهل العراق ، وأن العبرية والآرامية فرضتا على أهل الشام ، وأن الشعوب الأصلية التي كانت تقيم بتلك البلاد كانت تتكلم لغات أخرى .

ومهما يكن من أمر فإن الشعوب التي هاجرت من جزيرة العرب شمالاً إلى العراق والشام ، وغرباً إلى مصر ، وجنوباً إلى الحبشة قد فرضت لغاتها على الشعوب التي وجدتتها (١) .

وما لا ريب فيه أن اللغات السامية في هجرتها قد أخذت كثيرًا من لغات الشعوب التي غزتها : في مفرداتها ، وطريقة أدائها ، وآدابها ، وصفاتها الصوتية ، وبذلك تباينت ، وإن حافظت على كثير من الميزات العامة المشتركة .

أما العربية فعلى الرغم من أنها أحدث هذه اللغات نشأة وتاريخًا ، فإن علماء الساميات يرونها أو في مرجع لدراساتهم ؛ لأنها لم تتعرض لما تعرضت له اللغات السامية الأخرى من الاختلاط ؛ لمنعة الجزيرة العربية واعتصام أهلها بصحرائهم فعزوا على الغزاة ، ولا سيما في الوسط والغرب ، وبهذا حافظت على كثير من خصائص اللغة الأولى التي كانت تتكلم بها الشعوب السامية قبل هجرتها (٢) .

وأما كيف نشأت اللغة العربية وتطورت حتى صارت إلى حالتها التي سجلها الشعر الجاهلي والقرآن الكريم ، فأغلب الظن أنها مرت في ثلاث مراحل ، ولا نستطيع أن نجزم برأى قاطع في هذا الموضوع إلا في المرحلتين الأخيرتين .

(٢) - في المرحلة الأولى نرى قبائل من اليمن تحترف التجارة ، وتنقل السلع من الهند إلى مصر والشام عابرة جزيرة العرب من الجنوب إلى الشمال محاذية شاطئ البحر الأحمر ، مارة بالحجاز . وقد أقامت بعض هذه القبائل اليمنية بالحجاز مثل قبيلة (جرهم) ثم وفد (٣) اسماعيل وأمه هاجر المصرية وأقاما بمكة مع جرهم ، وتزوج اسماعيل منهم

(١) راجع الفصل الأول من بروكلمان وراجع كذلك تاريخ الموجات البشرية للأستاذ محب الدين الخطيب

(٢) راجع بروكلمان Sem. Spr. Ch. I

(٣) ويرى الأزرق في تاريخ مكة طبعة (وستينفيلد) ج ٢ ص ٢٤ أن جرهم وفدت على اسماعيل وأمه حين نبعت عين زمزم ، وكانوا في طريقهم من الشام إلى اليمن فأقاموا معها حيث المأوى وفيه

وترعرع بنوه يأخذون من لغة أمهم القحطانية ، ولغة أبيهم العبرية ^(١) ، ولغة جدتهم المصرية ، وكانوا نواة العرب المستعربة وذلك في نحو سنة ١٩٠٠ ق م .

وقد شك بعض مؤرخي الفرنجة ^(٢) في هذه القصة . وعدوها أسطورة لا تاريخاً دون أن يسوقوا دليلاً واحداً يدحضها ، اللهم إلا الظن بأن العرب انتسبوا إلى اسماعيل حتى لا يكون لليهود المقيمين بين ظهرانهم فخر عليهم بانتسابهم لآسحق ابن ابراهيم .

وهذا الشك لا يقوم على أساس ، فقد ثبت من النقوش التي كشفت في أواخر القرن الماضي أن قبائل معينة عديدة قد هجرت ديارها ، وانتشرت في الحجاز وشمال الجزيرة في الألف الثاني قبل الميلاد وهي القبائل التي عرفت في التوراة باسم (معونيم) ، كما ذكرت في الكتابات المصرية القديمة باسم (معين مصران) ، وقد غزت بطون منهم جنوب فلسطين وكونت لها دولة في منطقة غزة ، وحافظت على كيائها حتى عهد الاسكندر الأكبر ^(٣) .

فهل ثمة ما يمنع أن تكون جرهم من تلك القبائل التي تركت اليمن واستطوتت الحجاز حين رأت الماء وفيراً ، وسوف نرى أن قبيلة خزاعة اليمنية حين جاءت مكة عقب انهيار سد مأرب قد أجلت جرهم عنها .

أما أن العرب قد انتسبوا لإسماعيل حتى لا يفضلهم اليهود فهذا رأى عجيب ، لأن اسماعيل مذكور في التوراة ، ومذكور أنه ذهب إلى مكة مع أمه هاجر ، والتوراة وإن لم تكن كتاباً تاريخياً فذكر اسماعيل بها يبطل هذا الرأي ؛ إذ يدل على أن اليهود

(١) المعروف أن ابراهيم عليه السلام هاجر من بلاد السكدان في عصر حامورابي ، وذهب إلى مصر وعاد منها ومعه هاجر زوجته الثانية ، وأقام بفلسطين حيث ولد له اسماعيل ، فأبراهيم كان يتكلم السكدانية واسماعيل يتكلم بفلسطينية كان يتكلم العبرية المزوجة بالمصرية لغة أمه مع شيء من السكدانية لغة أبيه ، وربما كانت هذه اللغات متقاربة في ذلك العهد إذ كانت حديثه الصلاة بالأم السامية الأولى

(٢) انظر Huart. Histoire des Arabes الفصل الثالث

(٣) راجع تاريخ اللغات السامية لولفنسون ص ١٧٦ - ١٧٧

وراجع مقالة عن (أصل العرب) للدكتور جواد علي بمجلة الرسالة ١٩٤٥/١٢/٩

يقرون بأبوته للعرب ، وأن العرب ليسوا في حاجة إلى ادعاء أبوته حتى يفخروا على اليهود وهم به معترفون .

ثم إن من الثابت في التاريخ إن هجرات اليمن من الجنوب إلى الشمال لم تنقطع ، وأن أهل اليمن كانوا واسطة التجارة بين الهند ومصر حتى حولت إلى طريق البحر الأحمر والقصير على يد البطالسة .

وقد قلد بعض^(١) الباحثين المعاصرين هؤلاء الفرنجة في شكهم هذا ، ورتبوا على إنكار قصة اسماعيل وإبراهيم الشك في الشعر الجاهلي الذي روى لشعراء يمينيين ؛ لأن التفاوت في رأيهم عظيم بين لغة القحطانيين ولغة العدنانيين كما رواها الشعر الجاهلي .

مع أن الاختلاف بين القحطانية والعدنانية أمر طبيعي ؛ لأن للزمن وللبيئة وللتطور اللغوي في مدى هذه السنين الطويلة حكم لا يخفى على من يتجرى الحقيقة . ثم إن ثمة مرحلتين بعد ذلك قدمرت بهما اللغة العدنانية دعماً إلى هذا الاختلاف ، وسنذكرهما فيما بعد .

ولكن مما لا ريب فيه أن اللغة القحطانية أو لغة العرب العاربة أصل من أصول العدنانية . تدل على ذلك النقوش اليمنية التي درسها العلماء ، والتي نرى بين أيدينا منها مقداراً يكفي لهذا الحكم^(٢) .

بل إن في هذه النقوش عبارات تتفق مع العربية كلمات وتركيباً مثل « بورك وتبارك اسم الرحمن الذي بالسماء »^(٣) ، ومثل « ونذرت للذي بالسماء نذراً لأنها أخطأت

(١) هو الدكتور طه حسين بك في كتابيه (في الشعر الجاهلي) و (في الأدب الجاهلي) ، وقد رد عليه أكثر من واحد من أجلة العلماء ، ومن أحسن الكتب التي ردها على الدكتور كتاب (النقد التحليلي لكتاب في الأدب الجاهلي) للأستاذ محمد الغمراوي

(٢) راجع مجموعة النقوش الحميرية

Chrestomathia Arabica Meridionalis Epigraphica

للعالم الطلياني كونت روسيني Karolus Conti Rossini

وراجع المختصر في علم اللغة العربية الجنوبية القديمة لأغناطيوس جويدي — من مطبوعات كلية الآداب بالجامعة المصرية سنة ١٩٣٠ ، وراجع الموازنة بين النقوش الحميرية واللغة العربية للأستاذ محمد الغمراوي في كتاب النقد التحليلي ص ١٨٥ وما بعدها

(٣) كونت روسيني ص ٧٠

ببيته ومحرمه ، ولأنها وطنت موطناً غير طاهر^(١) ، ومثل « وإن بهما شعرت أولم
تشعر^(٢) » ، ومثل « وذبح لهذا الوثن ذبيحة صحيحة أنثى أو ذكرأ^(٣) » ، ولعلك تعجب
من ذكر لفظ (الرحمن) في النقوش الحميرية مع أنه لم يكن معروفا لقريش حتى قال
الكفار « وما الرحمن^(٤) » ، ولعلك تعجب لهذه الكلمات الدينية الاصطلاحية مثل
(غير طاهر) و (نذرت) و (تبارك وبورك) . وإن كنت أرجح أن هذه الكلمات
نقشت في عصور متأخرة ولعلها العصور التي تهودت فيها اليمن على عهد ذى
نواس الحميرى .

وهناك مئات من الكلمات المشتركة بين اللغتين في أقدم النقوش ، تجد بعضها
مطابقاً في رسمه ومعناه لما في العربية مثل أخ ، وأخت ، وركب ، ووثن ، وشبل ،
وسبع ، وأسد ، وشهر ، وشيب ، وقلب ، وقليل ، وحادثه ، وخليفة ، وغلام ، وثن ،
وترعة ، وملك ، وفرس ، وإبل ، وحره ، وخيل بمعنى القوة ، وخميس بمعنى الجيش ،
وخريف بمعنى السنة ، وطيب ، ويدس ، وكسف ، ومنجاة ، ومقام بمعنى رئاسة ،
ومقتوى بمعنى مساعد ، ونكاية بمعنى ظلم ، ونعمة ، وعلى بمعنى رفع البناء ، وتجد في بعضها
تحريفاً يسيراً مثل عدو بمعنى اجناز ، وكوّن بمعنى كان ، ومرآهم بمعنى أمراءهم ،
وهقشب بمعنى نصب وشيد ، ومنه القشيب أى الجديد .

فهل بعد هذا يقال إن اللغة القحطانية ليست أصلاً من أصول العربية العدنانية ؟
ثم من أثبت أن لغة العدنانيين أيام اتصالهم بجرهم هى لغة العدنانيين التى روى بها الشعر
الجاهلى ، وبين اللغتين ما يزيد عن ألفين وأربعمئة سنة . تطورت فيهما اللغة تطوراً
كبيراً حتى صارت إلى ما نعرف ؟ !

(١٢) — وأما المرحلة الثانية فتلك التى مرت بها اللغة العربية حين انهار سد مأرب باليمن
سنة ١١٥ ق م تقريباً ، وأغرق البلاد وأتلف الزرع ، وهدد المساكن فهاجر كثير من

(١) كونت روسيني ص ٥٤ (٢) نفس المرجع ص ٤٤ (٣) « وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن ،
قالوا وما الرحمن ؟ أنسجد لما تأمرنا وزادهم نفورا » سورة الشعراء الآية ٥٩

القبائل اليمنية إلى الشمال ، وإلى هذا أشار القرآن الكريم بقوله : « لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ (١) فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ ، كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ ، وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ . فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ ، وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِىْ أَكْثَ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ لَّيْلٍ ، ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا ، وَهَلْ نُجَازِىْ إِلَّا الْكَافُورَ . »

ومن القبائل التي هجرت اليمن في ذياك الحين بنو ثعلبة بن عمرو ، وقد نزلوا المدينة ووجدوا بها بعض اليهود فاستوطنوها ، وغلبوا أهلها ، ومن بنى ثعلبة هؤلاء الأوس والخزرج ابنا حارثة بن ثعلبة .

ومن هذه القبائل خزاعة ، وقد جاؤوا الحرم ، وأجلوا عنه سكانه من جرهم . وسار قوم من الأزد نحو عُمان واستوطنوها ، وسارت قبائل نصر بن الأزد نحو تهامة وهم أزد شنوءة .

وسار جفنة ابن عمرو إلى الشام ، وأقام بها هو وبنوه ، وهو أبو الملوك الغساسنة نسبة إلى غسان ، وهو ماء كان بنو مازن من الأزد قد نزلوا به فنسبوا إليه . ومن ترك اليمن كهلان ، ثم من بنى أدَد بن زيد قبيلة لحَم بن عدى ، ومعهم نصر بن ربيعة أبو الملوك المناذرة بالحيرة .

ومنهم طي : ساروا بعد مسير الأزد نحو الشمال حتى نزلوا بالجبيلين (أجأ وسلمى) حين شاهدوا ما عليه المسكان من خصب ، وهذان الجبلان في الشمال الشرقى من المدينة ، ويخترقهما وادى الدهناء .

(١) كانت مأرب عاصمة مملكة سبأ ، وبتصدع السد انهارت دولة سبأ ، وتغلب الحميريون على ملك اليمن في سنة ١١٥ ق م ، ولا تزال آثار السد باقية حتى اليوم . وكان الغرض من إقامته حفظ مياه الأمطار الغزيرة التي تكثرت في الصيف لينتفع بها في الزراعة والشرب بدل أن تذهب سدى إلى البحار المجاورة أو تتسرب إلى رمال الصحراء .

راجع « تاريخ العرب عصر ما قبل الإسلام » للأستاذ محمد مبروك نافع ص ٩٩ وما بعدها ففيه بحث واف عن السد

ومنهم قبيلة كلب بن وبرة من قضاة أقامت ببادية السماوة ، وهي في الطرف
الشمالي من نجد ، وتتصل بالعراق ، ويخترقها وادي الدهناء .

ومنهم لحم و جذام . وقد سكنوا أطراف بادية الشام من الجنوب .

ومنهم قضاة ، وقد أقامت في شمال الحجاز ، وفي جزء من سيناء . إلى غير ذلك من
القبائل التي تفرقت في شتى أنحاء الجزيرة العربية حتى ضرب بهم المثل فقليل : « تفرقوا
أيدي سبا » .

فهذا الفيض من أبناء اليمن قد غمر بلاد العدنانيين ، وقد انقسموا بطونا وأغاذآ
وفصائل وعشائر وأسرا ، وتغلغلوا في القبائل العدنانية . ولا شك أنهم حملوا معهم
لغتهم السبئية والحيرية ، وما فيها من كلمات جديدة على العرب العدنانيين ، إذ كان
أكثرهم بدوا ، لم يألفوا معيشة الاستقرار ، وسكنى الدور والقصور ، ونظم الحكم ،
وطرق الزراعة والصناعة ، كما كان حال أهل اليمن .

وكان لزاما على هذه القبائل أن يتفاهم بعضها مع بعض ، وقد اختلطوا بالعدنانيين
اختلاطا شديداً : بالجوار والمصاهرة والحروب والتجارة والحج ، فأدى ذلك إلى
تقارب اللغتين وتكوين لغة واحدة يفهمها الجميع ، وإن بقيت في لسان كل قبيلة عدنانية
أو يمنية بعض اللفظ التي عسر عليهم أن يتخلصوا منها ، وظل هذا التفاعل بين اليمنية
والعدنانية يشتد ويقوى ، وتتطور اللغة وترقى مدى خمسة قرون حتى دخلت اللغة
مرحلتها الثالثة

(٣) وبهذا نرى بجانب هذه اللهجات القبلية التي تلمح بها كل قبيلة والتي لا يعرفهمها
على سائر القبائل ، لغة أخرى مثالية خالية من العيوب الشائعة في ألسنتها ، تلك هي
لغة الشعر .

إن أقدم نص في الشعر الجاهلي لا يزيد عن قرنين من الزمن قبل الإسلام ،
وكان من الطبيعي أن يكون للعرب لغة أدبية تعبر عن العواطف السامية ، وترتفع عن
مستوى الكلام المألوف ، حين يريدون الإيضاح عن شعور غير عادي تختلج له
أحاسيسهم ، أو عن فكرة رفيعة في أذهانهم ، وقد اتخذت القبائل المتباينة هذه اللغة

المثالية أداة للتعبير عن شعورها وحكمها على الرغم من وجود فوارق يسيرة في لهجاتها الخاصة .

وهذا أمر شائع في كل الأمم المتبدية منها والمتحضرة . ففي (إنجلترا) اليوم عشرات اللهجات التي يشق على كثير من الإنجليز فهمها والإحاطة بها كلها ، بيد أن هناك لهجة واحدة ينطق بها الجميع حين يتقابلون أو حين يتعلمون أو يكتبون تلك هي اللهجة المعروفة باسم (Public School Dialect) وهي التي يدون بها الأدب ، وتسطر الصحف ، وتتكلم بها الطبقة الراقية من الناس تاركين ما في ألسنتهم الإقليمية من هنأت ، ولا عجب فاسمها (اللهجة التعليمية العامة)

وها نحن أولاء بمصر نرى فروقا غير يسيرة في لهجات النطق بين أفراد الشعب من مناطق مختلفة ، فأهل شمال الدلتا مثلاً يحذفون أواخر الكلمات ، ولهم كلمات اصطلاحية خاصة لبعض الأشياء ، وأهل القاهرة يسهلون (القاف) إلى همزة ، وأهل الصعيد يقبلون الهمزة عينا أحيانا وهكذا ، ومع كل ذلك نرى الطبقة المتعلمة من كل إقليم تتناسى تلك الخصائص اللسانية وتحاول جدها أن تتخذ لهجة القاهرة والمدن لها لساناً . وحين تحاول التعبير عن شعور سام أو فكرة أدبية تلجأ إلى اللغة الفصحى لغة المدرسة والكتاب والصحافة والأدب .

ولقد أنكر بعض الباحثين المعاصرين ^(١) وجود مثل هذه اللهجة الموحدة بين عرب الجاهلية ، وشك تبعاً لذلك في الشعر الجاهلي ، ولا سيما ذلك الذي روى عن شعراء ينتسبون إلى قبائل يمنية مثل امرئ القيس .

وقد يكون الشك وسيلة صالحة من وسائل البحث إذا كان الغرض منه الوصول إلى الحقيقة ، أما أن يتخذ الشك وسيلة وغاية ، وأن يشك الباحث لمجرد الشك ، فذلك أمر لا تقره طرق البحث الحديثة .

وكيف ننكر وجود مثل هذه اللهجة الموحدة بين القبائل التي كانت تقيم في وسط

(١) هو الدكتور طه حسين بك في كتابه (في الشعر الجاهلي) و (في الأدب الجاهلي)

الجزيرة وشمالها . وقد ثبت أن النبي عليه الصلاة والسلام كان يعرض نفسه على القبائل المختلفة في الأسواق والمواسم ، ويدعوها إلى دينه الجديد ، وقد سمع الأنصار دعوته - وهم من الأوس والخزرج اليمينيين - واستجابوا له ، وبهرتهم فصاحة القرآن فأمنوا به ؛ ثم وفدت عليه بالمدينة وفود القبائل من شتى أنحاء الجزيرة فما وجدوا ولا وجد عسراً في الحديث . ثم نراه يرسل رسله إلى القبائل تبصرهم بالدين الجديد وتهديهم إلى هديه من غير أن يجدوا مشقة في تأدية رسالتهم ، ولقد أرسل علياً ومعاذ بن جبل إلى اليمن فما شكوا رسوله ولا شكوا أهل اليمن عدم التفاهم ؛ وذلك لأن هذه اللهجة الموحدة انتشرت في جميع أنحاء الجزيرة قبل الإسلام ، وصار يفهمها حتى أهل اليمن أنفسهم ؛ وذلك لتمام نضجها وكما لها وقدرتها الفائقة على التعبير وخلوها من النقائص القبلية ، ثم لقوة المتكلمين بها من أهل الشمال وسيطرتهم التامة على شئون الجزيرة بعد أن تضعضع نفوذ أهل اليمن ، وخضوعهم للاستعمار الأجنبي من حبشي تارة ، وفارسي تارة أخرى ، وليس معنى ذلك أنها كانت لغة أهل اليمن ، ولسكنها كانت مفهومة لديهم .

وهذا هو القرآن ، وهو خير مثل للغة العرب في جاهليتهم ؛ لأنه نزل لهدايتهم ، ولا بد لهم من فهمه قبل أن يهتدوا بهديه . أتراه نزل بلغة قريش خاصة ، وأن هذه اللغة فرضت على سائر العرب فرضاً بعد نزول القرآن ؟ أم نزل بتلك اللغة الموحدة التي كان يفهمها العرب جميعاً ، والتي كانت لهجة قريش أقرب اللهجات منها لأسباب عدة سنذكرها بعد ؟ .

لاريب أن القرآن لم ينزل لقريش خاصة ، وإنما نزل للعرب أجمعين . وقد أقروا بإعجازه ، وفتنوا ببلاغته ، وفهموه فأمنوا به .

وفي ذلك يقول العلامة بروكلمان ^(١) : « لقد اتخذ شعراء الجزيرة في شتى أماكنهم وعلى الرغم من اختلاف قبائلهم لغة مشتركة ، وتدل سمات هذه اللغة ، والطريقة التي انتهجها الشعراء في تعبيرهم على أنها لغة شعرية . »

(١) في الفصل الأول من كتابه

وليس ثمة أية فرصة للشك في وجود مثل هذه اللغة المشتركة في عصر لم تعرف فيه الكتابة ، ولم يجد الشاعر أمامه أية وسيلة إلا الإنشاد ^(١) . وهناك أمثلة عدة تدل على وجود لغات أدبية في الأمم البدائية مع وجود لهجات دارجة .

وإلى جانب هذه اللغة الأدبية كانت توجد لهجات مختلفة للقبائل الشمالية ، لم يحدثنا النحاة عنها إلا القليل ، ولكن ثمة لهجة من هذه اللهجات نعرفها حق المعرفة ، وتلك هي لهجة قريش التي كان يتحدث بها محمد (عليه السلام) ، وأغلب الظن أن القرآن نزل بتلك اللغة الشعرية الأدبية العامة ، يدل على ذلك ما في القرآن ذاته من تعابير وصفات صوتية لم تكن في لهجة قريش ^(٢) .

ويرى (نولدكه) ^(٣) كذلك أن القرآن لم ينزل بلهجة قريش خاصة ، وإنما هذه فكرة نشأت في العصر الأموي لإظهار تفوق قريش على بقية القبائل العربية في كل شيء علاقتهم بالنبوة .

ولقد تضافرت عوامل عدة على تكوين اللهجة الموحدة بين العرب واتخاذها أداة للتعبير في المنافرات والمفاخر والشعر والخطب ، فمن ذلك الأسواق السكينة التي كانت تقام في مختلف أنحاء الجزيرة العربية طوال شهور السنة ؛ لتبادل المنافع حتى لا يكاد يخلو منها شهر . فكانوا يجتمعون في (دومة الجندل) في أول ربيع الأول ثم ينتقلون إلى (هجر) بالبحرين في شهر ربيع الثاني ، وفيها قيل المثل المشهور : كبضع التمر إلى هجر ، وفي شهر جمادى يذهبون إلى (عمان) ويظلون ثمة حتى آخر الشهر وبعد ذلك يرحلون إلى (المشقر) وهو حصن بالبحرين فتقوم به سوقهم أول يوم من جمادى الآخرة ، ومن ثم ينتقلون إلى (صحر) فيقيمون بها بضعة أيام من رجب

(١) ثم إذاعة شعره بين الناس عن طريق الراوية

(٢) فكلمة (الرحمن) مثلا لم تكن معروفة لقريش ، وكان القرشيون يسهلون الهمزات فلا ينطقونها فيقولون في (يؤمنون) يؤمنون من غير همزة مع أن اللهجة العامة تحققها (راجع اللهجات اللغوية للدكتور إبراهيم أنيس ص ٥٦ وما بعدها)

(٣) ص ٥٥ في كتابه

ومن أسواقهم (الشجر) بين عمان وعدن ، وتقوم في النصف من شعبان ، ثم يذهبون إلى (عدن) ومن ثم إلى (صنعاء) في النصف من رمضان حتى آخره .

وفي شهر شوال كانت تقام سوق عكاظ وهي أكبر أسواق العرب ، وتستمر إلى آخر ذي القعدة ، فإذا أهل ذو الحجة أتوا (ذا المجار وذا المجنة) وهما قريبان من مكة . وكانتا تقامان أيام موسم الحج ^(١) .

وكانت هذه الأسواق أشبه بمعارض عامة يفد إليها الناس من شتى أنحاء الجزيرة وتجري فيها مسابقات الخيول ، وتقام الألعاب ، ويتناشد الشعراء ، وتعقد المؤتمرات للنظر في مهام الأمور من مسائل السلم والحرب والخلف والتعاهد والتأثر والتقاضي .
أجل ! كانت بعض هذه الأسواق محدودة الرواد لا يؤمها إلا القريب منها ، ولكن سوق عكاظ ^(٢) مثلاً كانت عامة يشهدها جم غفير من مختلف القبائل في طريقهم إلى مكة للحج ، وفيها كانوا يتبادلون عروض التجارة ، وكان المناذرة يرسلون إليها بعض السلع للبيع وهي المعروفة في التاريخ باللطائم مثل (لطيمة النعمان) ، وفيها كان الناس يفصلون فيما بينهم من مشكلات ، ومن كانت له حكومة لجأ إلى الذي يقوم بأمر الحكومة (وهم أناس من بني تميم كان آخرهم الأقرع بن حابس على ما نقله القلقشندي في قبائل العرب) ^(٣) . وفي عكاظ كانت تقوم المنافرات والمفاخرات وتنشد الأشعار وفي ذلك يقول حسان بن ثابت :

سأُنشِرُ إن حَيِّتُ لهم كلاماً يُنْشَرُ في المِجامع من عكاظ

وفي عكاظ يقول طريف بن تميم العنبري :

أو كلما وردت عكاظ قبيلة بعثوا إلى عريفهم يتوسم ^(٤)

(١) انظر بلوغ الأرب للألوسي ج ١ ص ٢٦٤ وما بعدها

(٢) عكاظ : نخل على مسيرة ثلاثة أيام من مكة ، ويوم من الطائف

(٣) صبح الأعشى ج ١ ص ٤١١

(٤) العريف : رئيس القوم ، لأنه عرف بذلك ، أو النقيب وهو دون الرئيس ، والتوسم : التخييل والتفريس وإنما كانوا يتوسمون طريفاً ؛ لأن لهم عنده ثأراً ولا يستطيعون قتله ؛ إذ كانت عكاظ تقام في الأشهر الحرم ، فكانوا يتوسمون لمعرفته حتى يثأروا منه بعد ذلك .

وفي عكاظ ألقى قس بن ساعدة الإيادي خطبته المشهورة على جمل أورك وسمعتها
النبي عليه الصلاة والسلام ورواها أبو بكر الصديق .

وفي عكاظ كانت تضرب للناطقة الديباني قبة من آدم ^(١) ، ليحكم بين الشعراء . ولم
يكن من المعقول أن يجتمع في هذه السوق وغيرها هذا الجمع الحاشد من شتى أنحاء
الجزيرة ، ومن مختلف القبائل ، من غير أن تكون ثمة لغة واحدة يتخاطبون بها
وينشدون أشعارهم فيفهمها الجميع ، ويتنافرون ويتخاصمون ويتحاكمون ويخطبون
فيفهم الناس طراً ، لقد كان كل ذلك ولا ريب بلغة مشتركة ارتضاها الناس للتعبير
عما في نفوسهم ، تلك هي لغة الشعر الجاهلي ، ولغة الحكم والأمثال والخطب والأدب .
ولقد ذكرنا آنفاً أن لهجة قريش كانت أقرب لهجات العرب إلى لغة الأدب
والشعر المشتركة ، وربما كانت ذا أثر كبير في إحكام هذه اللغة ؛ وذلك لأن قريشاً
كانت تسكن مكة ، وبها الكعبة البيت الحرام ، والكعبة كانت مقصد العرب قاطبة
إليها يحجون كل عام يتقربون إلى أصنامهم التي كانت تحتل مكانها فوق الكعبة . وكان
لسكل قبيلة صنم تعظمه وتتقرب إليه وتهدي الدماء .

وكان العرب ينظرون إلى قريش نظرة تجلة وتعظيم ، لأنهم كانوا ذوى شرف
وسؤدد وثراء . أما الشرف فلأن في قريش كانت حجابة البيت الحرام ، فبيدهم مفاتيح
الكعبة وهم الذين يقومون بخدمتها ؛ وفيهم السقاية ، وهي القيام بملء حياض كبيرة
بالماء يحلون بها شئ من التمر والزبيب ليشرّب منها الناس إذا وردوا مكة ؛ وفيهم
الرفادة ، وهي طعام كان يصنع للحاج على طريق الضيافة .

وأما الثراء ؛ فلأن قريشاً كانت مسيطرة على تجارة الجزيرة العربية في ذياك الوقت
بعد أن اضمحل شأن اليمن ، وكان لقريش رحلتان كل عام أولاهما للشمال في بلاد
الشام صيفاً ، وثانيتهما للجنوب في بلاد اليمن شتاء ، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا

(١) الأدم : الجلد وكانت قبة الأدم علامة الشرف

في قوله : « لا يلاف قريش إيلافهم رحلة الشتاء والصيف » ، وقد خرج النبي عليه السلام إلى الشام مرتين للتجارة قبل البعثة ، وقد أفادت قريش من هذه الرحلات التجارية مالا ومدنية ، وتهذيباً في الطباع ، ورقة في المعاملة ، واجة ، وذلك لأنهم يحترفون التجارة وشأن التاجر الناجح الدماثة والظرف وحسن معاملة الناس ، ثم إنهم كانوا من سكان المدن ، والحضر عادة سريعو التحول يهفون إلى الجديد ، ويقبلون على كل مايكسبهم منزلة أمام غيرهم : من لغة رقيقة ولطف وحسن محاكاة . وعلى العكس من ذلك البدو ، فإن طباعهم جامدة ، وألسنتهم بطيئة التحول .

هذا وقد رأيت أن أشهر أسواق العرب كانت تعقد قريباً من ديارهم ، وكانت قريش تختلط بهذه القبائل جميعاً في الأسواق وفي الحج ، وهي موضع احترامهم وإعجابهم لما ذكرنا ، فلا عجب إذا قلدها في لهجتها .

كانت قريش تأخذ من القبائل المختلفة خير ما في لهجاتها ، وكان العرب يقلدون قريشاً ويحاكونها في كلامها ، ولذلك كله كانت لهجة قريش أقرب اللهجات للغة الغامة المشتركة ، وكان لهم الأثر البالغ في صقلها وتهذيبها وتزويدها بكثير من الكلمات والنهوض بها حتى بلغت منزلة سامية من الإتقان والكمال دعت عالماً ثباتاً مثل بروكلمان أن يقول في وصف تلك اللغة التي روى بها الشعر الجاهلي : « وتتميز لغة الشعر العربي بثروة واسعة في الصور النحوية (الإعراب) ، وتعد أرقى اللغات السامية تطوراً من حيث تراكيب الجمل ودقة التعبير ، أما المفردات فهي فيها غنية غنى يسترعى الانتباه ولا بدع فهي نهر تصب فيه الجداول من شتى القبائل . وإن كان هذا الثراء الواسع الذي بهر علماء اللغة ومؤلفي المعاجم ، وألهج ألسنتهم بالشناء الجم لا يدلنا على أن العرب قد فكروا في السكون تفكيراً عميقاً ، وإنما كانت نظرهم إليه محدودة .

(ولسكن قوة الملاحظة عند البدوى حادة جداً ، حتى إنه ينتبه لأقل شيء في بيئته الطبيعية ، ولا سيما إذا كان في ذلك نفع مادي له ، وهو يصور بلغته كل دقائق الظواهر الصخر اوية ، والصفات والحيوان ، إلى غير ذلك من الأمور . وليس هذا

خاصا بالساميين دون سواهم من الأجناس ، ولكن توجد هذه الظاهرة عند الأمم الذين لهم مثل حالتهم الثقافية تلك . بيد أن هذه اللغة العربية قادرة على الإفصاح عن أرق عواطف الحب والشرف وما ماثلهما ، وعلى الرغم من نزعتها الواقعية فلها روعة شعرية فتانة . ولهذا لا نعجب إذا جعل العرب الشعر الجاهلي مثلهم الأعلى ، ^(١)

والحق إن المرء ليحار في تلك اللغة التي خلفها لنا الشعراء الجاهليون ، ويعجب كيف برزت إلى ضوء التاريخ كاملة الاستواء ، تامة النضج ، لها جرس ورنين في مفرداتها ، غنية بما فيها من دقة التعبير ، وجمال التصوير ، وأساليب السكنايات ، وكثرة الترادف المعينة على تنويع القافية وتسهيل النظم ، وهذا الغنى الزاخر ، في البحور والأوزان .

وإذا كان العربي البدوي لم يحفل بالفلسفة والأساطير ، ولم تسكن له تلك النظرات النافذة إلى السكون وكيف خلق ، فإنه كان غنياً بفطرته السليمة ، وعاطفته الجياشة وإحساسه المرهف ، ووجدانه الحى ، وقلبه الجرىء ، ولسانه الذرب ، وذكائه المتقد ، فصوّر العواطف المستمدة من الإحساسات النفسية ، ووصف آثار النفوس ، وتناول طبائع الأشياء من حيث هى من غير مبالغة ولا إسراف ، واعتمد على الحقائق الثابتة البريئة من تكلف الاختلاق ، وأتت معانيه سهلة فطرية لا تدعو إلى تفكير طويل ، وكان ذلك سر حلاوة الشعر الجاهلي وجمال صورته .

وإذا كان عرب الشمال والنوبي قد عزوا على الغزاة فاحتفظوا بصيغتهم البدوية وبحريتهم المطلقة ، واعتصموا بالصبراء فارتدت على شيطان زمالها ووهادها هجمات الطامعين ، وسلمت اللغة العربية من شوائب الاختلاط ، حتى صارت أقرب إلى الأم السامية الأولى من أخواتها . فليس معنى ذلك أن عرب الشمال على الرغم من بداوتهم

(١) راجع بروكلمان فى كتاب

لم يعرفوا شيئاً من المدنية وأساليب الحضارة . وإلا فكيف نفسر هذه الكلمات الكثيرة التي تغص بها اللغة العربية الجاهلية ؟ . إن اللغة دليل أخلاق الأمة ، ومראה آدابها ومختلف أحوالها ، والكلمة لا تتولد إلا للتعبير عن معنى حدث في أذهان أصحابها .

واللغة العربية من أغنى لغات الأرض بالآلفاظ العمرانية والسياسية ، ففيها عشرات من الآلفاظ لضروب الجماعات من الناس على اختلاف أغراض اجتماعهم كالشعب والجماعة ، واللجنة والزرافة ، والسرب والسكرية ، والقوم ، والنفر ، والشرذمة ، والعصابة . . . ومثلها لما كن الاجتماع كالحفل ، والنادي ، والندوة ، والمآتم ، والمجلس ، والمرسم ، والمدرس ، والمصطبة ؛ وعشرة منها للتعبير عن فرق الجند كالجريدة ، والسرية ، والكتيبة وغيرها . وفيها للقلم والورق أسماء شتى ، فللقلم : الملقاط واليراع والأسل والأنبوبة ، وللورق : القرطاس ، والطرس ، والرّف ، والمجلة ، والصحيفة ، ولكل منها معنى خاص .

ولهم في أنواع الكتب أسماء مختلفة كالقمطر ، والمدرس ، والزبور ، والرقيم ، والسفر ، والضُّبار ، وما شا كها .

وفي اللغة مئات الآلفاظ الدالة على أنواع الأرض والتربة باختلاف الخصب والجذب ؛ ولهم في السفينة ألفاظ عديدة مما يثبت معرفتهم بالبحار . وكان لهم في التجارة والاقتصاد باع واسع ولذلك عمرت لغتهم بالآلفاظ الخاصة بهما . أما أدوات الصناعة وأواني الأطعمة والرياش والأثاث واللباس فالآلفاظهم في ذلك تجل عن الحصر .

فأني لهم كل هذا إذا لم يتصلوا بالمدنية ويعرفوا شيئاً عنها ؟

إذا كانت الأسواق المختلفة قد عملت على تكوين لغة موحدة بين العرب ، وإذا كانت قریش قد ساهمت في ذلك بنصيب كبير ؛ وإذا كانت مجتمعات العرب وأنديتهم

التي يتشاورون فيها ويسمرون ، ويبرمون أمورهم ، ويعقدون فيها الصالح والمخالفات
قد ساعدت على ذلك ؛ وإذا كانت الحروب الكثيرة التي شبت فيما بينهم أيام جاهليتهم
والتي كانت أمراً طبيعياً نظراً لحياتهم وإيلافهم النجعة وارتداد مواقع الغيث والسكلا ،
وما كان بينهم من حزازات وترات دفعتهم إلى شن الغارات والدفاع عن الحمى
والعرض ، ودعت شعراءهم وخطباءهم أن يذكروهم بأجادهم ويحرضوهم على الاستبسال في
الذود عن الشرف ، إذا كانت هذه الحروب قد عملت كذلك على إيجاد هذه اللغة
المشتركة ؛ فإن العرب بجانب كل هذا قد تأثروا ولا ريب بعوامل أخرى نهضت
بلغتهم وجعلتها كاملة الأداء ، غنية غنى مفرطاً في المفردات وأساليب التعبير ، وذلك
ما سنعرفه في الفقرة التالية .

اتصال العرب بالمدنية :

١ - مر بنا كيف اختلط عرب الشمال بأهل اليمن عقب انهيار سد مأرب ،
وكيف انتشروا في شتى أنحاء الجزيرة ، وشاركوا أهلها بأساءهم وضراءهم ، وعاشروهم
عشرة طويلة دامت عدة قرون قبل أن ينبج تاريخ العرب العدنانية . وقد كان لعرب
الجنوب قدم رائجة في المدنية ، وعرفوا كثيراً من ألوان البذخ والترف ، ولا بدع فقد
كانت حضارتهم وليدة التجارة ، ترد إلى شواطئهم سلع مختلفة من الهند ، والصين وجزر
الهند الشرقية ، وسواحل إفريقيا : كالذهب ، والقصدير ، وأنواع الطيب والعاج
والتوابل والفطن والأحجار الكريمة ؛ وكانوا يحتكرون هذه التجارة ويفدون بها إلى
الشام وسواحل البحر الأبيض المتوسط ، فأفادتهم غنى وثروة ، والغنى يدعو إلى
الترف والحضارة .

ولا أدل على حضارتهم من آثارهم ؛ وقد يكون فيما ذكره الهمداني في الإكليل

شيئاً من المبالغة في وصف قصر (غمدان) وأنه كان من عشرين طبقة ، وأن صانعه حينما وصل غرفه العليا أطبق سقف كل غرفة بقطعة واحدة شفافة من الرخام ، ولكن ما بقي من آثار هذا القصر وغيره تشهد بأنهم كانوا مهرة حقاً في هندسة البناء ، وأنه يصعب على المرء أن يرى الفواصل بين حجارة مبانيهم ، وكانت تحلى هذه المباني بزخارف ونقوش غائرة في الحجر تمثل الحيوان وأوراق الأشجار وتنبيء عن دقة وفن وذوق .

وقد اشتهرت اليمن قديماً بالزراعة ، ولم يكونوا يزرعون السهول فحسب ، ولكن كانوا يزرعون كذلك سفوح الجبال ، ويقيمون الدور ، ويشقون القنوات .
أما صناعات اليمن فقد اشتهرت منها الحبرة اليمنية المفوفة ، والعصْب والبرود وشتى أنواع النسيج ، كما برعوا في صناعة السيوف والحلى ودبغ الجلود .

وكان هؤلاء التجار من اليمن يمرون في طريقهم إلى الشمال برأ بيلاد الحجاز ، وكانت قبائلهم التي هاجرت إلى مواطن العدنانيين تعرف كثيراً عن هذه الحضارة ، ولها في لغتها مدلولات وكلمات تعبر عنها . وقد أضيفت هذه الثروة اللغوية إلى لغة العدنانيين ؛ وجاءت الأسواق وشدة الاختلاط بعرب اليمن الذين ظلوا في ديارهم مثبتاً لمعاني هذه المفردات في أذهان عرب الشمال . وقد رأيت أن كثيراً من الأسواق كانت تقام في بلاد اليمن أيام الجاهلية التاريخية .

٢ - ولما اضمحل شأن اليمن في التجارة ، وورثها عرب الحجاز ولاسيما قريش ، لم يضعف اتصال قريش باليمن بل كانت إحدى رحلاتهم إلى اليمن في كل عام .

كانت قريش تتجر كذلك مع الأمم المجاورة لجزيرة العرب شمالاً ، فكانوا يذهبون ببضاعتهم إلى أسواق الشام ومصر ، وقليل ما يذهبون إلى فارس ، لأن تجارة الفرس كانت بيد عرب الحيرة ، وهؤلاء كانوا يردون بتجارتهما إلى سوق عكاظ وغيرها كما مرَّ بنا ، وكان الروم في بلاد الشام يعتمدون في كثير من شؤونهم على تجارة قريش

حتى فيما يترفهون به كالحرير ، ولقد بالغ بعض مؤرخى الفرنجة وادعى أنه كان بمكة بيوت تجارية رومية وأخرى حبشية^(١)

وكان من تجار قريش من يذهب إلى الحبشة مثل عمرو بن العاص ، وعمارة ابن الوليد المخزومي ، بل كان عمرو بن العاص يعرف مصر . وقد جاء في كتب السيرة أن عمر أ لمعرفة الوثيقة ببلاد الحبشة ذهب إلى النجاشي يطلب منه أن يسلم إليه المسلمين الذين لجئوا إلى دياره حين كان الصراع عنيفاً بين النبي وصحبه القلائل ، وبين كفار مكة ، وذلك قبل أن يدخل عمرو بن العاص في الإسلام^(٢) . كما ذكرت كتب التاريخ أن عمر أ هو الذى زين لعمر بن الخطاب فتح مصر ووصفها له وصفاً دقيقاً في كلام مشهور . وأنه هو الذى قاد الجيش الذى فتحها لمعرفته بها .

وبما لا مرأ فيه أن العرب لم يفيدوا من هذه الرحلات التجارية مالا خصب ، ولكنهم أفادوا أشياء أخرى ورأوا رأى العين بلاد الشام وبساتينها العامرة ، ورياضها الغناء وجبالها الشاهقة وأنهارها الجارية ، وقصورها المنيفة ، ورأوا النصارى في أعيادهم ومحافلهم الدينية ، والملوك في حللهم المزركشة أمام جيوشهم ، ورأوا وادى النيل وما فيه من خصب وزرع نضير ، وجنات يانعة ، وآثار ضخمة .

وهل يعقل أن يذهب هؤلاء العرب للتجارة في بلاد غريبة دون أن يلبوا بشيء من لغاتها ؛ أو على الأقل يكون معهم من بنى جلدتهم من له خبرة بهذه اللغات حتى ييسر لهم سبل الاتجار والاخت والعطاء ؟ . لقد كان أشرف قريش هم المسيطرون على شئون تلك التجارة ، وهم الذين برزوا فيما بعد في الإسلام واشتهروا بالدهاء والحكمة وحدة الذكاء . وأناس هذا شأنهم تفيدهم مثل هذه الرحلات التجارية فوائد مادية وأدبية وثقافية عظيمة ، ثم يعودون فيتحدثون بها إلى قومهم الذين لم يسعدوا بالسفر معهم .

(١) انظر أولبرى Arabia before Mohammed نقلا عن فجر الإسلام ص ١٥

(٢) راجع تاريخ الأمم الإسلامية الجزء الأول ص ١١٣ وما بعدها

لقد كانت الشام ومصر في ذياك الوقت خاضعتين لحكم الروم ، وكان الروم على قدر كبير من المدنية يناسب ذلك العصر . ولقد وقف العرب ولا ريب على شيء من هذه المدنية الرومية في أسفارهم المتكررة .

٣ - أما اتصا لهم بالفرس فكان عن طريق عرب الحيرة ، بل إن الفرس قد استوطنوا جزيرة العرب ردحا من الزمن ، وذلك بعد أن طغى الأحباش في اليمن واستذلوا أهلها ، وأذاقوهم كؤوس العذاب مترعة مدة خمسين عاماً من ٥٢٥ م - ٥٧٦ م فاستنجد سيف بن ذى يزن الحميري بكسرى فأنجده ، وخضعت اليمن للفرس ، حتى جاء الاسلام ، وكان آخر حكامهم (باذان) الذي اعتنق الإسلام سنة ٦٢٨ م أى في السنة السادسة للهجرة ، واستمر والياً عليها حتى سنة ٦٣٢ م وهى السنة التى دخلت فيها اليمن تحت حكم المسلمين .

فمن هذا ترى أن العرب اتصلوا بالأحباش ، ثم بالفرس عن قرب واختلطوا بهم اختلاطاً شديداً فى الجاهلية ، وأفادوا من حكمتهم وحضارتهم ، وقصصهم وسننهم بالذكر تأثير دولتى الحيرة وغسان فى العرب عند السكلام على بيئة النابغة . والحيرة كانت وثيقة الصلة بفراس ، كما كانت غسان خاضعة للروم .

٤ - واتصل العرب كذلك باليهود والنصارى ، فقد كان يقيم بين ظهرانيهم عدد غير قليل من اليهود فى تيماء ويثرب وخيبر ووادى القرى ، كما أن بعض أهل اليمن قد اعتنق اليهودية ، بل إن ذانواس الحميرى ملك اليمن قد اتخذها له ديناً ، إذ كانت النصرانية فى نظره رمز العبودية ، لأنها دين الأحباش ودين الإمبراطورية الرومية . وكلاهما كان طامعاً فى اليمن ، واضطهد لذلك نصارى نجران ، وشق لهم الأخدود الذى ذكر فى القرآن ^(١) وحرقهم . وكان ذلك سبب غزو الحبشة المسيحية لبلاد اليمن والقضاء على استقلالها انتقاماً لنصارى نجران .

(١) وذلك حيث يقول الله تعالى : « قتل أصحاب الأخدود ، النار ذات الوقود ، إذ هم عليها قعود ، وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود ، وما قموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد »

ولاريب أن اليهود بإقامتهم الطويلة بين العرب قد نشروا آراءهم الدينية في الجزيرة وسمع العرب منهم شيئاً عن البعث والحشر ، والحساب والميزان والجنة والنار وخلق الدنيا وما شاكل ذلك من الأمور الدينية .

أما النصرانية فقد انتشرت بين بعض القبائل العربية مثل تغلب ، والعباد بالحيرة ومنهم عدى بن زيد العبادى الشاعر ، والغساسنة بالشام ، وأهل نجران باليمن ، وكانت بنجران كنيسة عظيمة ، أراد الأحباش أن يصرفوا إليها العرب دون الكعبة فكانت غزوة الفيل التى باءت بإخفاق حملتهم على مكة .

وكانت النصرانية لذلك العهد مشوبة بنظريات الأفلاطونية الحديثة ، فعرف بعض العرب شيئاً من تعاليم المسيحية ، وقليلاً من الآراء الفلسفية سواء من نسطرة الحيرة أو يعاقبة الحبشة . وقد ظهر أثر المسيحية فى كلام بعض العرب كأمية بن أبى الصلت وقس بن ساعدة الإيادى ، وعدى بن زيد العبادى ، وقد أطرى النابغة الذبياني أمراء غسان على نصرانيتهم فى قوله :

مجلتهم ذات الآله ودينهم قويم فما يرجون خير العواقب

كما رأى العرب كثيراً من الرهبان فى صوامعهم يتعبدون ، واستمد العرب بعض تشبيهاتهم من حياتهم ، وسنرى بعد كيف أن بعض الألفاظ الدينية الاصطلاحية قد استعملها عرب الجاهلية نتيجة هذا التأثير ، وإن بقى أكثرهم على وثنيته إلى أن جاء الإسلام .

هـ — هذا وقد تأثر عرب الجزيرة باللغة الآرامية التى كانت اللغة الشائعة فى مصر والشام والعراق ، وطغت على كل اللغات القديمة . وبلغت أوج مجدها فيما بين سنتى ٣٠٠ ق م ، و ٦٥٠ بعد الميلاد وكانت لغة دولية فى كثير من المناطق المجاورة لبلادها وامتد نفوذها إلى آسيا الصغرى نفسها ، على الرغم من أنه لم يهاجر إليها إلا عدد قليل من الآراميين ^(١) .

(١) راجع كتاب فقه اللغة للدكتور على عبد الواحد ص ٤٣ وما بعدها ، وكتاب تاريخ اللغات السامية لإسرائيل ولفنسون ص ١١٤ وما بعدها

والآراميون بدو رحلوا من جزيرة العرب إلى الشمال حوالى سنة ١٥٠٠ ق م ، وأقاموا بفلسطين وجنوب الشام ، وقد فرضوا لغتهم على تلك البقاع ، لأنها كانت لغة دارجة سهلة متحللة من كثير من القيود التى التزمتها السكنعانية والآشورية والعبرية

ولقد أسس الأنباط لهم دولة بفلسطين ، وهم جيل من العرب هجر الجزيرة حوالى سنة ٥٠٠ ق م ، واستعمروا المنطقة التى تفصل ما بين بلاد الشام وبلاد العرب ، وكانت عاصمتهم تسمى (بطرة) ويسمىها العرب سلعا ، وكانت فى منتصف المسافة بين خليج العقبة والبحر الميت ، مهيمنة على طريق القوافل التجارية .

وقد استعمل الأنباط الخط الآرامى ، على الرغم من أنهم كانوا يتكلمون العربية الدارجة ، ويستعملون الآرامية فى شئونهم الثقافية . ومن أقدم النقوش النبطية التى تنم عن أصل عربى واضح ، مع تأثر بالآرامية نقش (نمارا) فى شرق حران ! وهو يرجع إلى سنة ٢٢٨ م ، ووجد على مقبرة امرى القيس أحد ملوك اللخمين فى ذلك الوقت . ويدل النقش على أن أثر الأنباط كبير جداً فى الخط العربى ؛ لأنه الخط الذى تعلمه العرب من أهل دومة الجندل أيام حرب بن أمية قبيل البعثة المحمدية .

وثمة نقشان آخران يدلان على هذا التأثير النبطى فى الخط العربى أحدهما وجد ببلدة (زبد) بالقرب من حلب ويرجع تاريخه إلى سنة ٥١٢ م ، والآخر فى حوران بالقرب من دمشق ويرجع تاريخه إلى سنة ٥٦٨ م ، ونرى فى النقش الأول النص العربى وبجانبه ترجمة إغريقية ، وأخرى سريانية ، وفى النقش الثانى النص العربى ومعه ترجمة إغريقية فحسب ، وهذا النقش الأخير يعتبر أقرب إلى الخطوط العربية فى القرن الأول للهجرة من جميع النقوش التى كشفت حتى اليوم ، وعبارته قريبة جداً من اللغة العربية حيث جاء فيه .

أنا شر حبيل بن ظلمو (ظالم) بنيت ذا المرطول سنت (سنة) ٤٦٣ بعد مفسد
خير بعم (بعام)^(١).

وكانت هناك مملكة تدمر أسست على أثر سقوط (بطرة) أو سلع كما يسميها
العرب سنة ١٠٥ م ، وانتقل إليها كل ما كان بيد الأنباط من قوة تجارية . وأهل تدمر
آراميون ، وحكامهم عرب ، كما تدل على ذلك أسماؤهم ، والنقوش التي خلفوها . وقد
ورد ذكر تدمر في شعر النابغة الذبياني كما سيأتي .

ويؤيد اتصال العرب في الجاهلية بالحضارة الآرامية قول بروكلمان^(٢) : « إن الرأي
الشائع حتى اليوم ، وهو أن بدو شمال جزيرة العرب لم يتصلوا أى اتصال بأسباب
الحضارة قبل بعثة محمد (عليه السلام) . رأى خاطيء ولا شك . وكيف يتسنى للعرب
وصحراؤهم متاخمة لدول ذات حضارة ألا يتأثروا بجيرانهم . لقد رأينا أن ثمة دويلات
عربية في العهد الفارسي أولاً ، ثم في العهد الروماني بعد ذلك لها ثقافة آرامية ، وكانت
لغة الكتابة عندهم هي الآرامية ، وتكاد معظم الكلمات التي تمت إلى الحضارة بصلة
في اللغة العربية تكون آرامية ، ومن الممكن التمييز بين تلك الكلمات الآرامية التي
عربت في العصور القديمة والتي عربت في الجاهلية المتأخرة ، ثم إننا نجد نقوشاً قديمة
في موضوعات شتى ، وإن كانت لا تنبئ عن حوادث سياسية هامة أو مسائل دينية وهي
نوع من الخطوط العربية المشتقة رأساً من الفينيقية ، مثل ما وجد في (العلا) بشمال
الحجاز ، تلك هي النقوش التي وجدت مكتوبة بالخط الثمودي والصفوي واللحياني^(٣)

(١) راجع تاريخ اللغات السامية لولفنسون ص ١٩٠ وما بعدها ، وراجع بركلان الفصل الأول
الفقرة ٢٣ من كتابه Sem. Spr.

(٢) الفصل الأول الفقرة ٢٣ من كتابه Sem. Spr.

(٣) كان اللحيانيون يسكنون شمال الحجاز قبل أن تستوطنه ثمود ، وكانت (العلا) كما يقول بليونس
المؤرخ الروماني عاصمة لبطن لحيان ، وأما موطن ثمود في عهد بليونس وهو القرن الأول بعد الميلاد
فكان جنوب مكة إلى تهامة العسير ، وكان لثمود حروب قديمة مع سرجون ملك آشور (في القرن الثامن
قبل الميلاد) كما تدل على ذلك بعض النقوش السامرية ، وتدل أيضاً على أنه أجلاهم إلى مدينة غزة بفلسطين —
تاريخ اللغات السامية ١٧٢ — ١٧٦

بيد أن هذه الخطوط مالبثت أن تلاشت أمام تأثير الآراميين ، لأن الخط الآرامى كان رمز حضارة أرقى وثقافة أعلى .

ونحن لانذهب إلى المبالغة كما ذهب (بروكلمان) من أن معظم كلمات الحضارة فى العربية مأخوذ من الآرامية ، وإنما أردنا إظهار أن عرب الشمال لم يكونوا فى عزلة تامة ، وأنهم كانوا على صلة بالحضارات القريبة منهم ، وأن الخط العربى نما وتطور فى ظل تلك الحضارات .

وأن اللغة العربية ظلت قرونا قبل العصر الجاهلى التاريخى ، وهى تتطور وتتكون وتأخذ بكل الأسباب التى تكملها ، وتنوعت فيها عوامل النمو من إبدال ، واشتقاق ، ونحت وتعريب ، حتى برزت للتاريخ كاملة ناضجة .

٦ - ولا أدل على تأثرها بالحضارات المجاورة لها من الكلمات الدخيلة التى عرفها عرب الجاهلية ، واستعملوها . والكلمة - كما ذكرنا سابقاً - لا يمكن أن تستخدم ما لم يعرف المرء مدلولها .

فترى أن العرب أخذوا من الفرس مثلاً كلمات شتى مثل : السكوز ، والجرة والإبريق ، والخوان ، والقصة ، والخز ، والديباج ، والسندس ، والياقوت ، والبلور والقلفل ، والنرجس ، والبنفسج ، والذمرين ، والسوسن ، والمرزجوش ، والياسمين والجلنار ، والقرنفل ، والعنبر ، وغير ذلك من الكلمات الكثيرة التى ذكرها السيوطى فى المزهرة .

ونراهم أخذوا من اليونانية والرومية كلمات : الفردوس ، والصراط ، والقسطاس والبطافة ، والقنطار ، والترياق ، والقنطرة ، والدمية ، وما شاكلها .

وأخذوا من الحبشية بعض الكلمات الدينية مثل . المنبر ، والمنافق ، والحوارى .

والبرهان ، والمصحف : ومن العبرية : الحج ، والكاهن ، وعاشوراء وغيرها .

بل إن هناك بعض الكلمات السنسكريتية الأصل عرفها العرب عن طريق تجارتهم
مع الهند مثل كلمة : مسك ، وكافور .

وقد وضع علماء اللغة أصولاً تعرف بها الكلمات المعربة ^(١) لاداعي لذكرها هنا ،
وإنما كل هذا يدلنا على أن اللغة العربية ، وإن احتفظت بطابعها ، وطرق نموها
وتصريفها ، وصارت أقرب اللغات السامية إلى الأم الأولى ؛ لعدم خضوع العرب
لمستعمر يفرض عليهم لغته ، ولمنعة الجزيرة العربية أمام الغزاة ، فإن العرب لم يكونوا
بمعزل عن الحضارات القريبة منهم ، وأنهم زودوا لغتهم بكثير من الألفاظ الأجنبية
لتسكون كاملة الأداء .

تلك كان حال اللغة العربية أيام أن ظهر النابغة الذبياني : لغة راقية ، تامة النضج
قادرة على أداء أسنى الآراء والحكم ، وأدق خبايا النفوس ، وأرق العواطف
والمشاعر ، وتصوير أروع المناظر ، وأعمق المعاني . لغة تنبئ عن أن العرب وصلوا
قبل الإسلام إلى درجة عالية من الفكر ، فاللغة رمز الشخصية ودليل العقلية . وما ورد
لنا من أشعارهم يفصح عن عقلية ممتازة ، وفكر صاف ، ونفوس ملهمة ، وعواطف
جياشة . ويدل على أن العرب كانوا على استعداد لأن يتلقوا رسالة القرآن الذي
تحداهم بأنصع بيان ؛ لأنهم كانوا مهرة في هذا المضمار ، وبذلك قدروه وآمنوا به .

هذا ما كان من أمر اللغة ونموها وتطورها ، وقد رأينا كيف تكونت على مر
القرون ، وكيف عمد العرب إلى تكوين لهجة أدبية ، ينطق بها الشعراء والخطباء
والحكام ، وكيف عمت هذه اللهجة جزيرة العرب ، وارتضتها القبائل المختلفة ، وإن

(١) راجع المزهري للسيوطي ، وتاريخ آداب اللغة العربية للرافعي ج ١ ، وتاريخ اللغة العربية لجورجي زيدان

حافظت كل قبيلة على لهجة (١) خاصة بها تبعاً للبيئة التي تعيش فيها ، واختلاف طرق الوضع والارتجال لديها . وكيف كانت هذه اللغة خالية من الهنوت (٢) التي اشتهرت

(١) تكاد تنحصر طرق الاختلاف فيما يأتي :

- ١ — الإبدال مثل إبدال الميم بباء ، والباء ميم في لغة مازن فيقولون باسمك في ما اسمك ؟
- ٢ — أوجه الإعراب كنصب خبر ليس عند الحجازيين مطلقاً ، ورفع عند تميم إذا اقترن بإحلامها على ما ، مثل ليس الطيب إلا المسك .
- ٣ — وأوجه البناء والبنية كتسكين شين عشرة عند الحجازيين ، وفتحها وكسرها عند تميم ، وكبناء الهاء من أيها على الضم عند بني مالك من بني أسد فيقولون يا أيه الناس ، وبنائها على الفتح ووصلها بألف عند غيرهم مثل يا أيها الناس
- ٤ — والتردد بين الإعراب والبناء كإعراب لدن عند قيس بن ثعلبة وبنائها عند غيرهم
- ٥ — والتصحيح والإعلال وما يشبههما كإعلال الأفعال الثلاثة التي من باب علم كرضي وبقي عند تميم بقلب يائها ألفاً وكسرتها فتحة ، وغيرهم يصححها
- ٦ — والإتمام والنقص كحذف نون من الجارة عند خثعم وزبيد إذا وليها ساكن ، وإبقائها عند سواهم فيقولون في خرجت من البيت خرجت ملبيت كلفة العامة في مصر
- ٧ — والإدغام والفك مثل فك المثليين في المضارع المجزوم بالسكون المضعف وأمره عند أهل الحجاز مثل : إن يغضض طرفه فأغضض طرفك وإدغامهما عند تميم مثل إن يغضض فغضض
- ٨ — والترادف وهو كثير كالمدية عند أهل اليمن والسكين عند أهل الحجاز

(٢) من هذه الهنوت :

- ١ — عجيبة قضاغة وهي تحويل الباء جيماً إذا وقعت بعد العين فيقولون : الراعي خرج معج يريدون الراعي خرج ممي
- ٢ — وغمغة قضاغة كذلك ، وهي عدم تمييز حروف الكلمات وظهورها أثناء الكلام
- ٣ — شنشة الين : وهي جعل الكاف شيئاً مطلقاً مثل : لبش ، وشامني في لبك ، وكبني
- ٤ — ووتم الين : وهو جعل السين تاء فيقولون : التات في الناس
- ٥ — وطمطانية حمير : وهي جعل أم بدل أل فيقولون طاب امهواء ، في طاب الهواء
- ٦ — وتلتة بهراء : وهي كسر أحرف المضارعة مطلقاً ، وبهراء بطن من قضاغة وكسر أحرف المضارع شائع في لغة عامة مصر
- ٧ — وخفخفة هذيل : وهي جعل الحاء عينا مثل العسن أخ العسين في الحسن والحسين
- ٨ — وعننة تميم أوقيس : وهي إبدال العين من الهمزة المبدوء بها فيقولون : في أن عن ، وفي أمان عمان
- ٩ — وكشكشة أسد : وهي إبدال الشين من كاف الخطاب للمؤنث كعليش في عليك ، أو هي زيادة شين بعد الكاف المكسورة مثل عليكش في عليك وأشهر ما يكون ذلك في الوقف
- ١٠ — ووكم كلب : وهو كسر كاف الخطاب في الجمع إذا كان قبلها ياء أو كسرة فيقولون عليكم وبكم بكسر الكاف . وكتب بطن من ربيعة
- ١١ — ولخاخانية الشحر : كقولهم مشا الله في ما شاء الله
- ١٢ — وقطعة طيء : وهي حذف آخر الكلمة فيقولون : (يابا الحكا) يريدون يابا الحكم كما في لغة بني سويف الآن وشمال مديرتي الغربية والبحيرة
- ١٣ — واستنطاء سعد بن بكر وهذيل والأزد والأنصار وذلك بجعل العين الساكنة نوناً إذا جاورت الضاد مثل أنطى في أعطى

بها بعض القبائل ، وكيف اتصلت بأسباب الحضارة ، حتى صارت كاملة تامة ، أهلا لأن ينزل بها القرآن الكريم وهو ما هو في سعة معانيه وغزارتها وتنوعها ، وجمال أسلوبه ، وقوة أدائه ، وبذلك كان معجزة الرسول عليه السلام .

فهل ثمة مجال لإنكار وجود مثل هذه اللغة المشتركة كما أراد بعضهم أن يقول ؟
أما الشك في الشعر الجاهلي ، ولا سيما غير المضرى منه فهو شك مبالغ فيه ؛ إذ مر بنا أن قبائل يمنية كثيرة قد هاجرت إلى الشمال ، واختلطت بالعدنانيين قرونا طويلة ، وامتزجت لغتهم بلغة العدنانيين ، وتسكونت على مر السنين لغة مشتركة سيطرت على الجزيرة العربية كلها ، وصارت لغة الأدب والشعر . فهل يعز على شاعر يمني مثلاً ولد في نجد ونشأ وترعرع بين عرب الشمال ، وسمع أول ما سمع في حياته لغة أهل نجد لالغة حمير أن يقول الشعر بتلك اللغة المشتركة ؟

إنى لا أبرىء الشعر الجاهلي من أن فيه بعض ما لا يمت للجاهليين بصلة ، وأن الرواة قد تزيدوا على هؤلاء الشعراء ، ونسبوا إليهم ما لم يفوهوا به ، وأن العصبية القبلية كان لها دخل أي دخل في تزوير الشعر ونسبته إلى الشعراء .

وقد فطن إلى هذا منذ العصر الثاني الهجري كثير من العلماء ونهوا الناس إليه ، ولم يكن الشك في الشعر الجاهلي وليد عصرنا هذا ، وقد قال ابن سلام الجهمي ^(١) في كتابه طبقات الشعراء : « لما راجعت العرب رواية الشعر وذكر أيامها ومآثرها ، استقل بعض العشائر شعر شعرائهم ، وأرادوا أن يلحقوا بمن له الوقائع والأشعار ، فقالوا على ألسن شعرائهم . ثم كانت الرواة بعد ، فزادوا في الأشعار ؛ وليس يشكل على أهل العلم زيادة ذلك ولا ما وضع المولدون »

وذكر صاحب الأغاني قول المفضل الضبي ^(٢) « وقد سلط على الشعر من حماد ^(٣) »

(١) هو أبو عبد الله محمد بن سلام الجهمي صاحب كتاب طبقات الشعراء المتوفى سنة ٢٣٢ هـ
(٢) هو أبو العباس المفضل بن محمد الضبي راوية ثقة ، وهو أحد أئمة العربية بالكوفة توفى سنة ١٨٩ هـ .
(٣) هو أبو القاسم حماد بن أبي ليلى توفى سنة ١٥٥ هـ

ما أفسده فلا يصلح أبداً ، فقليل له : وكيف ذلك ؟ أيخطئ في روايته أم يلحن ؟ قال :
ليته كان ذلك ، فإن أهل العلم يردون من أخطأ إلى الصواب ، لا ولكننه رجل عالم
بلغات العرب وأشعارها ، ومذاهب الشعراء ومعانيهم ، فلا يزال يقول الشعر يشبه
مذهب رجل ، ويدخله في شعره ، ويحمل ذلك عنه في الآفاق ، فتختلط أشعار القدماء
ولا يتميز الصحيح منها إلا عند عالم ناقد ، وأين ذلك ؟

وجاء في الجزء الخامس من الأغانى كذلك : « أقر حماد بحضرة أمير المؤمنين
المهدى بما زاده من عنده في شعر زهير بن أبي سلمى ،

ولكن هل خفي على العلماء هذا الشعر المدسوس في حينه ؟ ، وإذا كان ثمة بعض
الشعر المنحول . فهل كل الشعر الجاهلي مشكوك فيه ؟ أو ليست هذه مجازفة في القول
لم يجرؤ على ادعائها حتى أكثر الشعوبيين في العصر العباسي تعصباً على العرب ؟

أليس في طبيعة الشعر الجاهلي ، وفي بيئة الشعراء ، وفي خصائص الشاعر وسمات
شعره ما يميز الصحيح من شعره والمدسوس عليه ؟

لقد درس هذا الموضوع دراسة مستفيضة ، وتصدى للرد على من طعن في الشعر
الجاهلي كاه كثير من الأدباء ، وأتوا بردود قوية مفحمة ، ولا أريد هنا أن أطيل
البحث في هذه المسألة ، وإنما تعرضت لها ؛ لأن من أسباب الشك في الشعر الجاهلي
أن لغة القبائل العربية كانت مختلفة ، ولم تكن ثمة لغة واحدة للأدب حتى يروى مثل
شعر امرئ القيس السكندى اليمنى بلغة عدنانية ، أو بلغة القرآن إن شئت . وقد رأيت
فيما سبق حقيقة القول في هذه القضية . ولنا إلى هذا الموضوع عودة عند الكلام على
شعر النابغة الذبياني إن شاء الله .

بيئة النـابغة

- ١ -

القبيلة :

كانت جبهة عرب الشمال بدوآ ، يقيمون بالصحراء ، ويكثرون من الرحلة ، وقليل منهم يسكنون المدن ، والقرى الصغيرة ، ومن أشهر مدنها مكة ويثرب والطائف . أما البدو فكانوا يعيشون جماعات ، في منازل يختارونها من الصحراء ، وترتبط كل جماعة أو اصر الدم والنسب ، وهذه الجماعة تعرف بالقبيلة .

والقبيلة هي الوحدة التي بنى عليها النظام الاجتماعي في الجاهلية ، والقبيلة فرع من شعب ، وتنقسم إلى عدة أقسام كل قسم يسمى عمارة ، والعمارة إلى بطون ، والبطون إلى أخاذ ، والأخاذ إلى فصائل ، والفصائل إلى عشائر ، والعشائر إلى أسر ، والأسر إلى أفراد فمثلاً :

عدنان : شعب ، ومضر : قبيلة ، وقريش : عمارة ، وعبد مناف : بطن ، وبنو هاشم : نخذ ، وعبد المطلب : فصيلة ، وأبو طالب : عشيرة ... وهكذا (١)

والقبيلة : أسرة كبيرة يعتقد كل أفرادها أنهم من أب واحد ، وأم واحدة وهي في الغالب تسمى باسم الأب كربيعة ومضر والأوس والخزرج ، فهذه كلها أسماء رجال نَسَل كل واحد منهم أولاداً وأحفاداً فانتمسبوا كلهم إليه . وقليلاً ما تنسب القبيلة إلى الأم كما قالوا في خندف ، وبجيلة .

(١) إذا تباعدت الأنساب صارت القبائل شعوباً ، والعشائر قبائل ، والبطون عشائر وهكذا ، فتعد مضر مثلاً شعباً ، وقريش قبيلة . وأكثر ما يدور على الألسنة من هذه الطبقات الست : القبيلة ثم البطن ، وقل أن تذكر العمارة والنخذ والفصيلة . راجع صبح الأعشى للقلقشندي ج ١ ص ٣٠٩ طبعة دار الكتب

وقد تتسمى القبيلة بحادث حدث كغسان وهو اسم لما نزلت به بطون مختلفة من الأزدي فسميت به . ولكن الكثير الشائع نسبة القبيلة إلى الأب .

وقد يلد أبو القبيلة أولاداً فينشأ عن بعضهم قبيلة أخرى تتسمى باسم جديد وتنسب إلى هذا الولد النابه الذي اشتهر بشجاعة أو رياسة أو كثرة ولد .

✕ وكان لكل قبيلة شيخ أو رئيس ، هو صاحب القول الفصل فيما ينشأ بين أفرادها من خصومات ، ولم يكن يحكم ببدع من الرأي ، أو مندفعاً وراء هوى ، بل كان يستهدى بالعرف المتبع في القبيلة والعادات المتوارثة ، وهو يعلم تمام العلم أن عثرات اللسان لا تقال .

كان رئيس القبيلة ذا مكانة سامية في نفوس أفرادها لما وقر في نفوسهم له من التجلة والاحترام ؛ لأنه تميز بصفات دفعته إلى الصدارة في مجتمعهم هذا ، فهو أشجعهم قلباً ، وأسخم يداً ، وأفصحهم لساناً ، وأوسعهم صدرأ ، وهو في الوسط من قومه ينتمى إلى آباء توارثوا المجد كبراً عن كبر ، يحمل الكل ويفك العاني ، ويغيث الملهوف ويطعم الجائع ، وينصر الضعيف ، ويواسي المحزون ، هو من هؤلاء الذين قال فيهم زهير بن أبي سلمى :

وفيهم مقامات حسان وجوهم	وأندية ينتابها القول والفعل
على مكثريهم رزق من يعتريهم	وعند المقلين السماحة والبذل
وإن جثتهم ألفت حول بيوتهم	بجالس قد يشفى بأحلامها الجهل

فلم تكن سيادة الرئيس مبنية على الغلبة والقهر والاستبداد ، وإنما كان منشؤها الاحترام والإجلال . وإذا وجد بينهم من ساد لفضائله ، ثم ركب رأسه وغره سلطانه واستبد بقومه مثل كليب بن وائل ؛ فإن نفس العربي التي ألفت الحرية والعزة تأبى عليه أن يستكين طويلاً لهذا الاستبداد من رئيس القبيلة ، ومصرع كليب على يد جساس بن مرة وهو زوج أخته جليلة كانت نتيجة هذا البغي الذي لم يطقه العرب .

وكذلك لم يتأخر بنو أسد عن قتل حجر أبي امرئ القيس حين داخله الزهو ،
واستبد بهم ، ولم يرع لهم حرمة ، ولهذا السبب قتل عمرو بن كلثوم عمرو بن هند ملك
الحيرة حين أرادت أمه أن تذلل أم عمرو بن كلثوم .

ولذلك كانت مصانعة الرؤساء للأفراد لا تقل عن مصانعة الأفراد للرؤساء . فالفرد
في ظل القبيلة كان يتمتع بقسط وفير من الحرية ، وليس الرئيس في نظره سوى فرد
امتاز بخلال وسجايا أهله لأن يتبوأ هذه المسكاة في قومه ، فإن انحرف عن الجادة
زالت عنه الصفة التي أحلتها هذه المنزلة ، فليست الرئاسة متوارثة ، ولا هي
بالمملك العضود .

وكثير من هؤلاء الرؤساء اشتهروا بالحكمة ورجاحة العقل ، وبعد النظر ، وقد
يفزع إليهم في الخصومات الأدبية والمنافرات والمفاخرات في النسب وغيرها .
والقبيلة وحدة اجتماعية متماسكة ، تحمي كل فرد من أفرادها ، وتدافع عنه ،
وتطالب بدمه إن قتل ، وهو يستصرخ بها في الملمات ، ويفزع إليها في الشدائد ،
فتبلي دعوته ، وتهب لنصرته ، ولقد عبر عن ذلك قريظ بن أنيف أحد بني
العنبر بقوله :

قومٌ إذا الشر أبدى ناجذيه لهم طاروا إليه زرافاتٍ ووحداً
لا يسألون أخاهم حين يندبهم في النائبات على ما قال برهانا

وكما قال ودَّك المازني :

إذا استنجدوا لم يسألوا من دعاهم لاية حرب أم بأي مكان
وليس هذا بدعاً في الحياة القبلية . بل هو أمر فرضته طبيعة الحياة في الصحراء —
لأن كل فرد من أفراد القبيلة عرضة للمحن في كل آونة فهو إما ساع في سبيل العيش ،
وموارد الحياة قليلة يتنازعها الناس بل يتخطفونها — وذلك ما فيه من الاحتكاك بغيره

والتحرش بسواه ، وإما مدافع عن نفسه ، وفي كلا الأمرين في أمس الحاجة إلى ملاذ يلوذ به وقت الشدة ، ونجدة تسعفه حين يحزُّ به الضر ، ويتراءى له شبح الخطر .

ولهذا كان كل فرد يعتز بقبيلته ، ويشيد بمناقبها ومآثر قومه ومفاخرهم وأيامهم ، ويتعصب لها تعصباً تمكن من شغاف قلبه ، واستحوذ على لبه ، لأنه بدونها لا شيء في هذه الفيافي الواسعة ، فهي وطنه ، وهي أهله ، وهي حماه ، وهي التي تمكنه من الاحتفاظ بالحياة .

وهذا التعصب جعل الفرد يفنى في خدمة القبيلة ؛ لا ينظر لنفسه إلا على أنه جزء من مجموع ، فإذا قوى فللذود عنها ، وإعلاء شأنها ، وبسط سلطانها ، وإذا أذى فلساعدة ضعفائها ، ولتسكريم ضيوفها ، ولفك أسراها ، ولدفع المغارم حين يدعى إليها ، وإذا كان شاعراً فملتغنى بمحامدها ، ورفع صيتها . وتخلد مفاخرها ، ولذم أعدائها ، والخط من شأنهم .

وقلما يعمل الفرد لنفسه كما نرى في مجتمعاتنا الحضرية . وتلك فضيلة من فضائل القبيلة ، قوت ما بين أفرادها من أواصر . فالقبيلة حين تناضل في سبيل الحياة تناضل مجتمعة ، ونضال الجماعة يؤدي دائماً إلى تنمية الفضائل النفسية والجسدية ، بينما يؤدي نزاع الأفراد المتفرقين إلى الانحلال الخلق ، وإلى شيوع التحايل بينهم .

قوت هذه الحياة القبلية التعصب في نفوس الأفراد لقبائلهم ، ولكنهم حين صاروا أمة موحدة في ظل الإسلام فيما بعد ، انقلبت هذه العصبية القبلية أمام الأعاجم إلى عصبية جنسية جعلت للعرب السيادة والغلبة في كل مكان حلوا به ، وبذلك صبغوا البلاد الشاسعة التي احتلوها أيام الفتوح الإسلامية في أمد وجيز بصبغتهم العربية ، ثم استحال بعد قليل إلى ديار عربية لساناً وثقافة وديناً ، واستعصت بعد ذلك على كل من حاول أن يغيرها حتى بعد أن تقلص ظل الخلافة العربية وذهبت ريحها .

ولست أبرئ التعصب القبلي من مساوئ ، فقد جرَّ على العرب من المحن والرزايا

ما طوح بهم في مهاوى التهلكة ، وذلك بعد أن ضعف أثر الإسلام في قلوبهم واعبت السياسية بألبابهم ، فأحيت ما مات من عصبياتهم القبلية ، فحملوا معهم إحن الماضي وأحقاده إلى الديار التي فتحوها ، فإذا فرغوا من العدو انقلبوا حرباً على أنفسهم حتى تضعضعوا وذهبت ريحهم ، وما نسكة الأندلس عنا بغريبة .

ولهذا التعصب القبلي مساوئ أخرى سنعود إلى ذكرها في أمكنتها إن

شاء الله .

وإذا كانت القبيلة تحمي الفرد ، وتهبه العزة والمنعة ، فليس معنى ذلك أن يستمر السيفه والطيش . ويجلب لها في كل يوم شراً . ويوقعها في مرزوة ؛ وإذا وجد من بين أفرادها من كثر شره وعظم ضرره ، وأساء إلى سمعة قومه ، تبرأت منه القبيلة ، وأعلنت انفصاله عنها ، ويسمى عند ذلك (خليعاً) وهذه لعمرى عقوبة رادعة ، إذ بها يفقد هذا الشرير كل ماله من عز وسؤود ، ويلجأ إلى مختلف القبائل ضارعا على فيهم من يحميه ، ويدراً عنه عادية الأيام . فإذا وافقت إحدى القبائل على أن تمنحه حمايتها سمي حليفاً لها أو مولى أو جاراً ، له كل ما لأفراد القبيلة من حق ورعاية ما دام في جوارها متمتعاً بحمايتها .

ولقد كان لهذه الحياة القبلية أثر بالغ في نفوس العرب ، لأن التعصب الشديد ، ولو في غير الحق ، يولد الأحقاد والإحن في القلوب ، وينمي العداوات بين مختلف القبائل ، وبذلك كثرت بينهم الحروب ، ولا سيما ومعيشة البادية ، وما فيها من محل وجذب ، وما يدفعهم إليه طلب العيش والماء والمرعى تهيم كلها الأسباب لهذه الغارات والحروب ، وتجذبها في القلوب هوى يشفي الغلة ، وينقع الحقد الدفين .

كما كان للقبيلة أثر بالغ في الأدب ، فالشاعر ذو المنزلة كان يقف فيه وبيانه على خدمة القبيلة فتراه آنأ واعظاً يبصرها مواضع الزلل ، ويرشدها إلى الحياة الجادة ، ويبذل لها النصيحة خالصة ، وهو المشهور بنضج الفكر وسداد الرأي ، فإذا أبت القبيلة

إلا مخالفته ، واللجاج فيما ذهب إليه ، لم يجد أمامه سوى الانصياع لرأيها ، والسير في طريقها ولو رآه خطأ .

وهاك ما قاله دريد بن الصمة في ذلك :

ورھط بنی السوداء ، والنقوم شہدی	فقلت لعارض وأصحاب عارض
سراتهم فی الفارسی المسرد	علائیة ظنوا بألنی مدجج
مطنبۃ بین الستار وشہد	وقلت لهم : إن الأحالیف هذه
جراد یباری وجہہ الریح مغتدی	ولما رأیت الخیل قبلاً كأنها
فلم یستینوا الرشد إلا ضحی الغد	أمرتهم أمری بمنعرج اللوی
غوایتهم وأننی غیر مہتدی	فلما عصونی کنت منهم وقد أری
غویت وإن ترشد غزیة أرشد	وهل أنا إلا من غزیة ^(١) إن غوت

• وسوف نرى عند الكلام على النابغة الذبياني أنه لم يأل جهداً في أن يمحض قومه النصيح إذا ما احتاجوا إليه ، وأنه كان يعظهم في كثير من أمورهم ، ويريهـم سبيل سبيل الرشاد كما رآه ، يحرضهم على القتال تارة ، ويثبطهم عنه تارة أخرى ، ويدلهم على قوة عدوهم وشدة بأسه ، إلى غير ذلك من الأمور التي تعنى بها القبيلة ، ولا سيما إذا كانت في حروب متتابعة مع غيرها كما كان حال ذبيان زمن النابغة . ومواعظ زهير وتبشيعه للحرب معروفة .

وكان الشاعر حين يشتد أوار الحرب لا يفتأ يذكر قومه بالحفاظ والثبات والصبر والدفاع عن العرض . استمع إلى قول يزيد بن حنظلة في ذلك :

من فرّ منكم فرّ عن حريمه وجاره وفر عن نديمه

وإلى قول سعد بن مالك في حرب البسوس يحرض الحارث بن عباد وقومه على القتال وكانو قد اعتزلوا الحرب :

يا بؤس للحرب التي وضعت أراھط فاستراحوا
والحرب لا يبقى لها محها التَّخِيلُ والمِراح
إلا الفتى الصبار في النـ جدات والفرس الوقاح^(١)
والكر بعد الفر إذ كره التَّقدم والنطاح
كشفت لهم عن ساقها وبدا من الشر الصُّراح
بئس الخلائف بعدنا أولاد يشكر واللقاح^(٢)
صبراً بنى قيس لها حتى تريحوا أو تراحوا
إن الموائل خوفها يعتاقه الأجل المتأح^(٣)
هيئات ! حال الموت دو ن الفوت وانتضى السَّلاح
كيف الحياة إذا خلت منا الظواهر والبطاح ؟
أين الأعزة والأسنة عند ذلك والسماح ؟ !

وكان الشاعر كذلك لسان القبيلة الذرب يدافع عن حقوقها ، ويمدحها ، ويبين فضلها وشرفها ، وفضائل ساداتها وأجوادها وفرسانها ؛ ويرد على أعدائها ، ويدحض حججهم ، ويهجوهم ويعيرهم ؛ ومن أمثلة ذلك قول أعرابي يعير أعداء قبيلته بالجنين :

كاثر بسعد إن سعداً كثيرة ولا تبغ من سعد وفاء ولا نصراً
يروعك من سعد بن عمرو وجسومها وتزهّد فيها حين تقتلها مخبراً

(٢) هم بنو حنيقة

(١) الوقاح : الشديد الخافر

(٣) الموائل : طالب الملجأ والموئل ، وخوفها نصب على نزع الخافض ، يعتاقه : يمنعه

ويقول آخر يصف أعداء قومه باللؤم :

أناخ اللؤم وسقط بني رياح مطيته فأقسم لا يريم
كذلك كل ذي سفر إذا ما تناهى عند غايته مقيم

وخير مثل للفخر بأجداد القبيلة وماضيها ، والإشادة بذكر سادتها وأفعالهم معلقة
عمرو بن كثوم حتى ضرب بها المثل .

ومن أمثلة ذلك قول ضرار بن الخطاب الفهري يصف انتصار قریش على هوازن
في يوم عكاظ :

ألم تسأل الناس عن شأننا ولم يُثبت الأمر كالحابر
غداة عكاظ إذ استسلمت هوزان في لفها الحاضر
وجاءت سليم ثم القنا على كل سلمية ضامر
وجئنا إليهم على المضمرات بأرعن ذي لجب زاهر^(١)
فلبنا التقينا أذقناهم طعانا بسمر القنا العائر
فقرت سليم ولم يصبروا وطارت شعاعاً بنو عامر
وفرت ثقيف إلى لاتها بمنقلب الخائب الخاسر

وكان الشاعر يعبر بعد المعركة عن شعور قبيلته تمام التعبير . فإما منتصرة مزهوة
فيشيد بانتصارها ويفخر ، وأما منتصرة نادمة لقراية المنهزمين ومتانة الصلة بهم فيتأسف
ويتندم ، وإما مندحرة فيتوعد ويؤاسى .

استمع إلى قيس بن زهير العبسي في قتله حمل بن بدر في حرب داحس والغبراء
وكيف يتندم على قتله ، ويبيكى لمصرعه :

(١) يصف الجيش

شفيتُ النفس من حمل بن بدر وسيفي من حذيفة قد شفاني
فإن أك قد بردتُ بهم غليلي فلم أقطع بهم إلا بناني
واستمع إليه كذلك يقول :

تعلم أن خير الناس مَيِّتٌ على جفْرِ الهبابة لا يريم
ولولا ظلمه لظلت أبكى عليه الدهر ما طلع النجوم
ولكن الفتي حمل بن بدر بغى والبغى مرتعه وخيم
ويقول الحصين بن الحمام المُرِّي :

صبرنا وكان الصبر مناسجية بأسيا فما يقطعن كفا ومعصما
نُفلقَ هاما من رجال أعزة علينا وهم كانوا أعق وأظما

• وكان للنابغة الذبياني في هذا المضمار باع طويل ، لأن الحرب كانت طويلة شاقة بين قومه وأحلافهم ، وبين بني عبس . ولم يدع النابغة — فيما وصلنا من شعره فرصة دون أن يشيد فيها بقومه وأحلافهم وانتصاراتهم ، ويذم أعداءهم ويهجوهم هجواً مرأ .
• وكان الشاعر كذلك مؤرخاً يدون الحوادث المادية للقبيلة : يذكر أيامها ، ومفاخرها ومياها ، وضيافاتها ، وانكسارات أعدائها .

وسنرى أن النابغة الذبياني قد دون في شعره كثيراً مما مر بقومه من أحداث في غاراتهم على ديار الغساسنة ، وأسرهم ، وفي حروبهم مع عبس في حرب داحس والغبراء . وبهذا شغلت القبيلة وأمورها كثيراً من تفكير الشعراء وأقوالهم ، ولا غرابة في هذا فالشاعر الجاهلي كان يرى في القبيلة وطنه ، ومفاخره ، وعصبيته التي يعتز بها ، وهو فرد منها عليه أن يؤدي واجبه إزامها بكل ما أوتي من قوة ، وقوته في بيانه وشعره ، والعرب يقدرون الفصاحة ، ويخافون مآثور الكلام ، فلا بدع إذا كانت القبيلة تهناً حين يذبح فيها شاعر يرفع ذكرها ، ويخلد مآثرها .

الصحراء :

فضاء واسع رحب ، يمتد فيه البصر مسافات شاسعة فلا يقف في سبيله عائق ،
وبحر من الرمال المختلفة الألوان ، وكشبان متباينة العلو ، وجبال سامقة رهيبة جرداء
موحشة ، وشمس ساطعة صارمة ، تصب فوق البيد شآبيب من شواظ يتناظى لها ،
فإذا أقبل الليل جرى النسيم عليلاً حلو ، وتزينت فيه السماء بمصابيح النجوم المتألثة
وبوجه القمر الباسم . وليس في الصحراء من معالم الحياة إلا القليل ، فثمة واحدة بها
نبت صاف يترقق ماؤه عذباً تحت ظل نخلة باسقة ، أو بعض الأوابد كالعين والآرام
وضواري الدّو تسعى في سبيل المحافظة على الحياة .

ماذا عسى البدوي أن يشاهد في الصحراء ؟ : ضوء غامر قوى ، وحرارة شديدة
محرقة ، وسماء صافية ، ونجوم متألثة ، وريح مندفة ، وجبال شاحخة ، وسيل متدفق ،
وماء عذب ، وظل كريم ، وسمت مستقيم ، وأفق واضح .

هذه هي الصحراء ، يت البدوي الرحب الذي يراه بين يديه صباح مساء في حله
وترحاله ، وهذه هي الطبيعة الرهبة الجميلة تتجلى أمام ناظره دون حجاب .

كان العربي يعيش في خباء من النسيج تهزه الريح كلما هبت ، وتفتححه العين إذا
بدا ، وتطويه اليد عند الرحلة ، ويضعه فوق راحلته في سفره ويجلس فوقه ، وفيه كل
ذكرياته الحبيبة من طعام وشراب وسم ، وهو يهتز فوق قلو صه ، وما الأفق أمامه
من نهاية ، وضوء الشمس يغمر الوجود من حوله فيغمر نفسه حتى لا يدع فيها زاوية
لم تسطع عليها الشمس .

كل شيء أمام ناظره واضح جلي ، وليس بينه وبين الطبيعة حجاب ، فهو يراها
قوية ، بينة باهرة : حرارة ، وضوء ، ورمال ، وسماء .

يقتله الظمأ وهو في سفره ، فيسعى حثيثاً إلى نبع صاف في منعطف الوادى كي يروى غلته ، وينقع ظمأه ، فإذا هو بعد أن يرتوى أسعد الناس طراً ، ويشوى جلده وهج الظهيرة فإذا لاح له ظل نخلة دلف إليه ، واستراح تحته فإذا هو أهدأ الناس قلباً ، وأرخاهم بالاً ، وأشدهم مسرة ، وأعرفهم بقيم النعمة .

إنه يهرب من الطبيعة إلى الطبيعة ، والصحراء هي بيته الكبير يتكى فيه على حشايا من الرمال الناعم الأملس ، ويحتضن السكبان الصغيرة ، ويسمر بالليل تحت ضوء القمر الجميل ، والنجوم المتألثة ، مع خلانه وخلصانه ، يستعيدون الذكريات الحبيبة ، ومغامراتهم في سبيل الرزق ، ومكافئهم للطبيعة ، وتجارب من سبقهم في مهيع الحياة ، وإذا نام نام في كنف الطبيعة تحت خبائه يرى النجوم اللامعة ويسمع هزيم الرياح ، وهدير الرعد ، وإرزام الراحلة .

فالتبيعة بكل مظاهرها لا تتركه ليلاً ولا نهاراً ، فهو يعيش معها أبداً . وقد نجم عن ذلك إلغاء العقل الباطن عند هذا العربي رييب الصحراء ، وبسطت الطبيعة في عقله الواعى ؛ فهو حين يفكر فيها ، ويتأمل في مشاهدتها ، وحين يفكر في مبدعها وقدرته لا يفكر من وراء جدر سميكة ، ولا تعتوره مخاوف مفزعة ، لأنه ألف طبيعة الصحراء ، وما فيها من شدة وقسوة حين يهدر السيل ، أو يقصف الرعد ، أو تزجر الرياح الزفوف ، أو تشور عواصف الرمال ؛ وما فيها من لين وجمال حين تهب النسائم البليلة ، وتضوع رائحة الخزامى والعرار ، وحين يلبس الوادى غب القطر ثوباً مفوّفاً بمختلف الأزهار البديعة الألوان .

في كل هذا لا تدع له الطبيعة بضوءها الشديد نهاراً ، ونورها الباهر ليلاً أن يختزن في نفسه سرّاً ، أو أن تسكون ثمة هاوية في عقله تتساقط فيها الرغبات التي لا تحقق . لأن كل رغبة حيل بينه وبين تحقيقها يعلم جدّ العلم ، وكل وضوح لماذا لم يحققها ، ثم إن رغباته محدوده أعظمها لديه : الماء والظل .

وبالغاء العقل الباطن صارت أفكار العربي كلها بين يديه ظاهرة جليلة ، وصارت
وجهة نفسه وجهة يقين لاشك . وبذلك ألغيت (الوساطة) في الشعور والتفكير
والتعبير .

وهذا هو السر فيما نلسمه في الشعر الجاهلي ، وفي التفكير العربي ، من صفاء الفكرة
ووضوحها ، والقصد إلى الهدف دون التواء أو غموض ، في أوجز لفظ ، ومن
أقصر طريق .

وهذا هو السر في أن أدبهم واقعي يتحدث عن الطبيعة كما هي بدون اختلاق أو
تزيد ، ويصورها تصويراً دقيقاً ملوناً بعواطف الشاعر وأحاسيسه إزاءها ، من غير
كذب أو نفاق ، أو ادعاء أو افتراء عليها .

ولا بدع فقد ألقت نفس هذا العربي الذي يقطن البادية الفضاء الفسيح ، وامتلأ
قلبه بهذا الإحساس القوى الطبيعي بأنه حر طليق ، لا تقيدته أرض ، ولا تعرقل
تفكيره تلك القيود والعوائق التي تحد من حريته الشخصية .

تلحظ في البدوى لأول وهلة الصرامة والوضوح في العقيدة — لا يقبل الوسط
من الأمور ، فالشيء إن لم يكن أبيض فهو أسود . وتقوم حياة هؤلاء البدو على الإيمان
ويحرقون الشك الذي فرضته المدنية والتحضّر .

يعرفون الصدق أو الكذب ، والإيمان أو الكفر بدون تردد ولا ريب ولا منزلة
بينهما ، وهم قوم صرحاء صراحة الأبيض من الأسود ، ليس في الظاهر فحسب وإنما
في صميم أعمالهم ؛ صرحاء حتى في الخصومة .

وقد أورثتهم مواجهة الطبيعة في كل آونة — وهي سريعة التبدل والتلون ،
ولا يؤمن جانبها — حضور البديهة ، والذكاء اللامح ، والسرعة في العمل ، والوصول إلى
الهدف من غير تردد أو تلوم . كما أورثتهم الإحساس الدقيق ، والشعور المرفف
والعاطفة الجياشة ، وجعلت لهم أمثلة عليها اقتضتها حياة البادية وصاروا يتغننون بها ،

ويسعون حثيثاً لتحقيقها من مثل: السكرم ، والنجدة ، وإغاثة الملهوف ، والوفاء بالوعد والشجاعة والذكر الحسن .

والقول بأنه ليست لهم فنون جميلة كما كان للإغريق أو الرومان أو الشعوب الآرية قول خاطيء . وإذا كان الفن قاصراً على التصوير أو النحت مثلاً فربما كانت هذه التهمة صحيحة ، ولكن ذلك تحديد ظالم للفن لا مبرر له ، فالفن هو كل ما يعبر عن الشعور الجميل ، ومن المشكوك فيه أن يوجد شعب سلب نعمة التعبير عن الشعور الجميل في أية صورة من الصور سواء كان ذلك رقصاً أو موسيقى أو صناعة الخزف أو الزخرفة .

والطريقة التي عبر بها العرب عن أحاسيسهم الجميلة (وإن لم تكن الطريقة الوحيدة) هي فن القول ، وهو أقوى الطرق إغراء وإقناعاً ، وأعظمها خطراً ^(١) ،

أجل مهر العرب في فن القول ، وكان عندهم في الجاهلية الشعر وهو أعلى صور البيان وأشدّها سطوة ، وأوسعها انتشاراً ، وقدروه قدره وصاروا يخشون قالة السوء تشيع على أحدهم ، أو ترمى بها قبيلة من قبائلهم فتكسبهم الخزي والعار .

وقد كثر في شعرهم ألوان الحكمة مصوغة صياغة متقنة ، وما الحكمة إلا حقيقة مجردة تدل على تفهم لأسرار الوجود ، وعلى الإحاطة بالنفس البشرية ، فيصدر الشاعر الحكيم قوله ، وتراه ينطبق على كثير من الناس مهما اختلفت عصورهم وبيئاتهم .

وهذا الشعر الجاهلي غاص بالعواطف السامية الرفيعة : كالحب ، والرثاء والعتاب ، والاعتذار ، والوصف للمناظر الخلابة ، في بيان مشرق ، وإتقان تام .

لم يكن للعرب أساطير وخرافات دينية وفلسفات معقدة ، وأنّى لهم هذا والطبيعة السافرة التي لا يتركونها برهة من حياتهم لم تدع لهم أي مجال لاختزان الأسرار أو الشك في بارئها .

وإذا كانت الطبيعة التي ألهمت الجنس الآرى الأساطير والخرافات طبيعة صارمة قاسية ، تبث في نفسه الرعب ، وجعلته يتملقها ويؤله عناصرها المتباينة ، ويقدم القرابين لمختلف الآلهة ، فإن الطبيعة التي ألفها العربي في الصحراء كانت صديقة ، قبلها على علاقتها ، وشعر فيها بالتوحيد ، ووصل إلى حقيقة الخالق دون أن يضل سواء السبيل .

لقد عيب على العرب أنه لم تكن لهم (ميثولوجيا) أى خرافات دينية كما كان عند اليونان ، وليس أبعث على الضحك من التنويه بعظم العقلية اليونانية ، وما رزقته من عبقرية لأنها آمنت بالخرافات ، وألهمت الأشخاص والأبطال ، واتمست الطريق إلى الحقيقة فضلت ، وأمعنت في الأساطير من غير أن تصل إلى الله .

إذا كانت الخرافات والأساطير وليدة الخيال ، فهو خيال أمة ملك الرعب من الطبيعة أزمة أفئدتها ، واستحوذ على كل مشاعرها ، وامتلات مخيلتها بشتى الأوهام ، شأن الطفل الذى لا يدرك الحقائق ، وإنما يفزع من أمور لا وجود لها ، وليكن خياله الساذج يحسمها ، فيحسب الظل إنساناً وهزيم الرعد حيواناً ، وزفزة الريح ملائكة أو شياطين غاضبة .

أما الأمة العربية في جاهليتها التاريخية ، فقد كانت أمة درجت شوطاً غير قليل في حياة النضج العقلى ، ولم تعد أحلام الحداثة ، وأوهام الطفولة تروق لها . شأن الإنسان اليافع أو الشاب الناضج . ولا سيما وقد بسطت الصحراء وتلك الطبيعة التي يعيش معها البدوى ليل نهار — لا تسكتم عنه سرّاً ، ولا تخزن دونه أمراً — من عقله الواعى ، فانكشف عقله الباطن .

وصار العربي نتيجة هذه اليقظة العقلية ينظر إلى الوجود ومشكلاته نظرة واعية بعيدة عن الأوهام والخرافات ، وقد وصل في قرارة نفسه إلى معرفة خالق الوجود فأمن به ، وإن حاول أن يصل إليه أحياناً عن طريق الأوثان والأصنام فذلك لأنه لم يبلغ من النضج العقلى درجة الكمال ، ولم يكن حظله من المعرفة والعلم إلا حظاً قليلاً

نتيجة تجربة شخصية ، و حياة ساذجة فطرية . وإذا سئل عن هذه الأصنام في أية لحظة من لحظات حياته : أهى آلهة ؟ أنسكروا في جزم ألوهيتها ، واعترفوا بالله ، وأقر بأنهم توصلوا إلى الله ، وقال : « هؤلاء شفعاؤنا عند الله » ، وقال : « وما نعبدكم إلا ليقربونا إلى الله زلفى » ،

وليس معنى هذه العقلية الواعية أنه لم يكن للعرب خرافات ألبيته ، فكل أمة مهما بلغت من العلم والمدنية لها خرافات وأساطير ، حتى في عصرنا هذا — عصر المادة والعلم — يؤمن كثير من جمهرة الغربيين بخرافات شتى .

كان العرب يعتقدون في الجن ، وأن ثمة أودية تغص بهم ، وأن الجن يوحون إلى شعرائهم رائع الخيال ، وجميل الشعر . وكانوا يتفاءلون ويتشاءمون ويزجرون الطير وغير ذلك من الخرافات التي لم يكن لها أثر كبير في حياتهم .

ولكن شتان بين هذه الخرافات وتلك ، فبعض هذه الخرافات لازال مما يعتقده كثير من أهل الغرب المتمدين الذي بلغ شأواً غير قليل في العلم والحضارة ، ولا سيما تلك التي يتشاءم منها ، ولعلها موروثه من المراحل الأولى للإنسانية ، في العصور التي كان يعيش فيها الإنسان بالغابات أو السكوف ، يكمن له في كل ثنية خطر ، ويهدد حياته في كل مرتقى وحش ، ولا يدري حين يذهب سعيًا وراء القوت أيعود لأسرته أم لا يعود .

أما الخرافات الأغريقية ، والأساطير الدينية التي آمنت بها تلك الأمة ، والتي مجددها الغربيون من أجلها ، فهي خرافات شكلت نظام حياتهم ، وتغلغلت في حنايا نفوسهم ، وقد كفر العقل الإنساني بهذه الخرافات حين شب عن مراحل الطفولة ، ودرج في سلم العلم والمدنية خطوات ، وآمن بالله كما آمن العرب في جاهليتهم .

ولو كانت هذه الخرافات والأساطير جديرة بأن يؤمن بها الإنسان الكامل في يقظته العقلية التامة لظلت أوربا تؤمن بها ، وتعبد الآلهة المتعددة ، والقوى الطبيعية ، ولم تؤمن بالمسيح .

لقد اتسمت العقلية العربية في أدبها الجاهلي بسمة الواقعية ؛ ولم تلجأ إلى ذلك

الضرب من الخيال الذى صورته المشاعر الفزعة ، والعقول المضطربة القلقة . وربما كان للعرب أوهام مثل ذلك فى جاهليتها الأولى ، ولكنها لم تصل إلينا لأن الأمة العربية حديثة التكوين فى التاريخ ؛ ولأن اللغة لم تكن قد توحدت حتى تروى بها مثل هذه الخرافات ؛ ولكن نشك فى أن الصحراء ، والمعيشة فيها تنتج مثل ذلك أما الفلسفة المعقدة ، فليست كذلك من نتاج البادية ؛ لأن العربى كان أقل اهتماماً بما وراء الطبيعة ؛ ولم يهتم بذلك ، وهذه هى الطبيعة ذاتها متجلية له بكل أسرارها فى وضوح النهار تحت ضوء الشمس الضاحية ؟ .

ثم إنه أقل الناس قلقاً فى الحياة ، قبل الحياة على علاقتها ، بسرائها وضرائها ، ولذلك لم يعرف العرب فى جاهليتهم الانتحار ، ولم يفزعوا من الموت ؛ ولذلك لم تتعقد أمامهم الحياة حتى يفكروا فى مشكلاتها .

ثم إن طبيعة الخصب والرخاء ، واعتدال المناخ ويسر الحياة تميّت فى النفس الإنسانية حوافز السكفاح والنضال ، فتموت من ورائها كثير من الفضائل ، ويصبح انكباب الناس على ماتحت أقدامهم من لذات القوت ، ومتع النساء ؛ وما يصحب التفانى فى صيانة هذه اللذات والمتع من شهوة بناء القصور ، وغرس الحدائق ، وصناعة التحف ، وزخرفة الأواني ، مؤدياً فى النهاية إلى ظفر فرقة قليلة من الناس بكل شيء ، وحرمان السكثرة العاجزة كل شيء .

ولما كان نضال هذه السكثرة فى سبيل مساواتها بالآخرين مستحيلاً لفقدانها هذه القوة النفسية التى تسكفح بها ، انبعثت من صميم هذه السكثرة قوة جديدة مناسبة هى قوة الأحلام والتصورات ؛ لتحل أزمة الحرمان الذى تعانى به ، وتعالج حرج العجز الذى تشعر به ، فكانت فلسفات ، وكانت قصص ، وكانت أوهام ، تعبر عن ذلك الأمل المسكبوت . وعن رغبات مخزونة فى زوايا العقل الباطن لم تتحقق .

وليس كذلك العرب فى الصحراء ؛ فهم فى ميزان الحياة سواء ، مواردهم محدودة ، فلا مجال للاكتناز والغنى المفرط ، وليس ثمة قصور ودور ، وإنما هى أخبية تطوى ،

ومتاع قليل ، وبذلك انمحت من بينهم تلك الفوارق الاجتماعية ، ولم يشعر فريق منهم بالحرمان ، ومن ثم لم تسكن أوهام وأحلام . وإنما هي الحقيقة يفتنون بها ، ويسعون جهدهم لإدراكها ، والتعبير عنها .

لقد كان للصحراء أثر قوى في الشعر العربي ؛ فهي التي أوحى للشاعر بأسلوب

القصيدة وعناصرها .

يمر على ديار الأحبة — وقد ظعنوا — فتهيج آثار الديار والدمع الباقية مشاعره ويتذكر في حسرة أويقات أنسه ، وساعات سمره مع خلانته وإخوانه ، ويتذكر الحبيبة ، وما كان يتمتع به في هذه الملاعب والدور من لهو برىء ، وغزل عفيف . فيقف بهذه الديار يذرف دمعاً على ذلك الماضي الجميل . ويتبع بنظراته أثر الطعائن ولكن أنى له أن يراها أو يدركها . وسرعان ما تثوب نفسه إلى رشدها ، فينقطع حبل الذكريات ، وينصرف إلى رحلته لا يلوى على شيء .

وهو في هذه الرحلة يعتمد على ناقلته فهي التي تجوب به الفيافي ، وتقرب له البعيد ، وهي التي تؤنسه في هذا الفضاء المتسع ، وتلك القفار الشاسعة ، فلا بدع إذا خصها بالذكر ووصفها وصفاً جميلاً ، وشبهها بانطلاقها وسرعتها بوحوش الدو التي يشاهدها في رحلته فأنا يشبهها بشور الوحش وقد أحس بالصياد فنفر وأطلق ساقيه للريح ، وأنا بالتمار الوحشى ، وأنا بالظبي الشارد النفور .

وهو في وصفه هذا يستطرد استطراداً جميلاً ، ويصور صوراً حية ناطقة من حياة الصحراء ، لا يزال لها روعتها وجلالها وجمالها حتى اليوم ، ولو ترجمت إلى أية لغة لرأى فيها الناس ذلك الجمال وهذه الروعة . إنها صور واقعية ليس فيها تزويد أو اختلاق ، وجمالها في هذه الواقعية الطريفة الصادقة التصوير .

ثم يصل الشاعر إلى نهاية رحلته ، ويصل في نفس الوقت إلى الغاية من قصيدته فيمدح أو يحرض على القتال ، أو يسوق الحكمة ، أو يعتذر أو غير ذلك من أغراض الشعر الجاهلي .

لقد عيب على القصيدة الجاهلية أنها غير مرتبطة بالأجزاء ، وليست لها وحدة فقد يتغير ترتيب الأبيات في القصيدة دون أن يغير ذلك المعنى العام لها ؛ لأن كل بيت مستقل في معناه ، تام بنفسه .

وليس كذلك الفن الغربي فثمة وحدة وانسجام في القطعة الفنية ، ولو تغير ترتيب الأبيات لأخل بالمعنى كله .

لقد كانت القصيدة العربية كذلك ، ولكن مما لا ريب فيه أن ثمة وحدة فكرية تربط بين أجزائها في عقل الشاعر ، وأن هذا المراحل والعناصر الطبيعية في تلك البيئة الصحراوية ، وفي أمة ناشئة في الأدب ؛ لأن الأدب الغربي لم يتطور ، ويتغلب على هذه الهنة إلا في العصور الوسطى ، والعربي كان ينشد الشعر ولم يكن يؤلفه تأليفاً ، إنه كان يرتجل في كثير من الأحيان وكان شعره نوعاً من الخطابة المنظومة .

ويقول العلامة (جب) في ذلك : « الخلق الفني لدى العرب سلسلة من بواعث منفصلة ، كل منها تام ومستقل بنفسه ، لا يربط بينها غاية أو انسجام أو اتقان ، اللهم إلا وحدة العقل الذي أبدعها .

أما الفن الغربي ولا سيما منذ العصور الوسطى فقد تطور حتى عاد سلسلة من الأمور المعقدة تضفي على الفن انسجاماً ، وتربط بين عناصره الكثيرة ، وتروق للعقل كما تروق للشعور .

بيد أن فن القول - من جهة أخرى - عند الغربيين وعند العرب على السواء - لا يزال يحتفظ بطابع البساطة والتفكك ، بل لنا أن نقول (بطابع بدائي) ؛ ولهذا السبب كان له سطوة وقوة قاهرة على خيال الفرد وعلى خيال الجمهور ، وقد تبلغ هذه القوة حداً تعوق فيه المقدرة على تكوين وحدة أو انسجام ، ^(١) .

ونحن نعلم أن الفن الذي برع فيه العرب هو فن القول . ولست أرى في طريقة العرب في التفكير والخلق الفني عيباً كما يدعى الآخرون ، فإن هذه الفترات الشعورية المتقطعة ، وهذه النظرات الجزئية ، تجعلهم ينفذون إلى صميم الشيء ، ويحيطون بكل

دقائقه ، وعلى العكس من ذلك تلك النظرات الشاملة التي ترى الشيء من جميع أطرافه فإنها قلما تصل إلى الأعماق . وقد أفادت هذه الطريقة العرب في عصر نهضتهم العلمية ، فاهتموا أثناء تجاربهم بالتفاصيل ، وقلبوا المسائل على شتى وجوهها ، وقتلوا بحثاً ، وعنهم اقتبس الغربيون هذه الطريقة في البحث العلمي .

وإليك ما قاله العلامة (جب) في هذا الموضوع : « إن تركيز التفكير العربي على الحوادث الفردية قد مكن علماء المسلمين من تحسين الطرق التجريبية في البحوث العلمية إلى درجة أعلى بكثير ممن سبقوهم من علماء اليونان أو الاسكندرية . واست أريد أن أسهب في هذا الموضوع ولكنني أظن أن من المتفق عليه أن عناية باحثي المسلمين بالتفاصيل والجزئيات قد ساعدت تقدم المعارف العلمية مساعدة محسوسة ، وعنهم أخذت أوروبا في العصور الوسطى هذه الطريقة التجريبية ، ^(١) .

هذا ولم يدع العربي الجاهلي في الصحراء شيئاً لم يصفه ، بتلك النظرة الفاحصة النافذة ، وبهذا الإحساس المرهف بكل ما يحيط به . فوصفوا من الحيوان كل ما ضمته الصحراء في فجاجها وآجامها : ووصفوا الإبل ، وأفتنوا في ذلك افتناناً عجيباً لأنها كانت عزيزة عليهم ، وهي أكبر مساعد لهم في حياتهم ، ووصفوا الخيل في ضروب خلقها وأحوال سيرها ، ووصفوا من وحوش القلاة الأسد ، والضبع ، والذئب ، والظباء ، والأوعال ، والخر ، والبقر ، ومن الطير : الحمام وبكائها ، والعقبان والرخم ، والنسور وغراب البين ، والبارح منها والسائح ، ومن الهوام ، الحيات والأفاعي والصلال ، والعقارب .

ووصفوا من النبات السكلاً والعشب ، والمراعي ، والشيخ ، والقيصوم ، والعرار ، والخزامى ، والنخيل ، والحدائق الملتفة ، ووصفوا السحاب المتراكم يسوق بعضه بعضاً ، والأمطار الغزيرة ، والرياح والبرق ، والرعد والسراب ، والسييل المتدفق .

ووصفوا السماء والنجوم والشمس والقمر وصور السكواكب وألوانها. ووصفوا
الفيافي المقفرة، والشعاب، والفجاج، والأودية، والهضاب، والأحياء والمنازل،
والمرايع، والمصايف. وأجادوا في وصف الديار، والأطلال.
ووصفوا الغدران والآبار والتلع.

كل ذلك في صور بديعة خلابة، صادقة التصوير، متقنة الأداء، تنقل إلى السامع
أو القارئ إحساس الشاعر كاملاً، على الرغم من ميلهم إلى الإيجاز، ولكن طريقتهم
وذلك التفكير المباشر غير الملتوى أو المعقد جعل معانيهم مفهومة، وإحساسهم بيناً،
وأسبغ على شعرهم جمالا فطربا خلابا.

وكان من الطبيعي كذلك أن يلجأ الشعراء إلى الصحراء وما حوت من حيوان
ونبات، وإلى الطبيعة التي يشاهدونها من سماء صافية الأديم، وشمس ضاحية متوهجة،
ونجوم لامعة براقة، وجبال متجهمة شائخة، وسيول متدفقة سريعة، وسحاب كثير
متراكم، وبرق لمح يخطف البصر؛ ورياح بين زفوف ورخاء — كان من الطبيعي أن
يلجئوا إلى كل ذلك يستمدون منه تشبيهاتهم؛ لأن هذه المناظر تلح على حواسهم
صباح مساء، فتشبع بها خيالاتهم، ولم يجدوا لهم مندوحة حين يتغزلون في النساء،
أو يمدحون، أو يصفون الأناسي أو يهجون أو يطرقون أى موضوع من موضوعات
الشعر إلا الالتجاء إلى الطبيعة التي تقع عليها حواسهم تلهمهم ألوان التشبيه وكثيراً من
الصور المتباينة؛ لإيضاح المعاني التي يريدونها. والأمثلة أكثر من أن تذكر
فأمرو القيس حين يصف الحصان في كره وفره، وسرعته واندفاعه يشبهه بجلهود
صخر حطه السيل من أعلى الجبل.

مَكْرٍ مَفَرٍ مُقْبِلٍ مُدْبِرٍ مَعَاً بَجَلُودٍ صَخْرٍ حَطَّ السَّيْلُ مِنْ عَلٍ
وطرفة حين يصف الوجه الجميل يتخيل أن الشمس قد خلعت عليه
رداءها، فيقول:

كَأَنَّ إِيَاةَ الشَّمْسِ أَلْقَتْ رِدَاءَهَا عَلَيْهِ نَقَى اللَّوْنُ لَمْ يَتَّخِذْ

وزهير حين يتكلم على الطعائن ، وما تركته من آثار خلفهن في رحيلهن ويصف
العن الذي تنائر هنا وهناك لا يجد إلا حب الفنا الأحمر الذي يذبت في الصحراء يشبه
به ذلك العن .

كأن فتات العن في كل منزل نزلن به حب الفنا لم يحطم
وعيون المرأة الجميلة تشبه في سعتها عيون المها ، وفها الألى وثغرها الباسم يشبه
الزهرة البيضاء التي بللها الندى واحتضنها الرمل ، وجيدها في طولها واستوائه يشبه جيد
الظبي وقد مده ليتناول بعض أوراق الأشجار ، ومشية المرأة الممثلة تشبه مر السحابة
على حد قول الأعشى :

كأن مشيتها من بيت جارتها مر السحابة لا ريث ولا عجل
ولو رحت أعد تلك التشبيهات التي أخذها الشعراء الجاهليون من الطبيعة التي تحيط
بهم لما استطعت إلى ذلك سبيلا ؛ لأن الشعر الجاهلي كله مدين للصحراء وللطبيعة بكل
ما فيه من تشبيهات وخيال وصور .

وسنرى أن النابغة الذبياني كان مخلصاً للصحراء ، متأثراً بالطبيعة التي أحاطت به ، شأنه
في ذلك شأن كل الشعراء الجاهليين ، وإن امتاز عنهم في الوصف بميزات سنذكرها
بعد ، وإن أفاد من رحلاته إلى ملوك الحيرة والشام فلم يقصر تشبيهاته وصوره على
ما رأى في الصحراء .

مروءة نبياته :

كانت جمهرة العرب العدنانيين بدوا ، يقطنون الصحراء ، وقد رأينا فيما سبق كيف
أن طبيعة الصحراء قد أثرت في تفكيرهم وخيالهم ، بيد أن أثرها لم يقف عند ذلك
الحد فقد كان لها أثر اقتصادي كبير ، شكل طباعهم وعاداتهم ، وفرض عليهم نهجاً خاصاً
في الحياة انعكس على آدابهم ومأثور كلامهم .

ولست أريد أن أخوض في وصف الجزيرة العربية ، ومناخها ، وطبيعة أرضها ، وإنما الذى يعنينى هو تلك البقعة التى كانت تقيم فيها قبائل غطفان بعامة وذيان بخاصة . على أن هذه البقعة ليست جزءاً منفصلاً عما يحاوره من الديار ، كما أن قبائل غطفان لم تكن مستقلة عما سواها من القبائل لا تخالطهم ولا ترحل إليهم ، ولذلك كان لزماً علينا أن نتكلم عن شمالى نجد حيث كانت تقطن هذه القبائل .

كانت قبائل غطفان ، وأشهرها عبس وذيان ، تقيم فى الشمال الغربى من نجد بين وادى القرى شرقاً ، وجبلى طيء : أجاً وسلى غرباً ، ووادى السرحان فى بادية السماوة شمالاً ، ووادى الشربة جنوباً .

وهذا الجزء من الجزيرة العربية يقع فى صحراء النفود ، وليس فى الصحراء العربية عامة أنها جارية ولكن بعض مجار أو نهيرات صغيرة ، قل منها ما يدوم ماؤه . ومن ذلك وادى الشربة فى ديار غطفان . وماؤه ملح لا يصلح للشرب وفى ذلك يقول الحارث بن ظالم المرى الذيبانى :

فلو طاوعتُ عمرَكَ كنتُ فيهم وما ألفتُ أنتجعُ السحابا
ولا ضفتُ الشربةَ كلَّ عامٍ أجدُّ على أبائرِها الذبابا
أبائرُ ملحةٍ بحزيرِ سوءٍ تبيتُ سقاتها صردى سغاباً^(١)

وكذلك كان وادى السرحان ملحاً . تسكث فيه البحيرات المالحة ، وتجود السماء على ديار غطفان شتاءً ، فتمتز الأرض وتربو وتنبث العشب الذى ترعاه الماشية فى الربيع . وعلى هذا المطر يعتمد البدو ، ويسمونه الغيث ، لأنهم يغيثهم وينقذ حياتهم ، ويسمونه كذلك الحياء .

وأرض نجد بعامة خصبة تستجيب للغيث ، وتخضر فى الربيع ، وتنمو ثمة بعض

(١) الهمداني — صفة جزيرة العرب ص ١٥٥ طبعة لندن . والحزير المكان الغليظ ، وصردى :

يتأذون من البرد ، وسغاب : جياح .

أنواع النبات ، ولا سيما في الأدوية فمن ذلك : أشجار الطلح ، والأثل ، والسدر ،
والحناء ، وكثير من النخل وهو أئمن شيء عندهم ، وعليه قوام حياتهم .

وكانت توجد بعض الدارات أو الواحات القريبة من ديار غطفان مثل فدك ،
وتيماء وخيبر ، على أن معظم أراضيهم مجدبة إلا في فصل الربيع ، وإن كانت بعض
أعلى نجد يسقط عليها المطر صيفاً فيدب فيها شيء من الحياة^(١) .

وهذه المنطقة حارة على العموم لبعدها عن مجرى الرياح الساحلية التي تخفف من
شدة الحر ، وتلطف الجو ، وإن كانت ديار نجد لا ارتفاعها أقل حرارة من سواها ،
وهي قارية يشتد بها الحر صيفاً ، والبرد شتاء . وفي ليالي الصيف يلطف الجو ولا سيما
في الجهات العالية .

وقد أكثر الشعراء القول في نوعين من الرياح : ريح الصَّبا ، وريح السَّمووم ،
والصبا ريح شرقية معتدلة ، تغزل الشعراء في رقة نسيمها ، واشتقوا منها فقالوا : صبت
الريح تصبوا صبواً ، والسموم ريح حارة ، واشتقوا منها كذلك فقالوا : يوم
سام ومسموم .

وكان طبعاً لقوم يعيشون في هذه البيئة الصحراوية المجدبة أن تكون المراعى
والأمكنة المعشبة ثمينة لديهم ، وأن يحولوا بينها وبين كل من تحدثه نفسه برعيها وإلا
هلكوا مسغبة وظماً .

وفي كثير من الأحيان لا تكفي هذه المراعى لإطعام نَعَمهم ، إما لقلة الأمطار ،
أو لكثرة إبلهم ، فيعمدون إلى الغارة على جيرانهم حتى لا تضار نَعَمهم ،
فيلكون بهلاكها .

(١) راجع صفة جزيرة العرب للهمداني ، وتاريخ العرب القداى لمحمد نحر الدين بك ، وجزيرة العرب
في القرن العشرين للشيخ حافظ وهبه .

ويشتد الجذب في الشتاء ، وفي الشتاء البرد والجوع ، ولذلك تسكثر غاراتهم وحروبهم حين يعرضهم الجوع بنابه ، لا يبالون بأى شيء في سبيل حفظ النماء ، وأود الحياة .

ولذلك كثرت الحروب بين عرب البادية في سبيل العيش والقوت الضروري ، ولم يكونوا يسكنون القصور المحصنة أو البيوت المسورة . ولم يكن لهم شرطة يسهرون عليهم ، أو حامية تصد عنهم الغارات ، بل كانوا يقيمون في بيوت من الشعر والوبر ، وليس لهم حارس إلا مقابض سيوفهم ، وأسنة رماحهم ، وليس لهم حمى إلا ظهور خيلهم .

فأورثتهم هذه الحياة الخشنة ، وهذه البادية الواسعة القفر : البأس والشجاعة والصرامة ، يرجعون إليها متى دعاهم داع ، أو استنفرهم صارخ ، وتأصت في طباعهم النجدة وحب الغزو ، والميل إلى الانتقام والأخذ بالثأر . ومن ثم كانت العصبية فيهم أظهر وحظهم من صحة النسب أوفر : لأن بالعصبية الحماية ، والمدافعة والمطالبة ، وغايتها التغلب . والنسب الصحيح هو الذى يؤدى إلى الالتحام ، الذى يوجب صلة الأرحام والشفقة والنعرة عليهم ؛ أن يصيبهم ضيم ، أو يلاحقهم أذى .

كانوا يبتغون الماء ، ويرتادون منابت العشب ، ليرعوا أنعامهم التى عليها بلاغهم فى حمولهم ، وشبعهم ، ورعيهم ، فتنازعوا على المرعى ، وتدافعوا على النجعة ، ونشبت بينهم دواعى الخلاف التى كثيراً ما تنتهى بالاحتكام للسيف ، فانتشرت بينهم العداوة وفشت فيهم الحروب ، وتخطف بعضهم بعضاً .

والقتال على الماء ، والمال ، والغنيمة - قانون الفطرة فى بقاء الأصلح ، وكان هؤلاء البدو حقاً على الفطرة فى طباعهم وعاداتهم ، ولذلك كثرت دواعى القتال بينهم وزادت حرارة الصحراء فى سرعة انفعالهم ، وحدة طباعهم .

كانت العصبية القبلية شديدة بينهم - كما مر بنا - حتى لا يذلوا ، ويتخطفهم

الناس من حولهم ، وتستباح حرماهم ، وينتهك حماهم ، ولذلك كان على القبيلة أن تنصر كل فرد منها إذا دعاها للقتال ظالماً أو مظلوماً . وكثيراً ما تضطرم الحرب بين قبيلتين ، ويستعر أوارها ويصلى بها السكك ، لأن شخصين اختلفا فيما بينهما فانتصرت كل قبيلة لصاحبها ، وقد صدقوا حين قالوا :

وإن النار بالعودين تذكي وإن الحرب أولها الكلام

وقد عبر عمرو بن براقة عن هذه الحياة ودواعي الحروب في الجاهلية أحسن تعبير بقوله :

ومن يطلب المال الممنوع بالقسنا يعيش ذا غنى أو تخترمه المخارم

وكنيت إذا قوم غزوني غزوتهم فهل أنا في ذا يالهمدان ظالم

متي تجمع القلب الذكي وصارماً وأنا حميما تجنبك المظالم

وكانت كل معركة تستتبع ثأراً ، وكل ثأر يلد معركة . والثأر كان حق الأبناء للآباء ، أو حق الآباء للأبناء ، أو المرء لعشيرته وذويه ، أو القبيلة لأفرادها المدافعين عنها حتى لا تهان وتستذل وتستأصل .

ولولا الحروب على الثأر ما استرجع المهزوم مكانه من النصر بعد الهزيمة ، وما شفى الموتور صدره من حفيظة الوتر ، وما أخذ الوافون بالود حقوق الداهيين من خلائهم وحلفائهم وإخوتهم ، فلا تذهب الجناية بدون قصاص .

وقد جاء الدين الإسلامي مذهباً لذلك حيث جعل حياة العدل في أخذ القتل بالقتل والجريح بالجرح .

قال تعالى : « وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ ، وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ . وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ ، وَالْأُذْنَ بِالْأُذُنِ ، وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ ، وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ ،

وَقَالَ تَعَالَى : « وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ »

وكان العربي إذا نهض لأخذ الثأر حرم على نفسه اللذات ، فلا يغتسل ، ولا يتطيب ،

ولا يقرب النساء ؛ حتى لا يثبطه شيء عن أخذ ثأره . ثم إنه كان يجعل المرأة خلف الصفوف ؛ حتى يكون القتال عن كل شيء في الحياة ، وحتى تستحيل الهزيمة عليه ، فهو النصر بأعراضهم ، أو الموت دونها .

وقد مرَّ بنا قول يزيد بن حنظله بن ثعلبة يحرض قومه على الثبات والصبر في المعركة :

من فرَّ منكم فرَّ عن حريمه وجاره وفرَّ عن نديمه

ولذلك كانت بعض القبائل - لكثرة ما تخوض من حروب ، ولأنها حروب مرة قاسية - تحتّم بالحلف ، وبقيت بعض القبائل الأخرى متجمرة ^(١) في نفسها ، معترزة بعصبيتها . ترى نفسها في غنى عن سواها لكثرة أفرادها .

ولقد كثرت الحروب في الجاهلية بين مختلف القبائل ، فترى حروباً بين العدنانيين والقحطانيين ثم بين العدنانيين ، بعضهم وبعض ، وبين العرب والفرس ، وبين العرب والغساسنة حلفاء الروم ، حتى روى صاحب كشف الظنون أن أبا عبيدة قد ألف كتاباً صغيراً في أيام العرب حوى خمسة وسبعين يوماً ، وآخر كبيراً جمع فيه ألفاً ومائتي يوم - وإن لم يصل إلينا شيء منهما . بيد أن كتب الأدب القديم غاصة بأخبار هذه الأيام وإن اختلفت رواياتها . فترى ذلك في الأغاني ، والنقائض ، والعقد الفريد ، ومعجم البلدان . وابن الأثير ، والمسعودي ، ومعجم وما استعجم ، والطبري وما شاكل ذلك من كتب الأدب والتاريخ

ولقد سجل الشعر الجاهلي كثيرًا من أخبار هذه الحروب سواء في شعر الفخر والحماسة أو شعر الهجاء والثناء ، وكان كثير من هؤلاء الشعراء فرساناً يخوضون المعركة ، ويبلون فيها بلاء حسناً كهلمل بن ربيعة ، ودريد بن الصّمة ، وعامر بن الطفيل ، وعنترة ابن شداد العبسي ، وعمرو بن مَكْدَم ، وعمرو بن زياد العبسي ، وغيرهم من الشعراء .

(١) الجمرة . القبيلة التي تعتر بعصبيتها ولا تحالف غيرها ، وهي من التجرم بمعنى التجمع ، وجرات العرب ثلاث : ضبة ، وغير . وعيس . وبعضهم يزيد رابعة . وهي بنو الحارث بن عبد المطلب .

ولم يقصروا في ميدان القول عن ميدان الوغى ، فكان شعرهم بتاراً كسيوفهم ، يحمس الناس ، ويدفعهم دفعاً إلى الحرب يذودون عن الشرف والعرض ، ويحمون الجار ، أو يردون عدوان مغير ظالم ؛ ويتغنون بانتصاراتهم ، ويدافعون عن أحساب قومهم ، ويطلقون أسلحتهم في خصومهم وأعدائهم ، ويندبون بقوافيهم صرعاهم ، والقتلى من أشرفهم وزعمائهم ، ويصفون آلات القتال وصفاً دقيقاً جميلاً

وكان ثمة شعراء يقفون بجانب هؤلاء الأبطال الذين يجودون بنفوسهم رخيصة في سبيل قومهم ، يعضدون قبائلهم بقصائدهم القوية ، ويشجعونهم على الصبر والجلد في القتال ، والصدق عند اللقاء ، والانتصار للعشيرة ، والوفاء بالوعد ، والدفاع عن الحرم ، ويرثون من سقط في حومة الوغى من أبطالهم وفرسانهم ويعددون مفاخرهم ، وسابق أيامهم ، وجميل بلائهم في حروبهم وإن لم يخوضوا المعركة

ولقد مر بنا شيء من هذا عند الكلام على القبيلة ، ومن هؤلاء الشعراء في الجاهلية : الأعشى ، والنابغة الذبياني ، والحارث بن حلزة وغيرهم .

ولقد وسعت اللغة العربية بمفرداتها وطرق تعبيرها كل ما جال في نفوس هؤلاء الشعراء ، ولا أدل على ذلك من كثرة الألفاظ الدالة على وصف السلاح عند العرب ، فثمة السيوف والمدى ومناصلها وأغمادها ، والرماح والزجاج^(١) وكعوبها وصعاداتها^(٢) . والدلائص^(٣) والأبدان^(٤) والدروع وحلقها ، وزردها ، وقترها^(٥) ، والخُرْد ، والترايك^(٦) والمغافر ، ويَضُّها وقوانسها وعذاباتها . والتروس والجواشن وحمائلها وهداياها . والقسي وما لازمها من النبل المقدَّذ^(٧) ، والسهم المريش ، والوتر ، والفوق^(٨) والفرض^(٩) والسرية والنيزك .

(١) الزج : الحديد في أسفل الرمح . (٢) الصعدة : القناة المستوية ثبتت كذلك (٣) درع دلاص ككتاب : ملاء لينة (٤) الأبدان : جمع بدن وهي الدرع القصيرة (٥) القتر : ج قتر وهي رءوس المسامير في الدرع (٦) الترائك : ج تريك وهي الخوذة والبيضة (٧) المقدَّذ : المريش من القذة وهي ريش السهم (٨) الفوق : موضع الوتر من السهم والفوقه كذلك (٩) الفرض : موضع الوتر من القوس

وإذا أتى على ذكر الخيل فما من لغة أوسع من العربية بأوصافها ، تمثل عذوها وجريها وتطبيقها ، وتقريبها ، وحضرها ^(١) ، وارتفاعها .

أما وصف القتال ، فقد افتن العرب فيه أيما افتنان ، ولهم كلمات شتى تعبر عنه كالنزال ، والمجاول ، والمصاول ، والمشق ^(٢) ، والرشق ، والحذف ، والقذف ، والماصمة ^(٣) والنفع بالمناصل ، والضرب بالمغاول ^(٤) ، والوخز بالعوامل . . . إلى غير ذلك .

وعلى الرغم من كثرة ما قال العرب في الحروب ووأصاف المعارك ، وأدوات القتال فقد أخذ عليهم خلو شعرهم من الملاحم ، أو الشعر القصصى الذى يرويه شاعر ، ويتحدث فيه عن المعارك التى شبت بين عدد من الفرسان ، ويصف أحوال المجتمع ، ويتعرض للديانات والآلهة وما شاكل ذلك : مثل ما فعل هوميروس فى الإلياذة ، وفرجيل الرومانى فى الإنيادة ، ومثل منظومات رولان فى الأدب الفرنسى والفردوس المفقود للشاعر الإنجليزى (ملتن) ، والشاهنامه للفردوسى وغيرهم .

وقد دفع التعصب الذمى بعض الكتاب من غربيين ومن لف لفهم من المصريين وسواهم أن يرموا العقلية العربية بالعقم ، وجذب الخيال ، وضيق الأفق ؛ لأن العرب لم يكن لهم فى جاهليتهم مثل ما كان لليونان من قصص خيالى يتحدث عن الآلهة كما يتحدث عن المعارك .

ولقد أفضت فى الفقرة السابقة عند الكلام على أثر الصحراء فى الخيال العربى فى هذا الموضوع ، ولا أريد هنا أن أكرر ما قلت ، ولستنى سأتناوله من جهة أخرى لأننا نبحت فى الحروب وأثرها فى الشعر .

يقسم الفرنجة الشعر عادة إلى : غنائى Lyric ، وقصصى Epic ، وتمثلى Drama ،

(١) الحضر : ارتفاع الفرس فى عدوه كالإحضار ، والتقريب أن يرفع الجواد يديه معاً ويضعهما معاً ومثله التطبيق . (٢) المشق : سرعة الطعن والضرب . (٣) مصعه بالسيف ضربه ضربات قليلة (٤) المغول : النصل الطويل أو السيف الدقيق .

ويرون أن الشعر إما أن يتناول العالم بمظاهرة البارزة ، وإما أن يعبر عن خليجات النفس وأحاسيسها ، أو يتوسط بين هذين ؛ فالأول هو الشعر القصصى الذى يتحدث فيه الشاعر عن سواه ، وعن مظاهر الطبيعة ، والمجتمع البشرى بعاداته وتقاليده وأبطال الحروب من غير أن ينم عن شعوره إزاء كل ذلك ؛ والثانى هو الشعر الغنائى الذى يعبر عما كمن فى حنايا صدره ، وعن عواطفه الخاصة ، والثالث يجمع بين هذا وذاك .

وليس معنى ذلك أن الشعر القصصى مثل ما ورد فى إلياذة هوميروس لا تتخلله بعض القطع الغنائية التى يصور فيها الشاعر إحساسه الذاتى ؛ ولكن الغالب أن يدع شعوره جانباً ، ويصور الحوادث والأشخاص من غير أن ينم عن نفسه وإلا فقد ورد فى إلياذة هوميروس بعض الشعر الغنائى كثرثاء (أخيل) ووداع (هكتور) لزوجته وما شاكل هذا .

ومن الطبيعى أن يتقدم الشعر الغنائى فى الوضع ، لأن أقدم ما نطق به الإنسان من الشعر إنما كان أغنية يترنم بها ، أو أنشودة تعبر عن عاطفة نفسية من حب ودعاء وغىظ ، ورتاء ، ورجاء ، أو ملهاة ينشدها الكبير ليتلهى بها الصغير . فهذه القطع تقدمت ولا ريب المنظومات الطويلة من أشباه الإلياذة إذ لا تتوفر معدات نظم الملاحم إلا بعد أن يألف الإنسان نظم المقطوعات الصغيرة . ولكن قد يمكن أن يكون ارتقاء الشعر القصصى متقدماً على ارتقاء الشعر الغنائى ، وإن تقدم الغنائى بالوضع ، كما أن ارتقاء بلاغة الشعر متقدمة على بلاغة النثر ، وإن كان النثر متقدماً بالوضع . أما التمثيليات فهى من نتاج الملاحم ، فجاءت متأخرة عنها بالطبع ؛ لأنه كان أيسر على الشاعر فى غابر الأزمان أن ينطق بلسان جميع ممثليه كما هى الحال فى الملاحم ، من أن يجعل كلا منهم ينطق بلسان نفسه فى محل معد لذلك كما هو الواقع فى التمثيليات ، (١) .

(١) مقدمة ترجمة الألياذة لسليمان البستاني ص ١٦٩

ويعود الفرنجة الشعر العربي كله شعراً غنائياً ، وأن العرب لم يستطيعوا أن يقولوا مثلها قال الإغريق القدماء في ملاحظتهم ، وأن ينظموا تلك القصائد الطوال في صورة قصصية تتحدث عن المعارك والأبطال والآلهة ، وطعنوا في العقلية العربية ورموها بكل نقيصة ، لأن الأدب العربي جاء خلواً من ذلك . وفي هذا يقول (أرنست رينان) : « والتوحيد له أثر كذلك في الشعر العربي ، لأن الشعر العربي يعوزه الاختلاف ، فموضوعات الشعر ، أى أغراضه محدودة ، قليلة العدد جداً ، والشعر العربي الذى تمثله القصيدة يعبر عن إحساس شخصى ، وعن حالة نفسية خاصة ، والأبطال في هذا الشعر نفس منشئية ، وهذه الصفة الشخصية التى تجدها في الشعر العربي ، والشعر الإسرائيلى ترجع إلى خاصية أخرى من خصائص النفس السامية ، وهى انعدام الخيلة الخالقة ، ومن هنا لا نجد عندهم أثراً للشعر القصصى أو التمثيلى ، ^(١) .

ومن العجيب أن يعد التوحيد والكفر بالآلهة الخرافيين الذين خلقتهم خيلة الشعوب البدائية ، التى لم تهتد فى جاهليتها إلى حقيقة الخالق عيماً ينتقص به العرب ، لأن شعرهم لم يعظم هؤلاء الآلهة وأنصاف الآلهة ويؤمن بالمشيولجيا . ولقد مر بك فى غير هذا الموضع أن العرب قد بسطت لهم الطبيعة فى عقلهم الواعى ، بينما انكمش عقلهم الباطن وأنهم نظروا إلى الوجود نظرة إنسان رشيد ، لا طفل تكثر لديه الهواجس والأوهام التى عدها أمثال (رينان) نتيجة الخيلة الخالقة التى أبدعت هذا الشعر القصصى ^(٢) :

أما أن القصيدة العربية تعبر عن إحساس شخصى فهذا صحيح فنحن إذا أخذنا وقائع حرب البسوس ، وإن لم تبلغ من الشدة والعنف مثلها بلغت حروب طروادة ترى أشهر الرجال والنساء فيها شعراء ، فكليب يقول الشعر وكذلك زوجته جليله وأخوه المهمل ، ونرى مرة شاعرا وابنه حساساً . وكل ذى شأن فى هذه الحرب من

Histoire Générale et Système Comparé des Langues

(١)

Sémitiques. Par Ernest Renan P.I—18

(٢) راجع ص ٤٧ وما بعدها فى هذا الكتاب

قريب وغريب يقول الشعر كالحارث بن عباد ، وجحدر بن ضبيعة ، فمجموع شعرهم أشبه بالشعر التمثيلي ؛ لأن لكل حادثة شاعراً ينطق بها بخلاف نهج شعر الملاحم كالإلياذة ، إذ ترى هوميروس فيها ينطق بلسان الجميع .

كان هؤلاء الأبطال يعبرون عن شعورهم ، ولم يكونوا في حاجة إلى شاعر آخر يصف أمثالهم ، ويمجد مواقفهم ، ويتغنى بحروبهم ، أو يعبر عن عواطفهم ، لأنهم كانوا متمسكين أزمنة القول ، ولهم نفوس شاعرة أبت إلا أن تفصح عما يجيش فيها ، ولا شك أن هذا يدل على ارتقاء هؤلاء القوم ، وبلوغهم شأواً غير قليل في الأدب ، ويدل على أن يديهم أرقى من تلك البيئة الإغريقية أيام حروب طروادة .

وإذا وصف الأدب العربي عامة بأنه يعبر عن إحساس شخصي فهذه هي المرحلة التي انتقل إليها الأدب الأوروبي بعد أن طالت عبوديته للأدب اليوناني ، هي تلك المرحلة التي خطت إليها ألمانيا أولاً ثم فرنسا ، ثم سائر أوربا في أوائل القرن التاسع عشر ، وبها تطور الأدب الغربي ، وتمرد على الأدب (الكلاسيكي) التقليدي ، وعرفت بالحركة (الرومانتيكية Romantisme) الإبداعية . وأهم خصائص هذه الحركة الإبداعية وضوح الشخصية ، وانطلاق الأديب على سجيته يغرد كما يغرد الطائر الصداح فوق الفن ، يحب فيعبر عن إحساس قلبه ، ويأسى فيصف لواعج فؤاده .

ولقد وضع (الدكتور مارسيل برونشفيج) الفرق بين الأدب التقليدي والأدب الإبداعي بقوله : « لا يوجد لدى بعض أدباء المدرسة التقليدية أي أثر للشعر الغنائي كما لا يوجد أي أثر للشعور الخاص أو الطابع المستقل . وعلى العكس من ذلك الأدب الإبداعي - وهو مبني على انتصار الفردية (L'individualisme) فإنه جنح بطبيعته إلى النوع الغنائي (Lyrique) حيث تتضح موهبتان شخصيتان : الشعور والخيال ^(١) » ولم يعد هذا النوع من الأدب عيباً يذم الأوروبيون من أجله ، بل إنه الأدب

الذى ساد أوربا ، وقضى على الأدب التقليدى إلى غير رجعة . لقد كفرت أوربا بالأدب اليونانى وتنسكرت له ، كما كفرت بآلهة (الأولمب) ، واعتنقت المسيحية ، وفى هذا أبلغ الرد على هؤلاء الذين حاولوا الغض من العقلية العربية ، ورموها بعقم الخيال وضيق الأفق ؛ لأن الشعر العربى وليد التوحيد ، يعبر عن الإحساس الشخصى ويظهر فيه الشاعر بطابع مستقل ، ولأنه من النوع الغنائى ، وليس من النوع القصصى ومع هذا فقد شك كثير من علماء الغرب فى نظم هوميروس للإلياذة وكان أول هؤلاء العلماء كازوبون (Casaubon) الفرنسى أواخر القرن السادس عشر فإنه أنكر وجود هوميروس ، ثم أتى بعده (هيدلين) قس (أوبنيك) ^(١) ، وتبعه كثير من العلماء والباحثين فى فرنسا وإنجلترا .

ولكن أشهر من طعن فى الإلياذة ونسبتها إلى هوميروس هو (ولف) ^(٢) الألمانى ، وماكاد ينشر مقدمته على الشعر الهوميرى فى أخريات القرن الثامن عشر حتى فشا مذهبه فى ألمانيا ، وانتشر منها إلى أقطار أوربا ، فهدم أركان عظمة هوميروس من أسسها ، وعم القول بين جميع المشتغلين بأدب اليونان أن هوميروس إنما هو هوى ابن بى الإغريق ، راوية لم تلده أنثى ، وإنما ولدته قصائد الشعراء المندرسة أسماؤهم فى غوامض الغيب ، وأن ما ينسب إليه من المنظوم ليس إلا مجموع قصائد عنى بجمعها فى زمن (فيسديسترائس) فى القرن السادس قبل المسيح ^(٣) ،

وسواء كان هذا رأى صحيحاً أو غير صحيح ، فقد عرفت قيمة هذا النوع من الشعر القصصى ، وإنما عظمت أوربا فى بدء نهضتها ، لأنها كانت معدمة من الآداب ، فظلت عالة على الإغريق حتى شبت واشتد ساعدها وارتقت فى سلم الحضارة درجات ، فأهملت هذا النوع من الآداب ، ولجأت إلى الشعر الغنائى والآداب الإبداعى الذى حذقه العرب فى جاهليتهم .

(١) Hedlin Abbè d'aubignac 1604 - 1672

(٢) Wolf, 1757—1824

(٣) سليمان البستاني — مقدمة ترجمة الإلياذة ص ٤٨

على أن هناك شيئاً كثيراً يمكن أن يذكر في شأن الملاحم خاصة والقصص عامة
بيد أني لا أريد أن أفيض في شأنهما الآن ^(١) ، وحسبي ما ذكرت آنفاً بما له علاقة
قوية بموضوع بحثنا .

هذا وقد كثرت الحروب بين القبائل العربية في الجاهلية ، لتنازعها على البقاء في
هذه الصحراء المجردة ، القليلة الغيث . حتى صارت الغارات عادة لبعض القبائل ، ولبعض
الفرسان ، ولو لم توجد دواعيها ، وإذا لم يروا أمامهم مجالا لغزو غريب أو عدو
أغاروا على من يمتون إليهم بصلة النسب ولحمة القرابة ، ولقد قال القطامي ^(٢) — مع
أنه شاعر أموي — يعبر عن تلك الروح التي كانت سائدة بين سكان البادية ، والتي
لم يستطع الإسلام وسطوته وهدايته أن يهذبها من جموحها :

وَمَنْ تَكُنْ الحَضَارَةُ أَعْجَبَتْهُ فَأَيُّ رَجَالٍ بَادِيَةٍ تَرَانَا
وَمَنْ رَبطَ الجَحَاشَ فَإِنَّ فِينَا قَنًا سُلْبًا ، وَأَفْرَاسًا حَسَانًا ^(٣)
وَكُنَّ إِذَا أُغْرِنَ عَلَى جَنَابٍ وَأَعُوذُ هُنَّ نَهَبٌ حَيْثُ كَانَا ^(٤)
أُغْرِنَ مِنَ الضُّبَابِ عَلَى حُلُولٍ وَضَبَّةٌ إِنَّهُ مِنْ حَانَ حَانَا ^(٥)
وَأَحْيَانًا عَلَى بَكْرٍ أَخِينَا إِذَا مَا لَمْ نَجِدْ إِلَّا أَخَانَا

ومن القبائل التي كثرت حروبها ، واشتدت غاراتها أو اعتداءاتها على من جاورهم
(ذبيان) . وهم بنو ذبيان بن ريث بن غطفان . ومن ذبيان فزارة ، وكانت فزارة تقيم
بنجد ووادي القرى مع بقية بطون ذبيان ، ومن فزارة بنو مازن بن فزارة ، وبنو بدر

(١) إذا أردت المزيد من البحث في شأن القصة فارجع إلى كتاب (في الأدب الحديث ج ١) للمؤلف
(٢) القطامي : هو عمير بن شليم ؟ شاعر أموي مقل ، وكان نصرانيا تغلبيا ؟ وكان جيد الشعر
على الرغم من أنه كثير الغزل في النساء .

(٣) قنا سلبا : أي تسلب النفوس . (٤) وكن : أي الخيل أنزلها منزلة أربابها وهم المغيرون ؟

وأعوذهن : تعذر عليهم النهب وهو ما ينتهب ،

(٥) الضباب : تشمل القبائل الآتية : ضبة وضيب وحسل وحسيل فذلك سموها بالضباب .
والحلول : الذين يكونون في مكان واحد . ويقصد أنه إذا ضاقت السبل في وجوههم أغاروا على هؤلاء
وهم من أقاربهم — ومن حان حانا . أي من تعرض لغزونا فقد هلك .

ابن عدى بن فزارة . وكانت فى بنى بدر رياسة فزارة فى الجاهلية ، بل إنهم كانوا يرأسون جميع غطفان . ومن بنى بدر هؤلاء حذيفة بن بدر ، وحمل بن بدر ، وكان لهما شأن يذكر فى حرب داحس والغبراء كما سيأتى .

وكانت عبس وذبيان أولاد عم ينتمون إلى غطفان ، ويتجاورون فى البادية وينفر كل منهم لنصرة الآخر عند الغارة ، وقد كثرت حروبهما مع بنى عامر ^(١) وشهد النابغة الذبياني الذى عمر طويلاً كما سنذكر ذلك فى حياته هذه الحروب ، وسجل فى شعره بعض حوادثها .

فمن حروب غطفان مع بنى عامر (يوم النفراوات ^(٢)) ، وفيه قتل خالد بن جعفر ابن كلاب العامري زهير بن جذيمة سيد عبس ، وكانت هوازن تخضع لزهير ، وتقدم له الإتاوة كل عام فى سوق عكاظ ، وقد استبد بهم زهير ، ولم يرع لهم حرمة ؛ فنقموا عليه — حين كثر عددهم ، وقوى بأسهم — عنجهيته ، وفضاظة طبعه ، وأقسم خالد ابن جعفر ليقتلنه ، وقد بر بقسمه فى يوم النفراوات ، وفى ذلك يقول خالد بن جعفر يمين على هوازن بقتله زهيراً ^(٣) .

أبلغ هوازن كيف تكفر بعدما
أعتقتهم فتوالدوا أحراراً
وقتلتم زهيراً بعدما
جدع الأنوف وأكثرا الأوزار

وكان خالد هذا فى بعض غزواته السابقة قد أغار على رهط الحارث بن ظالم المري الذبياني ، وأسرف فى القتل فأهلك الرجال ، وبقيت النساء ومعهم الحارث يومذاك صغير فى واد يقال له حراض ، ويقال إن أباه ظالماً قتل فى ذيتاك اليوم . ثم جاء قتل

(١) هم بنو عامر بن صعصعة : بطن من هوازن

(٢) ذكر صاحب الأغاني (النفراوات) بالفاء ؛ وذكرها صاحب العقد بالقاف ؛ وذكر البكري فى معجم ما استعجم هذا الاسم بالفاء وقال : نفري بفتح أوله وإسكان ثانيه بعده راء مهملة مقصور على وزن فعلى وبعد : موضع ببلاد غطفان .

(٣) راجع أخبار هذا اليوم فى أيام العرب ص ٢٣٥ ، وفى العقد الفريد ح ٣ ص ٣٠٤ ؛ وفى الأغاني ح ١٠ ص ١٠ ؛ وفى بلوغ الأرب ح ١ ص ١١٨ وما بعدها .

زهير بن جذيمة سيد غطفان ، فنشأ الحارث بن ظالم على بغض خالد ، واستحق خالد ابن جعفر عداوة غطفان كلها .

ودارت الأيام دورتها ، وصار الحارث بن ظالم فارساً مُعَلِّماً ، قوى المُتَمَنِّة ، شديد الوطأة على الأعداء ، عظيم المنزلة في قومه . ثم حدث أن اجتمع هو وخالد العامري في بلاط الحيرة ^(١) ، ورأى خالد الملك مقبلاً على الحارث فحسده ، وأخذ يتهم به ، وأنه هو الذي جعله سيد قومه بني غطفان بقتله زهيراً ، وأنه يستحق شكره ، وذكره بما فعله في قومه قديماً ، وتركه يتيماً في حجور النساء ؛ فأوغر صدره ، وأجابه الحارث بأنه سيشكره على يده تلك ، ثم قتله من ليلته وهو بجوار الملك وفرّ إلى قومه فأبوا أن يحموه ، فلجأ إلى بني تميم . وقد استنكر ذلك قيس بن زهير العبسي ؛ إذ أخذ له بثأر أبيه وأرسل إليه يقول :

جزاك الله خيراً من خليل شفى من ذى تبولته الخليل
أرحت به جوى ودخيل حزن تمخخ أعظمى زمناً طويلاً
ثم أغارت بنو عامر على تميم ^(٢) ، لأنها أجارت الحارث بن ظالم وكان بينهما يوم الرحران ^(٣) ، وفيه انتصرت عامر على تميم ، وإن لم تنل شيئاً من الحارث ابن ظالم ، لأنه أبعد عن تميم قبل المعركة . وبقي وتر عامر لديه ولدى قومه بني ذبيان .

(١) تختلف الروايات في اسم الملك الذي اجتمعوا لديه ، فصاحب الأغاني يرى أنه النعمان بن المنذر الثاني ٤٨٢ — ٤٨٩ م وصاحب العقد يرى أنه الأسود بن المنذر الأول (٤٦٢ — ٤٨٢ م) ، وابن الأثير يذكر أنه النعمان بن امرئ القيس (٤١٨ م) .
ولكن دى برسفال يرى أن زهيراً قتل في سنة ٥٦٧ م وأن حرب داحس والغبراء ابتدأت في سنة ٥٦٨ م ، فيكون اجتماع الحارث وخالد على رأيه في عهد عمرو بن هند ٥٥٤ — ٥٧٣ م وهو الرأي الراجح لبعده المدة بين هذه الحادثة ومقتل زهير وابتداء حرب داحس والغبراء

راجع Essai sur l'histoire des Arabes. P 474

(٢) كان بنو تميم يقيمون في القسم الشمالى الشرقى من نجد بين صحراء الشام ووادي اليمامة ، وكان بنو عامر يقيمون في السهول التي تقع بين نجد وتهامة — راجع دى برسفال ج ٢ ص ٤٦١
(٣) راجع أيام العرب ص ٣٤٤ ، وابن الأثير ج ١ ص ٣٤١ ، والعقد الفريد ج ٣ ص ٣٦٠ والنقائض ج ١ ص ٢١٤ ، والأغاني ج ١٠ ص ٣٠ ، ومعجم البلدان (رحران)

هزب داحس والغبراء :

ثم اشتعلت نار الحرب بين عبس وذيبيان ، وكلاهما من غطفان ، وبذلك صارت
ذيبيان عدواً لعبس ولعامر على السواء ، فتحالفت ذيبيان مع تميم ، ومع بني أسد ،
واستمرت الحرب بين عبس وبين ذيبيان وحلفائها أربعين سنة ، وهى الحرب المعروفة
باسم « داحس والغبراء » ،

وقد رويت أخبار هذه الحرب بروايات مختلفة ، وتباينت الأسباب التى دعت
إليها ^(١) ، ونحن نستخلص من تلك الروايات : أن قيس بن زهير كان يسعى فى أخذ
ثأره من بني عامر بعد أن قتلوا أباه زهيراً ، وأنه ذهب إلى المدينة ليشتري أسلحة ودروعاً
من أحيحة بن الجلاح سيد الأوس ، واشترى منه درعاً تسمى ذات الحواشى أو ذات
الفضول ، وأدرعة أخرى سواها ، وتمرّ فى طريق عودته بالربيع بن زياد العبسى
يستعينه على أخذ ثأره ، وكان يومئذ سيداً فى قومه وعرض عليه قيس عدته وسلاحه ،
فاغتصب منه درعه ذات الحواشى ، وأبى أن يعيدها إليه ، فأسرّها قيس فى نفسه ،
وانتهز غرة الربيع حتى ينتقم منه .

وحدث أن إبل الربيع كانت فى مرعى كثير الكلاب فأغار عليها قيس وساقها إلى مكة
فباعها من عبد الله بن جندعان القرشى ، واشترى بها خيلاً ، وتبعه الربيع فلم يلحقه ،
وكان فيما اشتراه من الخيل داحس ^(٢)

وخشى قيس تتبع الربيع بن زياد له . فأقام مدة بمكة ، ثم ملّ أهلها وملوه لسكرة
نفره ، واعتداده بنفسه ، فلحق ببني بدر بن فزارة ، وأجاره حذيفة بن بدر وأخوه
سمّل بن بدر ، وغضب لذلك الربيع بن زياد واسكنّ بني بدر لم يأبهوا لغضبه ، وظل
قيس بينهم هو وعشيرته ينعمون بمودتهم وجوارهم ، إلى أن تراهن رجل ^(٣) من عبس

(١) راجع شعراء النصرانية ص ٩١٧ ، والعقد الفريد ج ٣ ص ٣١٣ ، وابن الأثير ج ١ ص ٣٤٣
والنقائض ص ٨٣ ، والأغانى ج ٨ ص ٢٤٠ ، وأيام العرب ص ٢٤٦

(٢) بعض الروايات تقول إن داحس والغبراء كانا ملكا لقيس ولكن أكثر الروايات تقول :
إن داحس لقيس والغبراء لجل بن بدر الفزارى ، وأن الرهان كان بين داحس والغبراء

(٣) قيل هو الورد أبو عروة بن الورد ، وقيل اسمه قرواش

مع حذيفة بن بدر في غيبة قيس ، وكان الرهان بين داحس جواد قيس ، وبين الغبراء فرس حمل بن بدر ، فلما بلغ قيساً النبأ أبي أن يمضي الرهان لأنه سيجلب شراً هو في غنى عنه ، ولسكنه حمل عليه حملاً .

وكانت الغاية مائة غلوة ^(١) ، والمضمار ^(٢) أربعين ليلة ، والمجرى من ذات الإصاد ، والرهان على عشرين من الإبل ، فلما جرت الخيل ، سبق داحس سبقاً بيناً ، ورأى حذيفة أنه سيجوز السبق ، وكان قد أعد له كميناً فإن جاء سابقاً ردوه عن وجهه ، فلما رأى السكينة داحساً جاء مجلياً لطموه على وجهه ، فسبقت الغبراء . واختلاف قيس وحذيفة ، وادعى كل منهما أن له الحق في أخذ الرهان ، ورأى قيس أن بني بدر قد ظلموه حقه ، وأنهم استضعفوه لأنه كان نازلاً بهم محتمياً بجوارهم ، ففارقهم هو ومن معه من بني عبس .

ولكن حذيفة اشتط في ظلمه ، وأرسل أحد أولاده يطالب قيساً بالسبق فلم يصادفه فقالت له امرأته : ما أحب أنك صادفت قيساً فرجع إلى أبيه فأخبره بما قالت ، فرده ثانية إلى قيس يطالبه بالسبق ، فقتله قيس ، وعادت فرسه إلى أبيه عائرة ، ونادى قيس يدعو قومه للرحيل . ولما علم حذيفة أن ولده قد قتل ركب في قومه إلى منازل قيس وقومه فرأهم قد رحلوا ، ورأى ابنه قتيلاً فواراه التراب ، واحتمل الناس ديتة مائة من الأبل ، وهدأت النفوس قليلاً .

وكان مالك بن زهير أخو قيس مقيماً في بني فزارة ، وقد أرسل إليه قيس يحذره غدرهم بعد أن قتل ابن حذيفة بن بدر الفزاري بقوله :

أمالك لا تأمن فزارة واخشها فإنك إن تأمن فزارة هالك
ولسكن مالكار عليه بقوله :

يا قيسُ حسبك ما أتيت خفائي وبني فزاره إنني متماسك
أترى حذيفة أخذى بجريرة لم تجنبها كفى ، وأنت الفاتك ؟

بيد أن حذيفة أخذ مالكا بجريرة قيس ، وأرسل إليه كوكبة من الفرسان قتلوه على غرة منه . فعظم مقتله على عبس كلها ، وقال قيس يحرض الربيع بن زياد على الأخذ بالشار :

أينجو بنو بدر بمقتل مالك ويخذلنا في النائبات ربيع
وكان زياد قبـله يُتقى به من الدهر إن يوم ألم فظيع
فقل لربيع يحذى فعل شيخه وما الناس إلا حافظ ومضيع
وإلا فإلى في البلاد إقامة وأمر بني بدر على جميع
فلبى الربيع نداه وقال :

فإن تك حربكم أمست عواناً فإني لم أكن ممن جناها
ولسكن ولد سودة أرثوها وحشوا نارها لمن اصطلاها
فإني غير خاذلكم ولكن سأسعى الآن إذ بلغت مداها^(١)

وبذلك اتحدت بنو عبس ، واستعدوا لقتال بني ذبيان والتقى الجمعان ، واقتتلوا قتالا عنيفاً في يوم (المريقب) ، وقتل من بني ذبيان عوف بن بدر ، وقتل عنزة ضمضم^(٢) أبا الحصين المري ، والحارث بن بدر ، وأسر الربيع بن زياد حذيفة بن بدر ، وأراد أحد بني عبس قتله ، ولكن تجمع الرجال عليه فلم يصنع السيف به شيئاً ، وانتهت هذه المعركة بالصلح ، ودفعت ديات القتلى ، وأخذ حذيفة ما تئمن من الأبل في مقابل الضربة التي ضربها
ولسكن هذا الصلح لم يدم طويلاً ؛ إذ أن مالك بن بدر خرج يطلب إبلا له فرماه أحد بني عبس بسهم فقتله ، ونشبت الحرب بين القبيلتين مرة أخرى ، ودارت الدائرة

(١) تنسب هذه الأبيات إلى عنزة بن شداد العبسي راجع شعراء النصرانية ص ٧٩٩

(٢) وفي ذلك يقول عنزة .

ولقد خشيت بأن أموت ولم تدر للحرب دائرة على ابني ضمضم
الشاعى عرضي ولم أشتبهما والناذرين إذا لم القهما دمي
إن يفعلوا فلقد تركت أباهما جزر السباع وكل نسر قشعم

على عبس في (ذى حسي) ، واتبعتهم ذبيان ، فرضى بنو عبس أن يودعوا لديهم رهائن من أولادهم ، حتى يتبين وجه الحق في أسباب العداوة ، ومن المعتدى ومن المظلوم ، وأودعت الرهائن عند سبيع بن عمرو (من بنى ثعلبة بن زيد بن ذبيان) ولكن ما لبث سبيع أن مات ، وفرط ابنه مالك في الودائع وأسلبها إلى حذيفة بن بدر في اليعمرية ^(١) ، وأحضر أهل الذين قتلوا من ذبيان ، وجعل كل يوم يبرز غلاماً فينصبه غرضاً ، ويرميه بالنبل ، ويقول : ناد أباك ، فينادى أباه مستغيثاً ، ولا مغيث حتى يمزقه النبل .

فامتلات قلوب بنى عبس على إثر ذلك إحنا ، وحقداً ، وراحوا يعدون العدة للانتقام ، وخرج قيس بن زهير في جماعة ، فلقوا ابناً لحذيفة ، ومعه فوارس من ذبيان فقتلوهم ، فجمع حذيفة قومه ، وسار إلى بنى عبس ، وهم على ماء يقال له : عُراعر فاقتلوا ، وكان الظفر لبنى ذبيان في ذلك اليوم .

وجد حذيفة في الحرب ، وكرها أخوه حمل بن بدر ، وندم على ما كان من قتل الغلمان ، ولكن حذيفة مضى لطيته يحشد جموع ذبيان وحلفائها بنى أسد وسار نحو بنى عبس ؛ بيد أن هؤلاء تحاشوا هذا اللقاء ، ورأوا أن لا قبل لهم بهذه الجموع ، وخدعهم قيس - وكان يسمى قيس الرأى لجودة أحكامه ، وصواب رأيه - وأمر قومه أن يسرحوا المال ^(٢) بالليل ، ويأخذوا غير طريق المال ، فلما وصل بنو ذبيان وحلفاؤهم منازل عبس وجدوهم قد رحلوا ، فتبعوا أثر المال ، وردوا أوله على آخره ، ولم يتركوا منه شيئاً ، ومن ثم هاجمتهم عبس ، وهم في شغل بهذه الغنائم العظيمة ، وكانوا حريصين عليها ، فلم يقفوا لقتال عبس ، بل كان هم كل واحد من بنى ذبيان أن ينجو بما أصاب من مال ، ولكن لم تدعهم سيوف عبس يهناون بما أحرزوا ، فقتلوا منهم خلقاً كثيراً حتى نأشدهم ذبيان البقية ، وانهزمت ذبيان وحذيفة معهم .

(١) اليعمرية : ماء بواد من بطن نخلة بالشربة

(٢) المال : الإبل

ولم يكن لعيس هم غير حذيفة ، فهو مبعث الشر ، ومصدر العدوان والظلم ، فتبعه
قيس بن زهير والربيع بن زياد ، وشداد بن معاوية أبو عترة وبعض الفرسان ،
وفاجئوه يستبدر في جفر الهبابة ^(١) حين اشتد الحر ، ومعه حمل بن بدر وجماعة من
أصحابه ، وحال فرسان عيس بينهم وبين الخيل ، وقتلوا حذيفة وحمل بن بدر ،
واستبقوا حصن بن حذيفة لصباه .

ولما رأى قيس حذيفة بن بدر وأخاه مقتولين ، حز في نفسه ذلك وقال يرثي
حذيفة بأبياته المشهورة التي تقدم ذكرها ، والتي يقول في أولها :

تعلم أن خير الناس ميتٌ على جعفر الهبابة لا يريم
ولولا ظلمه ما زلت أبكى عليه الدهر ما طلع النجوم

وهو أول من رثي قتيله ؛ وذلك لما كان بينهما من مودة وقربة ، وقال أيضاً
في ذلك .

شفيت النفس من حمل بن بدر وسيفي من حذيفة قد شفاني
شفيت بقتلهم لغيل صدرى ولكني قطعت بهم بناني

وجدت ذبيان في أخذ ثارها ، وحشدت حشداً عظيماً من أبناء القبيلة وحلفائها
بنى أسد ، وعزموا ألا يتعرضوا للأموال فيشغلوا بها كما شغلوا يوم الهبابة ، فيكون
في ذلك هلاكهم ، وعلم قيس بن زهير بمسيرهم ، فأرسل الظعائن والأموال إلى بنى
عامر — على الرغم من أنهم أعداؤه الذين قتلوا أباه — ولكنهم كانوا كذلك أعداء
ذبيان ؛ لأن الحارث بن ظالم المري الذيباني كان قد قتل خالد بن جعفر الكلابي العامري
كما مرَّ بنا . وظل أولو الجلود والقوة من بنى عيس ينتظرون بنى ذبيان والتقى الجمعان ،
واحتدمت الحرب بينهما ، وهلك خلق كثير ، وظلت المعركة ثلاثة أيام حتى ملَّ بنو
ذبيان الحرب ، فارتحلوا عن عيس . وفي هذه المعارك أبلى عترة بن شداد بلاءً حسناً

(١) الهبابة : مستنقع في بلاد غطفان .

في الدفاع عن قومه — وتعرف هذه المعارك — بذات الجراجر .

وعلمت عبس أن ذبيان ستعاود الكرة عليهم ، وأن الحروب بينهم لن تخدم نارها ، أو يخف أوارها فرحلت عبس كلها إلى بني شيبان ، تاركة ديار غطفان . ولكن مقامهم بين بني شيبان لم يكن حميداً ، إذ رأوا منهم ما يغض من أنفقتهم وعزتهم وأنهم كثيراً ما يتعرضون لأخذ أموالهم ، فرحلوا عنهم إلى اليمامة يطلبون أخوالهم فأتوا قتادة بن مسلبة ، ونزلوا بها زمناً ، ولسكنهم ما لبثوا أن ارتحلوا إلى بني سعد ابن زيد مناة فمكثوا بينهم مدة . ثم إن بني سعد أتوا ملك تميم يحرضونه على غزو عبس وأن يأخذهم على غرة ، وهم بين ظهرانهم ، يعينونه عليهم ، بيد أن بني عبس تنهبوا إلى هذه المكيدة ، فساورا بالليل تاركين في منازلهم ناراً عظيمة يخدعون بها أعداءهم ، فلما هجم عليهم جنود الملك مع بني سعد في الصباح وجدوا المنازل خلاء فجذوا في أثرهم حتى أدركوهم بالفروق ، فقاتلوهم وردهم بنو عبس على أعقابهم ، وفي ذلك يقول عنترة :

ونحن منعنا بالفروق نساءنا نظرف عنها مُمسِلات غواشيا^(١)
ونحفظ عوارث النساء وتبقى عليهن أن يلقين يوماً مخازياً

ولحقوا ببني ضبة ، فكانوا فيهم زماناً ؛ ثم حدث بينهم وبين ضبة نزاع ففارقوهم وأرادوا الذهاب إلى الشام ، فسمعت بذلك بنو عامر فخافوا انقطاعهم من قيس ، ودعوهم إلى أن يرجعوا ويحالفوهم ، فلبوا دعوتهم ، ولم يشأ قيس أن يكون في رهط خالد بن جعفر السكابي ؛ لأن بينه وبين هذا الرهط وتراً ، منذ قتل زهير فخالفوا معاوية بن شكل ، وجاورا بني شكل مدة ، وهم يرون من قيس بن زهير أثره وسوء جوار ، فعاملوه وقومه بالجفاء ، وفي ذلك يقول النابغة شامتاً ببني عبس :

لما الله عبساً عبس آل بغيض كاحي الكلاب العاديات وقد فعل
فأصبحتم والله يفعل ذاكم يعزكم مولى موالكم شكل

(١) التطريف : أن يرد الرجل عن أخريات أصحابه . وأبسل نفسه للموت : وطن نفسه عليه .

وظلوا في بني عامر إلى أن أغارت عليهم ذبيان ، وتميم ، وأسد ، والجون السكبي صاحب حجر ، وجنود النعمان بن المنذر ، وجمعوا لهم جموعاً عظيمة لا قبل لهم بها ، ألها عليهم لقيط بن زرارعة من بني تميم ليأخذ بثأره في يوم الرحر حان كما مر . وأخذت عامر وعبس يدبرون أمرهم فأشار عليهم قيس بن زهير بإحدى دواهيته في مكاييد الحروب ، وذلك أنه أمر بإدخال النساء والذراري في شعب جبلة ، وإظهار الإبل ، ومنعها من الرعي ، حتى إذا جاءت هذه الجموع الزاخرة ، ودخلت عليهم فم الشعب أطلقت الإبل من عقمها ، وأخذ الرجال بأذنانها ، فإنها تحن إلى مواردها فتتحد من الجبل فتحطم كل شيء ، والرجال معها ، والفرسان من ورائهم ، فلما اقتحم لقيط بن زرارعة عليهم فم الشعب فعلوا ما أشار به قيس فكانت هزيمة هذه الجموع ، وقتل لقيط ، وأسر أخوه حاجب ، وقتل معاوية بن الجون السكبي ، وفي ذلك تقول دُخْتَنُوسُ ترثي أباها لقيطاً :

بَكَرَ النَّعْيُ بِخَيْرِ خَنْدَفٍ كَهْلِهَا وَشَبَابِهَا
وَبَخِيرَهَا نَسَباً إِذَا ضُمَّتْ إِلَى أَنْسَابِهَا
وَأَضْرَهَا لَعْدُوهَا وَأَفْكَهَا لِرَقَابِهَا

ولكن ذبيان أبت أن تقر بالهزيمة ، فأغارت على بني عامر وفيهم عبس في يوم شعواء ، فاقتتلوا وهزمت عامر ، وأخيراً رحلت عبس عن ديار بني عامر ونزلت بتميم الرباب فبغت تميم عليهم بعد قليل من الزمن ، فاقتتلوا ، ولكن حروب عبس قد أفنت كثيراً من رجالهم ، فتكاثر تميم عليهم وقتلوا منهم مقتلة عظيمة .

فقال لهم قيس : ارجعوا إلى إخوانكم من ذبيان ، فالموت معهم خير من البقاء مع غيرهم ، فقالوا : سر معنا ، فقال : لا والله ، لا نظرت في وجهي ذبياناً قتلت أباها أو أخاها أو زوجها ، أو ولدها ، ثم خرج على وجهه .

وجاء وفد عبس إلى ديار ذبيان ، ونزلوا على الحارث بن عوف المري الذبياني ،

وذكروا له ما جاءوا من أجله ، فسعى هو وهرم بن سنان المرى في الصلح بينهم وبين إخوانهم من ذبيان وتحملا ديات القتلى وقد بلغت ثلاثة آلاف بعير ، وفي ذلك يقول زهير بن أبي سلمى مادحاً سعيهما هذا :

سعى ساعياً غيظ بن مرة بعد ما تبزل ما بين العشيرة بالدم
فأقسمت بالبيت الذى طاف حوله رجال بنوه من قرش وجرهم
يميناً لنعم السيدان وجدتما على كل حال من سحيل ومبرم^(١)

وبذلك انتهت هذه الحرب الضروس التى مكثت أربعين سنة من سنة ٥٦٨ م إلى سنة ٦٠٨ م^(٢) ، أى بعد وفاة النابغة بقليل ، وقد شردت فيها بنو عبس وطوفت فى شتى أنحاء الجزيرة العربية ، وقتل من الفريقين خلق كثير ، وقد شهد النابغة الذبياني كل وقائعها ، وكان حريصاً كل الحرص على أن يظل بنو أسد حلفاء لقومه فى هذه الحروب الطويلة ، وله فيهم مدائح مستفيضة . كما كان يرد مكيد بنى عامر أعداء قومه ، ويقوم بكل ما تتطلبه القبيلة من شاعرها الفحل : يرثى قتلاها ، ويمدح فرسانها ، ويشجع حلفاءها ، وبذم أعداءها ؛ وسنرى أن هذه الحروب قد شغلت جزءاً كبيراً من شعر النابغة الذبياني وسترد فيه أسماء المواقع والأمكنة والأشخاص الذين مرّ ذكرهم ، ولذلك حرصنا على أن نورد موجزاً وافياً لهذه الحرب التى كان لها أثر كبير فى حياة الشاعر .

غارات ذبيان وملفأرها على الغساسنة :

وكان لبني ذبيان حروب أخرى فى ميدان غير ميدان داحس والغبراء ، وذلك أن الصحراء كانت تشح عليهم فى بعض السنين ، وتقل المراعى ، ويشتد القحط ، ويدفعهم

(١) السيدان : الحارث بن عوف ؛ وهرم بن سنان ؛ وكلاهما من ذبيان ؛ وسحيل : الخيط المقتول على قوة واحدة ؛ والمبرم : المقتول على قوتين ؛ والمعنى : لنعم السيدان وجدتما حين تفاجئنا لأمر قد أبرمناه وأمر لم تبرمناه

(٢) راجع de Perceval. Essai sur l'histoire des Arabes. P. 474

وراجع ديرنبورج ديوان النابغة ص ٢١٥

حب البقاء إلى البحث عن مواضع العشب والسكر، وإلى السعي وراء ما يسد الخلة ،
ويبقى الرmq ، ولذلك كانوا كثيراً ما يغيرون على أطراف بلاد غسان يسوقون نعمهم
أو يرعون كلاًهم ، وكان الغساسنة يرسلون لهم من يؤدبهم وينكل بهم حتى لا يعودوا ،
وهيهات ! ، فإن الحاجة هي التي تدفعهم في هذه السبيل ولذلك لم يقلعوا عن غاراتهم
حين يحز بهم الأمر ، ويشتد بهم القحط .

وفي كل مرة تدور المعارك بينهم وبين الغساسنة ، فأنا ينتصرون ، وأنا ينهزمون
وكان حلفاؤهم من بني أسد يغيرون معهم ، ويشتركون في كل حروبهم ، وكثيراً ما
يأخذ الغساسنة أسرى من ذبيان ومن أسد .

وهنا نرى النابغة يتوسط لقومه ، ويتشفع لدى الغساسنة وكان أثيراً عندهم مر موق
المكانة ، له دالة ومنزلة عظيمة ، فتجابه شفاعته ، ويطلق الغساسنة الأسرى إكراماً له .

وكان بنو أسد كذلك يناصرون ملوك الحيرة في حروبهم مع الغساسنة ، فإذا وقع
منهم في أسر غسان عدد ، هب النابغة يدافع عنهم ، ويتشفع ، ولم يكن ترد له شفاعته
وكان هذا يطلق لسانه في مدح آل غسان ، وقوادهم . ونراه أحياناً يثبط الغساسنة عن
غزو قومه أو حلفائهم بعد غارات ذبيان عليهم ، ويحذرهم المخاطرة بجيوشهم في الصحراء
وقتل قوم أشداء أولى بأس وخبرة بالحرب ، وأحياناً يحذر قومه عاقبة البغي والعدوان
وما أعده لهم الغساسنة من عدة إن هم تجرءوا على مناوشتهم ، وتخطف أطراف دولتهم .

ولقد سجل شعره كثيراً من هذه الأحداث ، وتمثل فيه النابغة رفيع المكانة ،
مقبول الشفاعته ، مدافعاً عن قومه وعن أصدقائه ، غير مقصر في حقوقهم ، على الرغم
من أنهم كانوا يحسدونه هذه المكانة ، ولا يتورعون عن إيذاء رهطه بني يربوع بن مرة
نما جعله يعاتبهم عتاباً مرأ ، ويذكرهم بأياديهم البيضاء عليهم .

الحيرة وغسان :

اتصل النابغة الذبياني ببلاطى الحيرة وغسان ، وكان لهذا الاتصال أثر كبير في شعره سواء من ناحية الأغراض التي خاض فيها ، أو من ناحية المعاني التي طرقها . ولزام علينا أن نعرض في كلمة موجزة شيئاً من سيرة ملوك الحيرة وغسان ، ولا سيما هؤلاء الذين مدحهم النابغة .

أما الحيرة فيرجع تأسيسها إلى سنة ٢٢٨ م حين رأى ملوك الدولة الساسانية بعد أن وُحدوا تحت إمرتهم دويلات فارس ، أن الصحراء تقلق راحتهم ، وأن البدو يغيرون على أطراف مملكتهم ، ولا يحمي هذا الجانب من أرضهم ، ويتصدى هؤلاء البدو المغيرين — الذين كثيراً ما يلوذون بالصحراء يعتصمون بها ، ولا قبل للفرس بتتبعهم في هذه الفيافي الشاسعة المضلة — إلا عرب مثلهم لهم خبرة بالصحراء ، وبأخلاق أهل البادية وعاداتهم وطرقهم في القتال ، فأسسوا دولة الحيرة ترأسها أسرة عربية لتسكون حاجزاً يقيهم شرور الفلاة وقطعانها .

وتقع الحيرة على بعد ثلاثة أميال من الكوفة ، بالقرب من أنقاض بابل القديمة وكان سكانها ثلاثة أنواع : (١) تنوخ ، والأشهر أنهم من عرب اليمن الذين نزحوا شمالاً بعد تصدع سد مأرب ، وهم من قبيلة قضاة والأزد ولخم ، ويرى بعض المستشرقين أنهم عرب عدنانيون ؛ لأن لغتهم قريبة من العدنانية ، ولأن عاداتهم ، وأسماءهم ، وأوثانهم تشبه تلك التي لعرب الشمال ؛ بيد أن هذه أدلة لا تقوم على أساس متين ، فاللغة العدنانية كانت سائدة في شمال الجزيرة ، وقد تلاشت في ذلك العهد الذي أسست فيه دولة الحيرة الفروق بين لغة اليمنيين الذين نزحوا إلى الشمال في أواخر القرن الثاني قبل الميلاد ، وبين لغة العرب العدنانيين الذين اختلطوا بهم ، وجاوروهم هذه المدة الطويلة وأخذوا عنهم عاداتهم وطرق معيشتهم . وسموا (تنوخ) لأنهم آثروا الإقامة في هذا

المسكان على الرحلة والتجوال ، من تنوّخ في المسكان أى أقام به .

٢ - العباد : وهم سكان البلاد الأصليون الذين وفدت عليهم قبائل اليمن ، وأقاموا معهم ، وأغلب الظن أنهم كانوا عرباً كذلك . وقد كان العباد نصارى على المذهب النسطورى وأغلبهم يحترف الصناعات المختلفة ، ومنهم عدى بن زيد العبادى ، وكانت ثقافتهم أعلى من ثقافة سكان الحيرة ، ومنهم من يعرف الفارسية والآرامية والعربية ، وكان عدى بن زيد ووالده من قبله وابنه من بعده يعملون في بلاط الأكاسرة ، يترجمون إلى العربية والفارسية .

٣ - الأحلاف : وهؤلاء خليط من القبائل العربية التى مَلَّت عيشة الصحراء ، والحرب والرحلة ، ولجأت إلى هذا المسكان لخصبه ، وتحالفوا مع العباد ، فسموا كذلك ويصحب تأسيس الحيرة شئ من الغموض ، وقد حيكت الأساطير حول جذيمة الأبرش وعمرو بن عدى ابن أخته ، وله قصة مع الزباء ملكة تدمر مشهورة في كتب الأدب ، ولكنها لا تصل إلى مرتبة التاريخ المحقق . وعمرو بن عدى هذا هو أول الملوك اللخمين ، أما جذيمة فكان من قضاة .

ولكنه قد عثر أخيراً على قبر امرئ القيس بن عمرو بن عدى ملك الحيرة ، وعليه نقش بالخط النبطى ، وفيه كثير من الكلمات العربية المختلطة بالآرامية ، ويرجع تاريخه إلى ٢٢٨ م ويعرف هذا النقش بنقش (نمارة) ^(١) وقد جاء فيه ما ترجمته :

هذا قبر امرئ القيس بن عمرو ملك العرب كلهم ، الذى تقلد التاج ، وأخضع قبيلتى أسد ونزار وملوكهم ، وهزم مذحج إلى اليوم ، وقاد الظفر إلى أسوار نجران مدينة شمر ، وأخضع معداً ، واستعمل بنيه على القبائل ، وأناهم عنه لدى الفرس والروم ،

(١) اسم لقصر صغير للروم ، وهو في الحرة الشرقية من جبل الدروز بالقرب من دمشق . راجع

بروكلمان الفقرة ٢٣ . Sem. Spr. Ch. I. وراجع تاريخ اللغات السامية لإسرائيل وفغنسون ص ١٩٠

فلم يبلغ ملك مبلغه إلى اليوم . توفي سنة ^(١) ٢٢٣ في يوم ١٧ أيلول (سبتمبر) ، وفق بنوه للسعادة .

ولسنا نعرف أول ملك من ملوك الحيرة اتصل به النابغة الذبياني ، وإن كان يروى أنه اتصل بالمنذر بن ماء السماء ^(٢) (٥٠٥ — ٥٥٤ م) ، بيد أن شعره ليس فيه ما يدل على هذا الاتصال . والمنذر هذا كان من أشهر ملوك الحيرة ، وقد نافسه لدى الفرس الحارث بن عمرو السكندی ، وتقرب من قباذ ملك الفرس ، وساعده على ذلك أن المنذر رفض اعتناق مذهب (مزدك) ، الذي كان يدعو إلى إباحة النساء والأموال ، وأن تكون مشتركة بين الجميع ، حتى لا يوجد ما يدعو إلى التنافس والخصام بين الناس وقد استطاع الحارث السكندی أن يطرد المنذر من الحيرة بمساعدة قبباز ، بيد أن أيام قبباز كانت قصيرة ، ولما تولى كسرى أنو شروان العرش — وكان قد تمسكن من قتل مزدك وهو بعد ولي للعهد — اضطهد أنصار هذا المذهب الإباحي حتى طهر منهم بلاد فارس ، وأعاد المنذر الثالث إلى عرش الحيرة ، فتبع الحارث السكندی إلى الأنبار فأفلت منه ، ولسكنه أسر من قومه ومن عاونوهم جماعة ، وفيهم مالك وعمرو ابنا الحارث . وكان أمرؤ القيس الشاعر من بين هؤلاء الأسرى ، ولسكنه استطاع النجاة وقد قال في هذه الحادثة التي أسر فيها قومه وقتلوا .

ملوك من بني عمرو بن حجر يساقون العشية يقتلوننا
فلو في يوم معركة أصيبوا ولكن في ديار بني مرينا
ولم تغسل جماجمهم بغسل ولكن في الدماء ممرمـلينا
وقد غزا المنذر بلاد الروم بتحريض من كسرى ، إذ كانت العداوة على أشدها

(١) كان أهل الشام وهوران يؤرخون بالتقويم البصري (نسبة إلى بصرى عاصمة حوران) ؛ وهو يبدأ بدخولها في حوزة الروم سنة ١٠٥ للميلاد ، فإذا أضيفت إلى ٢٢٣ كان المجموع ٣٢٨ للميلاد وهي السنة التي توفي فيها هذا الملك .

راجع تاريخ الآداب العربية ج ١ ص ٢٦ لجورجي زيدان
(٢) وهو المنذر الثالث ابن امرئ القيس الثالث ابن الأسود بن المنذر الأول

بين الدولتين ، وتمكن من اجتياح بلاد الشام حتى وصل إلى أنطاكية ، ورأى الإمبراطور جستنيان الروماني أن يستعين بالحارث بن جبلة الغساني لصد عدوان المنذر ومن ثم ابتدأت سلسلة من الحروب بين هذين الأميرين العربيين كان مدارها النزاع على القبائل المجاورة للطريق الحربي من دمشق إلى ما بعد تدمر ، وكان كل يدعى السيطرة عليها ، وفي أحد هذه الحروب أسر المنذر ابناً للحارث ثم ذبحه في الحال تقريباً إلى الآلهة العزى ^(٢) ، ويقال إنه ضحى بأربعمائة مسيحي في إحدى معاركه لهذه الآلهة. وقد قتل المنذر في يوم (حليلة) ^(٣) بمقاطعة قنسرين ، على الطريق بين حلب والرقعة سنة ٥٥٤ م

والمنذر الثالث هذا هو صاحب يومى البؤس والنعيم ، وقد ذهب ضحية يوم بؤسه كثير من الناس ، ومنهم عبيد بن الأبرص الشاعر ، وهو صاحب الغريين ^(٤) وثمة قصص كثيرة تروى حول يومى البؤس والنعيم والغريين تغص بها كتب الأدب العربي .

وإذا كان ديوان النابغة لا يدلنا على اتصاله بالمنذر الثالث ، فإن فيه ما يثبت أنه هنا عمرو بن هند حين توليه عرش الحيرة بقصيدة طويلة — من صحيح شعره الذى رواه الأصمعى ، مطلعها :

أتاركة تدلها قطام وضنا بالتحية والكلام
ولكن يظهر أن ابن هند لم يأبه لمدح النابغة له ؛ لأننا لا نرى في الديوان غير هذه القصيدة متعلقة بعمرو بن هند ، مما يدل على أن الشاعر لم يجد منه قبولا فأنصرف عنه . ثم إن الشاعر شغل في هذه الفترة بحروب ذبيان مع الغساسنة ، وقتالهم مع عبس في حرب داحس والغبراء

(١) راجع Huart. Histoire des Arabes P. 67

(٢) سنعود إلى ذكر يوم حليلة عند الكلام على الحارث الغساني

(٣) صومعتان بناهما على صديقين كان قتلها في سكره فلما أفاق ندم على ما فعل ؛ وبني هاتين

الصومعتين لذكراهما ، وجعل لهما يوم نعيم ، ويوم بؤس ، فكان لا يطلع عليه أحد في يوم بؤسه إلا قتله

وكان ابن هند هذا صعب المقادة ، فظاً ، ظالماً ، كثير الزهو والكبرياء ، وكان يدعى (مضطرب الحجارة) لقسوته . وكانت أمه هند بنت الحارث بن عمرو السكندى ، الذى كان ينافس والده المنذر الثالث على عرش الحيرة ، وهى عمه امرئ القيس الشاعر . وقد امتازت الحيرة فى عهده بأن صارت مقصد شعراء البادية ، فوفد عليه طرفة ابن العبد ، والمتلبس ، والنابعة ، وعمرو بن كلثوم ، والحارث بن حلزة وغيرهم . وكان عمرو قد جعل الدهر — كما يقول الرواة — يومين : يوماً يصيد فيه ، ويوماً يشرب فيه ، فاذا جلس لشرابه أخذ الناس بالوقوف على بابه حتى ينتهى من مجلس أنسه : ويظهر أن طرفة بن العبد أنف من هذه الوقفة ، فقال بهجوه : (١)

فليت لنا مكان الملك عمرو رغرثاً حول حجرتنا تدور
قسمت الدهر فى زمن رخي كذاك الدهر يعرل أو يحور
لنا يوم ، وللسكروان يوم تطير البائسات ولا نظير
فأما يومهن فيوم سوء تطاردهن بالخسف الصقور
وأما يومنا فنظل ركباً وقوفاً لا نحل ولا نسير

وكان المتلبس كذلك كارها لهذه المعاملة ، فخالف طرفة على هجو عمرو بن هند وظل كلاهما يرميه بكل مقذعة ، حتى تخلص منهما بأن أرسلهما إلى عامله بالبحرين : فأما المتلبس فقد عرف ما فى صحيفته ، وأن فيها هلاكه ، وأما طرفة فأبى أن يصدق جرأة الملك على قتله فسعى لحتفه حيث قتله عامل البحرين ، وهى قصة مشهورة فى كتب الأدب .

وعمر بن هند هذا هو صاحب يوم (أوارة الثانى) (٢) المشهور . وكلنا يعلم حادثته

(١) راجع العقد الثمين لوليم بن الورد البروسى ص ٦٤

(٢) كان من شأن يوم أوارة هذا ، أن عمرو بن هند كان له أخ أو ابن قتله جماعة من زرارة خطأ فأقسم ليقتلن منهم مائة ، وجد فى طلبهم فأبى له بتسعة وتسعين رجلاً وتعذر عليه أن يجد من يكمل المائة ، فشق لهم أخدوداً وحرقهم فيه ، وفى آخر النهار جاء رجل من البراجم أغرته رائحة الشواء ، فظن أن ثمة طعاماً يطهى ، فلما سأله عمرو : من أنت ؟ وقال : لى من البراجمة قال عمرو : « إن الشقي وافد البراجم » وقتله وصارت تميم كلها تعير بذلك . وأوارة اسم لجبل فى ديار تميم

راجع تمة أخبار هذا اليوم فى أيام العرب ص ١٠٠ وابن الأثير ج ١ ص ٣٣٤ والنقائض ٦٥٢ ، ١٠٨١

مع عمرو بن كلثوم ، وكيف أراد أن يذل أمه بأن جعلها تخدم هنداً والدته ، فلما استغاثت أم عمرو بن كلثوم بقولها : «واذلاه بالتغلب» جلت له عمرو بن كلثوم بالسيف فقتله ، وقال قصيدته المشهورة ، ولعل من الأسباب التي هاجته تحيز الملك لقبيلة بكر حين سعى في الصلح بينهما وبين تغلب .

وقد روى صاحب جمهرة شعراء العرب نقلاً عن أبي عبيدة بيتين من الشعر ونسبهما إلى النابغة الذبياني يهدد فيهما عمرو بن هند حيث يقول :

من مبلغ عمرو بن هند آيةً ومن النصيحة كثرة الإنذار

لا أعرفنك عارضاً لرماحنا في جفّ ثعلب واردى الأمرار

وذلك حين تعرض صاحب الجمهرة لتفسير كلمة جف حيث قال : الجف : الجمع الكثير من الناس ، قال النابغة وأورد البيتين . ثم قال : يعنى ثعلبة بن عوف بن سعد بن ذبيان وروى الكوفيون : جف تغلب ، وهذا خطأ لأن تغلب بالجزيرة ، وثلعب بالحيجاز وأمرار موضع هناك .

وقد روى ياقوت في معجم البلدان ^(١) البيت الثاني منهما ، ولكن هل بلغت المرأة بالنابغة أن يهدد عمرو بن هند ، وهو المشهور ببطشه وسطوته ، وإبعاده الغارة في جزيرة العرب ؟ ، أم هذه أبيات منحولة ؟ . لعل ذلك من باب التحذير ، وقد استعمل النابغة مثل هذا الأسلوب — في الصحيح من شعره — مع الغساسنة وسواهم هذا ولا نعرف أن النابغة الذبياني قد اتصل بعد عمرو بن هند بأحد من ملوك الحيرة إلا النعمان بن المنذر أبي قابوس آخر ملوكهم ، وإن كان ابن قتيبة في الشعر والشعراء يذكر أن النابغة كان مع النعمان بن المنذر ومع أبيه وجده وكانوا له مكرمين ، ^(٢) بيد أننا لا نرى أثراً لهذا الاتصال في شعره

أما النعمان بن المنذر فلا يكاد يذكر في التاريخ إلا مقروناً باسم النابغة الذبياني ،

وقد تولى النعمان ملك الحيرة في سنة ٥٨٠ م بعد أن ظل العرش شاغراً ما يقرب من سنة ، وكانت ولاية العرش تأتي من قبل الأكاسرة ، وقد سعى له في الملك لدى الأكاسرة عدى بن زيد العبادي (١)

وكان ترجماناً لهم ، ذامكانه ، وفيه ثقة ، وكان ينافس في الملك إخوته وكانت عدتهم اثني عشر رجلاً عدا النعمان ، وقد اشتهروا بجهالهم وهيبتهم حتى لقبوا بالأشاهب ، وفيهم يقول الأعشى :

وبنو المنذر الأشاهب بالحيرة يمشون غدوة بالسيوف

وكان النعمان من بينهم دميماً أحمر ، أبرش ، قصيراً ، إلا أن كسرى أثره على إخوته حين وفدوا عليه ؛ لأن عدى بن زيد لقننه الأجوبة التي تروق لكسرى حين يسأله وإخوته .

وقد اشتهر النعمان بن المنذر بمحبته للأدب وللشعراء ، وكان في مدة حكمه الطويل الذي دام اثنتين وعشرين سنة خير راع للشعر ؛ إذ وفد عليه النابغة الذبياني وكان عنده أثيراً ، لا يعدل به شاعراً سواه ، ولما عوده إلى العلاقة بينهما عند الكلام على حياة النابغة إن شاء الله . ومن وفد عليه ومدحه حسان بن ثابت الأنصاري ، والأعشى ، ووفد عليه ليبيد بن ربيعة في قومه بني عامر ، وهو بعد يافع لم يشتهر بالشعر ، وكان النعمان يقرب الربيع بن زياد العبسي ويناديه ، وقد مر بنا ما بين عبس وبني عامر من عداوة ، فكان الربيع يغض من شأن بني عامر في مجالس النعمان ، وينفره منهم ، فيتلوم في قضاء حاجاتهم ، ولما ضاق بنو عامر بالأمر ذرعاً ساطوا عليه ليبدأ بهجوه وهو يؤاكل النعمان في أرجوزة مشهورة منها :

يارب هيجاً هي خير من دَعَمَه أكل يوم هامتي مقرعة ؟ (٢)

(١) راجع Huart . Histoire des Arabes P. 69

(٢) لما استوثق بنو عامر من أن ليبدأ يستطيع هجو زياد بن ربيعة حلقوما له شعره وتركوا ذؤابتين وألبسوه حلة ثم غدوا به إلى النعمان — فهذا معنى قوله : هامتي مقرعة . راجع شعراء النصرانية ص ٧٩٠

نحن بنو أم البنين الأربعة ومن خيار عامر بن صعصعه
المطعمون الجفنة المددعة والضاربون الهام تحت الخيدعه
يا واهب الخير الكثير من سعه إليك جاوزنا بلاداً مسبعة
مخبرٌ عن هذا خيرٌ فاسمعه مهلاً أبيت اللعن لا تأكل معه

ثم أخذ يهجو زياداً حتى نفر منه النعمان ونحاه عن مجلسه .

والنعمان بن المنذر هو صاحب يوم (طخفة) ^(١) ويوم (السلان) ^(٢) ، ويقال إنه خذل خسرو ملك الفرس في واقعة (النهروان) ^(٣) فأسرّها في نفسه ، وعزم على الانتقام منه ، وساعده في الانتقام زيد بن عدى بن زيد العبادي ؛ لأن النعمان لم يحفظ يد عدى عنده ، وسمع فيه كلام الوشاة وسجنه ، ثم قتله في السجن ، وما زال ابنه زيد بعد ذلك — وكان قد حل في مكان أبيه لدى الأكاسرة — يوغر صدر خسرو عليه حتى استدعاه إلى بلاد فارس ، ثم سجنه ، وقتله بخانقين في قصة معروفة . وكان النعمان قد أوجس خيفة من خسرو فأودع دروعه ونساءه وأولاده وأمواله عند هاني بن مسعود الشيباني ، فلما مات بسجن كسرى ، أراد أن يستولى ملك فارس على ما تركه ، ولكن هانئاً حال بينه وبين ما أوتمن عليه ، ودارت بين العرب والفرس بسبب ذلك موقعة (ذي قار) وقد انتصر فيها العرب انتصاراً باهراً على الفرس ، وكان ذلك أول انتصار لهم على هذه الدولة العظيمة في سنة ٦١١ ^(٤)

(١) طخفة : موضع في طريق البصرة إلى مكة وكان هذا اليوم بين النعمان وبين بني يربوع وكانت لهم رداقة الملك والرديف يجلس عن يمين الملك إذا جلس ، ويردّفه وراءه إذا ركب ، وله ربع الغنيمة في الحرب ؛ ولما مات عتاب بن هرمي (وكان الرديف) أبى المنذر أن يردف ابنه لصغر سنه ، فنارت بنو يربوع ، فأرسل عليهم الملك جيشاً فيه ابنه قابوس وأخوه حسان ، ولكن جيشه هزم شر هزيمة ، وأسر ابنه وأخوه فافتداهما بفدية الملوكة وهي ألف بعير لكل منهما ، واضطر أن يردف ابن عتاب

(٢) السلان : موضع في ديار بني عامر ، وكان من عادة النعمان أن يرسل (اللطيمة) كل عام إلى عكاظ ، واللطيمة : العير فيها المسك وأنواع الطيب ، فتعرض بنو عامر للطيمته في إحدى السنين ، ولكنه أعد جيشاً في العام التالي يحمي اللطيمة وينتقم من بني عامر ، بيد أن بني عامر أخذوا حذرهم ونكلوا بجيشه في يوم السلان هذا

(٣) راجع Huart. His P. 70 (٤) راجع ج ١ الفصل الثاني من تاريخ العرب Sedillot

وبموت النعمان بن المنذر تقوض عرش اللخمين ، وتولى ملك الحيرة إياس ابن قبيصة الطائي برهة يسيرة ، فلما اندحر الفرس في موقعة ذي قار ، ضاع عرشه ، وحكم الحيرة عامل فارسي ^(١) حتى وطنتها أقدام الجيوش الإسلامية في سنة ٦٢٨ ، ودخلت في حوزة المسلمين .

لقد كانت الحيرة — كما رأيت — مقصد أهل البادية ، يقصدونها حين تبخل عليهم السماء ، ويشتد بهم الضر ، فيرجعون إلى ديارهم يحملون من خيرات المناذرة وعطاياهم ما يفرج كربتهم ، ويلهج ألسنتهم بالشناء .

وكانت الحيرة — ولا ريب — على قسط كبير من الحضارة إذا قيست بالبادية ، قد غصت بكنوز آسيا الصغرى مما غنمه المناذرة في غزواتهم المتتابعة لبلاد الروم ، حتى صار ملوكها لا يقلون رفاهية ونعمة عن ملوك غسان ^(٢) . وقد اشتهروا بالعمارة فن ذلك القصران المشهوران (الخورنق والسدير) ، وقد ضرب بهما المثل في الأدب العربي . ولا شك أن اختلاطهم بالفرس قد أفادهم كثيراً من معرفة طرق الحكم ونظامه ، وترتيب الجيوش ، بل كانت هناك كتيبة فارسية تحت إمرة المناذرة تدعى الشهباء ، تعاونهم في حفظ النظام ، والضرب على يد الخارجين عليهم ، وفي حروبهم الطويلة مع الروم والغساسنة .

وكانت المسيحية منتشرة بين سكان الحيرة ، وقد اعتنقها بعض المناذرة ، وهم الذين علموا عرب الحجاز الخط في الجاهلية ؛ لأن بعضهم كان يجيد الكتابة ولا سيما العباد وعنهم نقل عرب البادية عشرات الألفاظ الفارسية التي تمت إلى الحضارة بصلة . وقد رأينا كيف كانوا مختلطين كل الاختلاط بالقبائل العربية سواء في ذلك المجاورة لهم ، أو التي تقصدهم من داخل الجزيرة .

(١) راجع . Huart His P.71 أما المنذر الخامس الملقب بالمغرور فقد ولاء أهل البحرين عليهم

حين هاجتهم الجيوش الإسلامية وقتل في سنة ٦٣٣

(٢) راجع Sedillot. Histoire Générale des Arabes الجزء الأول — الفصل الثاني

لقد عاش النابغة حقبة من عمره في حاشية النعمان بن المنذر يؤا كله وينادمه ويحضر مجالس أنسه وهواه ، ويرى أشياء كثيرة لم يكن ليراها لو عاش في البادية طول حياته ، حتى لقد قيل : إنه كان يأكل في صحاف الذهب والفضة . ولقد كان لهذه الحياة التي عاشها النابغة مع النعمان ، وللشاهد التي شهدها ، ومناظر الريف ، وأسباب الحضارة أثر كبير في شعره ، سنلمسه حين نتعرض لذلك الشعر إن شاء الله .

أما الغساسنة فكانوا يقيمون في ما يسمى الآن (شرق الأردن) ، ويمتد ملكهم إلى أطراف العراق ، وإلى خليج العقبة ، ومن مدنها الشهيرة (جَلِّق) وهي دمشق أو قرية قريبة منها ، و(الجَوْلان) وكانت على حدود البادية من الجنوب . وقد نزح هؤلاء من اليمن عقب انهيار سد مأرب ، وهم من الأزد ، وقد نزلوا على ماء يسمى غَسَّانَ بتهامة العسير فنسبوا إليه ، وفي ذلك يقول حسان بن ثابت ^(١) :

إِذَا سَأَلْتَ فَإِنَّهُ مَعَشَرٌ نَجَبٌ الْأَزْدُ نَسَبَتُنَا وَالْمَاءُ غَسَّانُ
شَمُّ الْأَنْوَفِ لَهُمْ مَجْدٌ وَمَكْرَمَةٌ كَانَتْ لَهُمْ كُجْبَالُ الطُّودِ أَرْكَانُ

ولما ارتحلوا إلى بلاد الشام وجدوا بها (الضجاعة) وهم قبائل من قضاة كان يصطنعهم الروم ليدرءوا عنهم شرور البدو ، ويردوا عادية عرب الحيرة ، ويعينوهم في حربهم مع الفرس ، فرضى الغساسنة أن يؤدوا الإتاوة للضجاعة ، ويساكنوهم في ديارهم ، ثم ما لبثوا أن اختلفوا على مقدار هذه الإتاوة ، ونشبت بينهم حرب انتصر فيها الروم لصنائعهم الضجاعة ، بيد أن الغساسنة صمدوا لهم ، ودلوا على أنهم أقوى منهم ، فاصطنعهم الروم وآثروهم على الضجاعة . وأمدوهم بأربعين ألف جندي من جنود الروم ، ليعاونوهم في المحافظة على حدود الدولة ، وكانت رئاسة غسان حينذاك

(١) وذلك لأن الأوس والخزرج ابنا حارثة بن ثعلبة بن عمرو مزيقيا بن عامر ماء السماء من الأزد ويجمعون مع الغساسنة أولاد جفنة في عامر ماء السماء : صبح الأعشى ج ٢ ص ٣١٥

لجبل بن عمرو ، ومنحه الامبراطور الروماني لقب (فيلارك) ، وهي مرتبة تلي مرتبة الملك في الدولة .

وأول شخصية تاريخية في هذه الأسرة هي شخصية الحارث بن جبلة ٥٢٩ - ٥٧٢ م واشتهر في تاريخ العرب بلقب (الأعرج) ، وكان يعاصر الامبراطور جستنيان ، وكسرى أنوشروان والمنذر الثالث ملك الحيرة . وقد ذكرنا آنفاً أن المنافسة كانت شديدة بين الفرس والروم ، وأن الحروب بينهما كانت كثيرة الاندلاع ، وقد حرص كسرى المنذر الثالث ملك الحيرة على مناوئة الحارث بن جبلة صنيعة الروم ، ودارت بين الملكين معارك عديدة انتصر المنذر الثالث في بعضها ، وهزم الحارث الغساني والقائد الروماني بلساريوس في إبريل سنة ٥٢١ ، ولكن ما لبثت رحى الحرب أن دارت مرة ثانية ، وكان النزاع دائماً حول القبائل العربية المحيطة بالطريق الحربي الروماني ، ولأى الملكين تدفع الجزية ؛ ومن أشهر المعارك التي دارت بينهما (يوم حليلة)^(١) بالقرب من قنسرين ، وفيه قتل المنذر الثالث ، وظل طريقاً في ساح الوغى ، وذلك في سنة ٥٥٤ م^(٢) .

ثم ذهب الحارث إلى القسطنطينية في سنة ٥٦٣ ، ومنح لقب بطريق ، وقد غزا الحارث الجفني تيماء^(٣) ، حيث كان يقيم السموءل بن عادي ، مطالباً بدروع امرى القيس الشاعر وأسلحته التي تركها لديه وديعة حين ذهب يستنجد بملك الروم على أخذ ثأره . وقد توفي الحارث في سنة ٥٧٠ م

(١) يروى في شأن هذا اليوم أن الحارث أمر ابنته حليلة وكانت من أجل النساء أن تعطر الجنود الذين يمرون بها ، وقد وعدهم الحارث بأن من يقتل المنذر يتزوجها فألهب بذلك الحمية في صدورهم ، وقتله ابن عم لها يدعي (لبيد) ، ولكنه ما لبث هو الآخر أن قتل في المعركة ، وقد ضرب بيوم حليلة المثل فقيل : ما يوم حليلة بسر .

(٢) راجع ص ٦٠ من Huart. I, histoire des Arabes

(٣) المصدر نفسه

وتولى بعد الحارث الأكبر أو الأعرج^(١) كما يلقيه العرب ابنه المنذر ، وقد دارت
بينه وبين قابوس ملك الحيرة معركة عين أباغ^(٢) المشهورة في كتب الأدب والتاريخ
العربية ، وذلك في سنة ٥٧٠ م حين هب قابوس للأخذ بثأر أبيه المنذر فدارت عليه
الدائرة ، وقد ذهب المنذر الغساني بعد ذلك إلى القسطنطينية ، عقب الجفوة التي كانت
بينه وبين الإمبراطور بسبب الخلاف على الإناوة ؛ ووضع على رأسه الإكليل والتاج
ثم عاد فغزا الحيرة وأحرقها في غيبة ملكها كما يقول عدى بن زيد العبادي :
سما صقر فأشعل جانبيها وأهلك المروح والعزيب^(٣)

ولكن ما لبث الروم أن ارتابوا به فأسروه ثم نفوه إلى صقلية ، ومن ثم تمرد
أولاده الأربعة ، وعاثوا في البلاد فساداً يرأسهم النعمان ابنه الأكبر ، بيد أن الدولة
الرومانية عز عليها أن يثور هؤلاء ، ويطمع فيهم الفرس وعرب الحيرة ، فقبض على
النعمان واقتيد أسيراً إلى القسطنطينية حيث قتل .

وقد دبت الفوضى على إثر ذلك في هذا الجزء من المملكة الرومانية ، وانتقضت
القبائل ، ولكن التاريخ يحدثنا بأن الغساسنة ملك منهم بعد ذلك الحارث السادس
المعروف بالأصغر ، ثم عمرو بن الحارث وهو الذي مدحه النابغة الذبياني بقصيدته
البائية المشهورة ، والتي يقول فيها :

على لعمر و نعمة بعد نعمة لوالده ليست بذات عقارب
وقد تولى الملك من سنة ٥٨٧ إلى سنة ٥٩٧ على وجه التقريب ، وخلفه أخوه

(١) يجمع الفرنجة الذين كتبوا عن الغساسنة على أن الحارث الأكبر هو الحارث الأعرج ؛ ويرى بعض
مؤرخي العرب أن الأعرج ابن الأكبر ، وأن الأول قبره بصيداء ، والثاني بدمشق . راجع تاريخ العرب
القديم للشيوخ محمد نحر الدين بك ص ٥٦ .

(٢) أباغ بضم الهمزة : على الحدود بين العراق والشام . وقد اختلف في ترتيب هذه الموقعة فؤرخو
العرب أحياناً يقدمونها على يوم حليلة وأحياناً يؤخرونها وقد اعتمدنا رأي Huart ص ٦٠ ، كما اختلف
في أي ملوك الحيرة تولى المعركة فهو المنذر الرابع أم قابوس بن المنذر الثالث وقد اعتمدنا كذلك رأي Huart
(٣) المروح : الإبل الذاهبة إلى أعظائها ، والعزيب : ما ترك في مراعيه .

النعمان حتى سنة ٦٠٠ م ، وقد مات مقتولا ، ورثاه النابغة بقصيدة مشهورة سئذ كرها بعد . ولما غزا خسرو برويز ملك الفرس بلاد الشام ^(١) (٦١٣ - ٦١٤) واستولى على دمشق وأورشليم ، كان في ذلك القضاء على الدولة الغسانية . بيد أن هرقل مالبت أن استرد بلاد الشام في سنة ٦٢٩ . ويظهر أن الغساسنة كان لا يزال لهم بعض النفوذ بين القبائل العربية المجاورة لهم ، فإننا نسمع فيما بعد أن شرحبيل بن عمرو الغساني قد اعتدى على رسول النبي صلى الله عليه وسلم الحارث بن عمرو الأزدي ، وهو ذاهب إلى ملك الروم يدعو للإسلام ، وأن ذلك كان السبب في غزوة مؤتة ، ثم نسمع عن جبلة بن الأيهم آخر ملوكهم ، وقد دخل في الإسلام على عهد عمر بن الخطاب ، وقدم المدينة ، ثم تنصر وفرّ إلى بلاد الروم .

لم يعن العرب بتاريخ الغساسنة وأخبارهم مثل عنايتهم بعرب الحيرة ، وذلك لأن عرب الحيرة على الرغم من اقتباسهم كثيراً من ألوان الحضارة الفارسية ، فإنهم ظلوا على اتصال وثيق بعرب البادية كما مرّ بنا ، وظلّوا كذلك على وثنيّتهم إلا بعض أفراد منهم ، وكان معظم العرب في ذلك الوقت وثنيين ، هذا مع المحافظة على الطبع البدوي من الكرم والأريحية والنجدة ، وقد ذكرنا طرفاً من ذلك آنفاً . ثم إن الغساسنة على ما يظهر كانوا أعلى ثقافة من ملوك الحيرة ، وكانت ثقافتهم يونانية ، وهي غريبة عن العرب ، فبعدت الفوارق العقلية بينهم وبين عرب الجزيرة . أضف إلى ذلك أنهم لم يملسكوا طويلاً كما ملكا المناذرة بالحيرة ؛ لأن علاقتهم بالروم لا تعدو قرناً وبعض قرن على ما حققه (نولدكه) ^(٢) ، وكان الملك قبلهم للضياعمة . وثمة سبب آخر وهو أن بلاد الشام كانت بعيدة عن نجد ، ونجد كانت معدن الشعراء ، فبعدت الشقة عليهم فلم يقصدهم إلا من استطاع ذلك أمثال النابغة وحسان ، وقد كانت ديار النابغة متاخمة

(١) وإلى هذا تشير الآية الكريمة : (غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيفلون في بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد ، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم)
(٢) راجع Noldeke, Die Ghassanischen Fürsten aus dem Hause Gafna's.

لبادية الشام ، وكانت يثرب بلد حسان قريية نوعاً ما من الشام ، فضلاً عما بينه وبين
آل جفنة من قرابة .

ويظهر كذلك أن لغة هؤلاء الغساسنة لم تكن العربية العدنانية الفصحى ، وأنهم
كانوا يتكلمون لغة عربية مشوبة بلهجة نبطية تكثر فيها الكلمات الرومية ، وإن كان
هذا لا يحول بينهم وبين فهم اللغة العربية الفصيحة ، ولعل هذا هو السبب في أنهم لم
يشتهروا بأدب أو شعر ، على خلاف أهل الحيرة فقد ظهر فيهم مثل عدى بن زيد
العبادي ، وإن لم يكن من فحول الشعراء .

ومن هذا يتضح أن أثر الغساسنة الثقافي في النابغة خاصة ، والعرب عامة ، لم يكن
بذي بال ، اللهم إلا ما رآه في قصورهم ، وما شهدته من أحوال معيشتهم وعبادتهم
وحروبهم مما لا يألّف نظيره في البادية .

ولا ريب أن هؤلاء كانوا على درجة كبيرة من الحضارة ، ولا أدل على ذلك من
تلك القصة التي رواها أبو الفرج في الأغاني ، وذلك : « أن حسان بن ثابت دعى إلى
مأدبة سمع فيها غناء رائقة وصاحبها ، فلما عاد إلى بيته قال : لقد أذكرتني رائقة
وصاحبها أمراً ما سمعته أذنأى بعد ليالي جاهليتنا مع جبلة بن الأيهم : لقد رأيت
عشر قيان ، خمس روميات يغنين بالبرابط ، وخمس يغنين غناء أهل الحيرة ، وكان
(جبلة) إذا جلس للشراب فرش تحته الآس والياسمين ، وأصناف الرياحين ، وضرب
له العنبر والمسك في صحاف الفضة والذهب ، وأوقد له العود المندى إن كان شاتياً ،
وإن كان صائفاً بطن بالثلج ، وأتى هو وأصحابه بكساء صيفية يتفضل ^(١) هو وأصحابه
بها ، وفي الشتاء بفراء الفسّك ^(٢) وما أشبهه ، ولا والله ما جلست معه يوماً قط إلا
وخلع على ثيابه التي عليه في ذلك اليوم ، وعلى غيرى من جالسائه ، هذا مع حلم عمن

(١) يتفضل : أى يلبس الثياب الخفيفة وهي لبسة المتفضل كما ورد في شعر امرئ القيس

(٢) حيوان شبيه بالثعلب وفراؤه من أجود أنواع الفراء

جهل ، وضحك وبذل من غير مسألة ، على حسن وجه ، وحسن حديث ، ومارأيت منه
خنى قط ، ولا عريضة ، ونحن يومئذ على الشرك ،

فهذا نوع من المعيشة فرضته البيئة ، لأن دمشق ذات جو قارى ، شديدة البرد في
الشتاء عظيمة الحر في الصيف ؛ وقد نقلوا ألوان الترف عن الروم في زياراتهم المتتالية
للقسطنطينية ، ومن هؤلاء الذين كانوا يجاورونهم . وكانوا يعنون بتشييد القصور
وتخطيط المدن والقرى ، فمن قصورهم المشهورة : القصر الأبيض والقلعة الزرقاء ،
وقصر المشتى ، وبنوا عدة أقواس للنصر ، وحمامات عامة ، وقناطر للبياه
ومسارح وكنائس .

وكان لكل هذا تأثير على كل من زارهم في بلادهم ، وقد انعكست بعض هذه المشاهد
على مخيلة النابغة ، فتم عليها شعره كما سنرى . وقد اتصل بالحارث السادس أو الأصغر
وبعمرو بن الحارث ، وبالنعمان أخيه ، وهم وإن جاءوا في أخريات الدولة وبعد أن
شاب علاقتهم بالروم بعض الشوائب إلا أنهم كانوا لا يقلون ترفاً ومدنية عن آبائهم
ولعلنا في هذا الفصل الذى تكلمنا فيه عن بيئة النابغة ، وأفضنا في الحديث عن
مسرح حياته ، وما أثر فيه : من القبيلة والصحراء ، والحروب المتتابعة التى خاضتها
قبيلته ، والبلاد المجاورة التى زارها ، وإعطاء صورة واضحة عن الحيرة وغسان ، قد ألقينا
بعض الضوء الذى يساعدنا على تفهم شعره ومراميه ، ولولا ذلك لجاء الكلام عن
النابغة ناقصاً ، وفهم شعره وأغراضه ونفسيته عسيراً .

ديوان النابغة

- ١ -

الإهتمام بجمع الشعر :

ما كاد العرب يستقر بهم المقام في أوطانهم الجديدة بعد الفتح ، حتى أخذوا يعنون بأسباب الحضارة والتقدم ، والعمل على حفظ تراثهم الديني والأدبي ، كيلا يطغى عليه هذا الفيض المتدفق من الثقافات الدخيلة ، التي يجلبها إلى أسماعهم ، وتحت أبصارهم كل يوم آلاف الأعاجم الذين يدخلون في الإسلام .

وكانت الدولة الأموية في أول عهدها بالخلافة منصرفة إلى تهدة الثورات الداخلية وإخمادها ، والعمل على نشر سلطانها في ربوع البلاد العربية ، والديار التي فتحتها ، وفي إرسال الجنود في شتى الجهات يدفعون بالغزو الإسلامي إلى غايته حتى وصلوا شرقاً إلى داخل بلاد الهند على يد محمد بن القاسم ، وغرباً إلى الأندلس على يد موسى ابن نصير وطارق بن زياد . بيد أن النصف الثاني من عصرهم شهد ^{الدولة الأموية} ابتداء حركة التدوين واسكنها سارت في بطنه وعلى غير نظام ، ولم تشمر هذه الحركة ثمارها الشهيبة إلا في العصر العباسي حينما فضجت العقلية العربية واستحصفت ، وتضلعت في الفهم والتدوين .

ومن أهم ما عني به علماء اللغة جمع الشعر القديم . أجل ! إن القرآن الكريم قد بهر بفصاحته وأسلوبه الشعراء والأدباء فأخضعهم ، وجعل شعرهم بالنسبة إليه غثاً مرزولاً ، وكل الشعر الذي قيل في صدر الإسلام شعر ضعيف ، ولا سيما شعر هؤلاء الذين كانوا يقطنون المدن ، وتأثروا بالإسلام . أما من كان يعيش في البادية بعيداً عن تعاليم الدين الجديد ، ولا تزال نوازع الشعر الجاهلي تدفعه وتطلق لسانه ، فقد كان شعره متيناً كالخطيئة وكعب بن زهير .

فلما فشا اللحن بانتشار الموالي ، ومخالطتهم العرب ، وفسد اللسان العربي بعض الفساد ، واحتاج الناس إلى تعلم اللغة حتى ينطقوا بالصواب ، خشى العلماء أن يستغلق القرآن على الفهم فذشطوا في جمع اللغة وتدوينها ، بل إن الاهتمام بالقرآن هو الذي حفز العلماء في عصر بني أمية على جمع شوارد اللغة وآدابها وأشعارها ليستنير بها المفسرون في تفسير آياته وتوضيح معانيه .

وكان جل اهتمام العلماء موجهاً من أول الأمر إلى الشعر الجاهلي ؛ لأنه أقدم وثيقة للغة العربية ، وأقوم مصدر لفهم غريبها ، ثم إنه يبين أحوال العرب الاجتماعية في صور زاهية جميلة ، ويفصح عن أخلاقهم في صدق وصراحة وبساطة وإخلاص ، بل إنه ينهج هذا النهج في كل ما يتناوله من أغراض ، فاستعان العلماء به - وهذه حالته - على صبغ ألوان الحضارة الجديدة صبغة عربية ، وجعل اللغة تنهض بكل ما يتطلبه هذا النوع الحديث من الحياة فتعبر عنه أدق تعبير وأكمل ؛ فتوسعوا في استعمال الكلمات العربية القديمة وأوجدوا لها معاني اصطلاحية لم تكن تعرفها من قبل : كالفاعل والمفعول ، والظرف في النحو ، والمديد والبسيط والرمل في العروض ، وما شاكل هذا . ولم يكن العربي في العصر الأموي يدرك من هذه الكلمات مدلولاتها الاصطلاحية ، ولقد رويت نواذر طريفة للأعراب مع العلماء لجهل الأولين بهذه الكلمات الفنية ؛ والحق إن العرب جدوا في هذا جداً يذكر لهم بالفخر ، حتى لتقرأ الفقه كله فلا تجد فيه كلمة أعجمية بل تقرأ المنطق وهو علم دخيل فلا تجد فيه لفظة أعجمية بل صيغ بالفاظ عربية بحثة .

وكان لعلماء اللغة طرق شتى في جمع الشعر فمنهم من وقف نفسه على شاعر فرد يجمع شعره ، ويرويه ، ومنهم من اهتم بشعراء قبيلة معينة كأشعار الهذليين ، وبعضهم يجمع قصائد خاصة لبعض الشعراء كالمفضليات للضبي ، أو يختار قطعاً وقصائد لشعراء عدة في أغراض خاصة كحاسة أبي تمام

ومن هذه المجموعات الشعرية التي رويت في هذا العصر تلك المجموعة التي تضم شعر امرئ القيس ، والنابعة ، وزهير ، وطرفة ، وعلقمة ، وعنترة . وهي مجموعة قيمة

لأن هؤلاء الشعراء منذ ظهوروا على مسرح الحياة ، وهم في المرتبة الأولى عند نقاد الأدب العربي ، وقد أحمّلوا كثيراً من شعراء زمانهم ، ولم يلحقهم من أتى بعدهم ، وكان لهم تأثير قوى على الأدب العربي ؛ وعلى الرغم من أنهم وجدوا طريق الشعر معبداً من ذى قبل ، وأسلوب القصيدة معروفاً إلا أنهم أمدوا الشعر بفيض من التعبيرات الجميلة والأساليب الممتازة ، والكلمات الكثيرة ، والآراء المتنوعة المبتكرة ، والصور الزاهية الجديدة ، مع افتنان في طريق العرض والوصف ، وبذلك رفعوا من شأن القصيدة العربية ، وجعلوها مثلاً أعلى يحتذى الشعراء من بعدهم ، ولا يحاولون الخروج عما رسموه لهم على الرغم مما عرفوه من آداب الأمم التي خضعت لهم بعد الفتح كالفرس والروم والهنود .

وقد اهتم الرواة جد الاهتمام بالشعر الجاهلي لسبب آخر ، وهو أن لغة هذا الشعر لغة قوم لم تفسد أسنتهم ، وهم حجة في كل ما نطقوا به ، فلما استغلقت بعض الكلمات لغلبة العجمة على الناس ، ولتغير البيئة بالقوم في مواطنهم الجديدة ، وبعد العهد بينهم وبين حياة البادية لجئوا إلى الشعر الجاهلي يستشيرونه في تفسير هذه الكلمات ومواضعها من الجمل ، وطريقة التعبير بها ، وكان هؤلاء الشعراء الذين ضمت هذه المجموعة دواوينهم في الصدارة من ثبّت الشعراء الجاهليين ، بل شعراء العربية قاطبة ؛ وذلك لأنهم - فضلاً عما تقدم - لم تكن حياتهم محدودة راكدة ليس فيها إلا حوادث البادية المألوفة كما كان حال غيرهم من الشعراء ، بل شهدوا حوادث لها أثر في تاريخ الأمة العربية ، وذات أثر فعّال في مقومات شخصيتها ، واتصلوا بأشخاص لهم وزنهم في التاريخ ، وبذلك كان شعرهم موضع اهتمام منذ قيل ، ووجد فيه علماء اللغة ، وطلاب الأدب والمعاني مجلّ طلباتهم ؛ فعكفوا على درس شعرهم منذ جمع قبيل منتصف القرن الثاني للهجرة في كل مصقع حل به العرب ، وشرح شعرهم عشرات من العلماء والأدباء وليس بصحيح ما قيل من أن الاهتمام بشعرهم كان وقفاً على أهل المغرب ، وربما نجم هذا الظن من كثرة المخطوطات التي عثر عليها بخط مغربي ؛ فإن ثمة نسخاً أخرى وجدت بالخط

النسخي ، كما أن المشاركة عنوانا جدي العناية بشرح شعرهم ^(١) وقد نشر هذه المجموعة
وليم بن الورد البروسي W. Ahlwardt سنة ١٨٧٠ م بلندن ، وكتب لها مقدمة قيمة
بعد أن راجع عدة مخطوطات ، وقد جاء في مقدمته : « إن هذه المجموعة رواها
أبو الحجاج يوسف بن سليمان بن عيسى المعروف بالأعلم الشنتمري النحوي اللغوي
٤١٠ — ٤٧٠ هـ ، وله عليها شرح كامل ، وقد قال في مقدمتها : إنه اعتمد القصائد التي
رواها الأصمعي ^(٢) ، وعددها صحيحة ، وأضاف إلى كل شاعر مآراه بعض الرواة الثقات
غير الأصمعي صحيحاً ، وقد كان الأصمعي يعرف هذه القصائد كذلك ، بيد أنه شك
فيها أو رآها منحوالة .

ويظهر أن الأصمعي كان له شرح على هذه المجموعة ، يدل على ذلك أن الأعلم
الشنتمري كثيراً ما يرجع إلى تفسير الأصمعي فيقول : الأصمعي يفسر هذه الكلمة بكذا
والأصمعي لا يعترف بهذا البيت ، وغير ذلك من التعليقات التي اعتمد فيها على الأصمعي
وثمة نسخ أخرى تضم دواوين بعض شعراء هذه المجموعة ، مثال ذلك : شعر
زهير بن أبي سُلَيْمٍ فقد رواه ثعلب ^(٣) ، وقد روى أبو بكر محمد بن القاسم المعروف
بابن الأنباري ^(٤) ديواني زهير والنابعة وشرحهما

وجمع السكري ^(٥) دواوين امرئ القيس ، وزهير والنابعة . وإن كان يلوح أن
(الأعلم الشنتمري) لم يمتنع بمجهودات من سبقه ؛ إذ لم يشر إليهم قط . أما القصائد

(١) من مقدمة وليم بن الورد البروسي على هذه المجموعة ، وهذه المقدمة كتبت باللغة الإنجليزية
حيث ترجمها من الألمانية العلامة (نيكلسون) ، وسماها ابن الورد « العقد الثمين » . راجع المقدمة ص ٣

(٢) هو أبو سعيد عبد الملك بن قريب بن عبد الملك بن علي بن أصمعي بن مطهر البصري توفي
سنة ٢١٠ هـ

(٣) هو أبو العباس أحمد بن يحيى بن سيار الشيباني المعروف بثعلب ٢٠٠ — ٢٩١ هـ

(٤) توفي سنة ٣٢٨ هـ

(٥) هو أبو سعيد الحسن بن الحسين بن عبد الله بن عبد الرحمن العتكي السكري ٢١٢ — ٢٧٥ هـ
أو ٢٩٠ هـ

التي شك فيها الأصمعي فقد أثبتتها (الأعلم) بناء على أدلة ظهرت له ، وقد اعتمد في شعر النابغة ما رواه الطوسي ^(١) عن ابن الأعرابي ^(٢) ،

وقد وجد (وليم بن الورد) كثيراً من الأبيات منسوبة إلى هؤلاء الشعراء في مختلف كتب الأدب ، فاسترعى ذلك نظره ، وأخذ يتساءل : هل كل هذه الأبيات مزورة ؟ ومن زورها ، ولماذا ؟ وصارت هذه الأسئلة تلح عليه رَدْحاً طويلاً من الزمن ، وهو يرى هذه الأبيات ترد في كتب أخرى منسوبة إلى هؤلاء الشعراء أنفسهم فاستنتج من ذلك أنها ليست مزورة ، وأن الأعلم رفضها عن غير قصد ؛ لأنها ليست بما رواه الأصمعي ، وقد تكون من مرويات غيره . ورأى من جهة أخرى أن استشهادات ابن قتيبة في (الشعر والشعراء) وأبي الفرج في (الآغاني) والجوهري في (الصحاح) لا تقتصر على ما اعتمده الأعلم الشنتمري من رواية الأصمعي .

ويستدرك ابن الورد فيقول : وإن بعض هذه الأبيات مزور لا ريب في ذلك ، وبعضها جاء من اختلاط الأسماء ، ، ويضرب على ذلك مثلاً كلمة (بجل) فالجوهري يستشهد على تفسيرها ببيتين من الشعر وينسبهما إلى زهير فيتبادر إلى ذهن أنه زهير بن أبي سلمى ، ولكن ابن قتيبة ينسبهما إلى زهير بن جناب ^(٣) ، ويقع هذا التشابه في اسم النابغة ، ففي نسخة بارييس من هذه المجموعة تجد البيتين الآتين منسوبان إلى النابغة الذبياني :

{ فقي تم فيه ما يسر صديقه على أن فيه ما يسوء الأعادي
فقي كملت أخلاقه غير أنه جواد فما يبقى من المال باقيا

ولكنهما في نسخة أخرى ينسبان إلى النابغة الجعدي وقد يكون التزوير ناجماً عن خطأ في الرواية ، فالبيت الآتي لا شك أنه من شعر

الخطيئة ، ولكنه منسوب للنابغة :

(١) هو علي بن عبد الله بن سنان التيمي الطوسي توفي سنة ٢٤٠ هـ وكان تلميذاً لابن الأعرابي
(٢) هو أبو عبد الله محمد بن زياد المعروف بابن الأعرابي توفي سنة ٢٣١ هـ ، وهو من رواة السكوفة
(٣) هو شاعر جاهلي قديم من كتاب راجع ترجمته في الشعر والشعراء ص ٣٣٩ ط الحلبي

مى تأتته تعشو إلى ضوء ناره تجد خير ناره عندها خير موقد

ولكن معظم هذه الآيات صحيحة ، ونسبتها إلى قائلها نسبة لا ريب فيها .

وقد اعتمد ابن الوردي في إخراج هذه المجموعة على عشر مخطوطات أشهرها :

١ ، ٢ - مخطوطتا باريس رقم ١٤٢٤ ، ١٤٢٥ ، والثانية منهما أحسن من الأولى

خطاً وقد رجع إليها في معظم الأحيان ، ويرجع تاريخها إلى سنة ٥٧١ هـ ، أما الأولى فترجع إلى القرن الحادى عشر الهجرى .

٣ - النسخة الغوطية ، وترجع إلى سنة ١١٣١ هـ ، وفي كثير من الأحيان تتفق مع المخطوطة الباريسية رقم ١٤٢٥ ، وهى مخطوطة جيدة ويمكن الاعتماد عليها . وهذه المخطوطات الثلاث بخط مغربى .

٤ - مخطوطة من القرن الحادى عشر الهجرى ، وعليها تعليقات لابن النحاس^(١)

٥ - مخطوطة أخرى عليها تعليقات لابن النحاس ، ولزوزونى فى القصائد المعروفة بالمعلقات .

٦ - مخطوطة بطرسبورج . ٧ - مخطوطة (سبرنجر) وفيها جمهرة أشعار العرب

وقد بذل ابن الوردي مجهوداً قيماً فى إخراج هذه المجموعة التى تضم ما رواه الأصمعى من أشعار هؤلاء الفحول الستة ، ولكنه لم ينشر معها شرح الأعلام الشنتمرى عليها . وبعد أن فرغ من تدوين ما رواه الأصمعى ألحق به ما عثر عليه فى كتب الأدب ، لكل شاعر من هؤلاء الشعراء تحت عنوان (الشعر المنحول) ، وقد لا يكون كل هذا الشعر منحولاً مزوراً كما مرّ بنا ، ولكنها رواية غير الأصمعى ، ثم أشار فى ملحق آخر إلى اختلاف الروايات فى بعض الألفاظ ، واختلاف النسخ ، وكذلك ترتيب الآيات فى القصائد مشيراً إلى كل مخطوطة . وفى ملحق ثالث أثبت ما رواه الأعلام الشنتمرى وغيره من مقدمات القصائد التى تلقى ضوءاً على مناسباتها ، والأسباب التى دعت إلى

(١) هو أبو جعفر أحمد بن محمد بن إسماعيل بن يونس المرادى المصرى المتوفى سنة ٣٣٨ هـ

قولها . وقد روى الأصمعي في هذه المجموعة أربعاً وعشرين قصيدة للنابغة الذبياني
فحسب ، ولكن ابن الوردة أضاف سبع قصائد أخرى من مرويات غير الأصمعي ^(١)
ثم زاد في ملحقة للنابغة سبعاً وخمسين قطعة شعرية وواحدة نثرية ، وهذه القطع فيها
البیت الواحد وفيها القصائد الطويلة مثل قصيدته التي أولها :

عوجوا فحيوا لنعم دمنسة الدار ماذا تحيون من نوى وأقفار

ومن كتب الأدب التي اعتمد عليها في هذه الأبيات المنسوبة إلى الشعراء : الصحاح
للجوهري ، وأمالى القالى ، وشرح مغنى اللبيب للسيوطي ، وكتاب الأغاني ، وشرح
المفضليات للمرزوقي ، وجمهرة أشعار العرب لأبي زيد محمد بن أبي الخطاب ، ونضرة
الإغريض لأبي علي مظفر بن الفضل الحسيني ، وشرح قصائد ودواوين مختلفة

وقد عرفنا رأيه في بعض هذه الأبيات ، ولكنه يرى أن معظمها صحيح النسبة
هذا وقد نشر (ديرنبورج) Derenbourg في سنة ١٨٦٨ م في المجلة الآسيوية ^(٢)
ديوان النابغة الذبياني نقلاً عن مجموعة الأعلام الشنتمرى وأضاف إليه القصائد السبع
التي رواها الطوسي عن ابن الأعرابي ، ثم أفرد هذا الديوان في كتاب خاص ^(٣) ،
وقد اعتمد على مخطوطتي باريس اللتين أشرنا إليهما آنفاً ، وعلى مخطوطة فيينا رقم
٤٤٦ ، وهي بخط مغربي وعليها شرح لأبي بكر البطليوسي ^(٤) وقد قدم (ديرنبورج)

(١) من مثل ما رواه أبو عمرو بن العلاء ، والمفضل الضبي ، وأبوسعيد السكري ، والطوسي عن ابن
الأعرابي وغيرهم من الثقات ، وبذلك صار ديوان النابغة ٣١ قطعة غير الملحق

(٢) Journal Asiatique عدد سبتمبر سنة ١٨٦٨ م

(٣) tirag à part باريس سنة ١٨٦٩

(٤) هو أبو بكر قاسم بن أيوب البطليوسي وتوفي سنة ٥٢١ م ، وقد طبعت هذه المجموعة مع شرح
البطليوسي بالمطبعة الوهبة بالقاهرة سنة ١٢٩٣ هـ وفيها خمسة دواوين فقط من شعراء هذه المجموعة .

وقد نشر الحلبي مع شرح للكلمات الغريبة ، وتراجم موجزة للأستاذ مصطفى السقا هذه المجموعة وفيها
دواوين الشعراء الستة كما رواها الأعلام الشنتمرى

لديوان النابغة بترجمة وافية منقولة عن كتب الأدب كالشعر والشعراء لابن قتيبة ،
والأغاني لأبي الفرج وغيرهما ، مع رجوع إلى ما كتبه المستشرقون أمثال (دي پرسفال)
عن العرب في الجاهلية ، وله فيها مجهود خاص يستحق الثناء .

ثم أصدر (ديرنبورج) في سنة ١٨٩٩ ملحقاً لديوان النابغة بعد أن عثر على
المخطوطة رقم ٦٥ من مجموعة Schefer في مؤتمر المستشرقين بباريس سنة ١٨٩٧ ،
وقد كتبت هذه المخطوطة في ساوة ^(١) ببلاد فارس بخط أبي القاسم محمد بن أبي القاسم
الخاسي في التاسع من جمادى الآخرة سنة ٥٩٢ هـ ، ويقول ياقوت في معجم البلدان :
« كان بساوة أكبر مكتبة في العالم ، وقد بلغني أن التتار أحرقوها ، وقد عثر أبو القاسم
في هذه المكتبة على هذه النسخة القيمة فنقلها . وفي هذه النسخة ثمان وخمسون قصيدة
وقطعة للنابغة الدياني بما في ذلك القصائد السبع التي أضافها الطوسي عن ابن الأعرابي كما
وجدت في مخطوطة (بطرسبورج) وبها مش هذه النسخة كتاب مجمع الأمثال للميداني ،
وهي مكتوبة بخط جميل . وفي مخطوطة (ساوة) تجد مثلاً القصيدة المشهورة

أتاني أيدي اللعن أنك لمتني وتلك التي أهتم منها وأنصب

تسعة وعشرين بيتاً ، بينما هي فيما نشره ابن الورد عن الأعلام الشنتمري ، وفيما نشره
ديرنبورج في سنة ١٨٦٨ لا تزيد عن اثني عشر بيتاً ، وتراها في مخطوطة بطرسبورج
عشرين بيتاً .

وقد وجد (ديرنبورج) في مخطوطة ساوة زيادات ليست في مخطوطة بطرسبورج
غير القصيدة السابقة ، وليست في ملحق ابن الورد ، ولذلك قام بنشر هذه المخطوطة
فيما يتعلق بديوان النابغة فحسب ، سالكاً سبيل الاختصار ، فالقصائد التي سبق له
نشرها أو نشرها ابن الورد ، أشار إليها دون أن يذكرها ، ومعلقاً على ترتيب الأبيات

(١) تقع ساوة بين همدان والري .

واختلافها في المخطوطات العديدة . أما القصائد التي لم تنشر من قبل فقد أوردها
بأكملها مع المقدمات التي تشرح ظروف القطعة وأسباب قولها ، وكذلك الزيادات التي
اختصت بها مخطوطة (ساوة) في القصائد التي رواها الأصمعي أو الطوسي ، أوراها
ابن الورد في ملحقه .

وقد نشر الأب لويس شيخو في شعراء النصرانية ديوان النابغة كما رواه الأعم
الشنتمرى وأضاف إليه ملحق ابن الورد . ولو كان من همي أن أنشر شعر النابغة كله
في هذا الكتاب لرجعت إلى ملحق (ديرنبورج) هذا الذي نشر فيه مخطوطة (ساوة)
وذكرت القصائد بأكملها دون إشارة إلى ما سبق نشره ، وأضفت القطع الجديدة التي
اختصت بها هذه المخطوطة ، وعلقت على كل بيت بما فيه من روايات مختلفة في شتى
المخطوطات .

بيد أني هنا أترجم للنابغة ، واست بصدد نشر ديوانه ، وكل ما يعنيني في هذا المقام
أن ثمة أربعاً وعشرين قصيدة قد أثبتتها جميع المخطوطات وتلك القصائد هي التي رواها
الأصمعي ، ثم سبع قصائد أخرى أثبتتها مخطوطة (بطرسبورج) ومخطوطة (ساوة)
وهي ما رواه الطوسي عن ابن الأعرابي ، وبذلك تكون القصائد التي يرى الرواة الثقات
أنها للنابغة الذبياني ، بغض النظر عن اختلاف الروايات في بعض الكلمات ، وبعض
الزيادات ، إحدى وثلاثين قصيدة ، وهي التي ستكون موضع دراستنا في شعر النابغة ،
وإذا أخذنا بعين الاعتبار ما أورده ابن الورد في ملحقه ، وما انفردت به مخطوطة
(ساوة) ، ولجأنا إلى الاستشهاد به عند الترجمة للنابغة ، فسنذكر أن هذه الأبيات
منسوبة إليه ، أو ليست من رواية الأصمعي والطوسي ، حتى نكون في استنتاجاتنا
على حذر .

وإذا عرفت أن الأصمعي كان متزمتاً بضيق ولا يجوز إلا أصح اللغات ، ويلج
في دفع ما سواه ، وأنه كان شديد النأله ، لا يفسر من القرآن ولا من اللغة شيئاً له نظير

واشتقاق في القرآن ، وأنه كان يتخرج في الحديث ، ولا ينشد من الشعر ما كان فيه ذكر الأنواء ولا يفسره ؛ لقوله صلى الله عليه وسلم : « إذا ذكرت النجوم فأمسكوا » ، وأنه لم ينشد أو يفسر شعراً فيه هجاء ، أدركت أي رواية كان الأصمعي في تثبته وتحقيقه ، وتخرجه

ولقد تعقب الأزهرى ^(١) في كتابه التهذيب رواة الشعر واللغة ، فتفقد كتبهم وتأمل نوادرهم ، ونظر في الكلام المصحف ، وأخذ يطلب مواضع الثقة فيما يروى عنهم ، ثم إنه بعد أن أمعن في ذلك واستقصى قال : إنه وجد عظم ما روى لابن الأعرابي ، وأبي عمرو الشيباني ، وأبي زيد ، وأبي عبيدة ، والأصمعي معروفاً في الكتب التي رواها الثقات عنهم ، والنوادر المحفوظة لهم ، فخص هؤلاء بالثقة دون سائر الرواة ، ووصفهم بالإتقان والتبريز ^(٢) .

وكان الأصمعي أعرف الرواة بالصحيح والمنحول من الشعر ، ولم يكن شاعراً حتى يتزيد ويخترق كما فعل غيره ؛ ولذلك نرى أن ما رواه عن النابغة الذبياني أصبح شعراً يروى له ، وليس معنى ذلك أن هذا الشعر كله روى كما قاله النابغة دون تحريف أو زيادة أو نقصان ، فإن طول العهد بين قائله وراويه يدعو إلى شيء من هذا ، ولا سيما وهو يروى من الذاكرة . وهذا شأن الأدب القديم كله عند مختلف الأمم ، وقد أثبت كثير من علماء الغرب صحة الإلياذة وهي تزيد عن ستة عشر ألف بيت ، ولم يروا عجباً في أنها أقيمت من الذاكرة وتداولتها الأجيال المتعاقبة بالرواية حتى دونت ، وقد ذكر مترجم الإلياذة طرفاً من الرواية في الأدب الغربي قديمه وحديثه ^(٣) تجعلنا نعتقد أن الرواة الثقات في الشعر العربي قد نقلوا شعراً صحيحاً لا تزيد فيه ولا افتراء . وإذا كانت ثمة

(١) توفي الأزهرى سنة ٣٧٠ هـ .

(٢) راجع تاريخ آداب العرب للرافعي ج ١ ففيه فصل ممتع عن الرواة

(٣) راجع مقدمة الإلياذة للبستاني ص ٣٥ وما بعدها .

أبيات وضعها النحاة ، أو رواة الأخبار والأنساب ، أو من استقلوا أشعار أسلافهم
فقد كان للرواة بصر ودراية بالشعر الصحيح والمنحول يجعلهم يتخرجون من رواية
هذا الشعر البين الزيف ، على أن ما وضع قليل لا يدعو إلى الطعن في الشعر الجاهلي
كله . وقد تعرض غير واحد من جلاء العلماء للبحث في هذا الموضوع والرد على من
شك في الشعر الجاهلي جملة ^(١) ، وقد فطن العلماء قديماً إلى هذا الشعر الموضوع وذكروه
ونبهوا عليه ، فالشك فيه اليوم شك لا يقوم على أساس صحيح ، وقد ذكرنا في غير
هذا الموضوع بعض الأسباب التي دعت إلى هذا الشك ، ودحضناها بما فيه السكافية

(١) من الكتب القيمة في هذا الموضوع كتاب النقد التحليلي لكتاب في الأدب الجاهلي للأستاذ
محمد الغمراوي ، وكتاب تقص في الأدب الجاهلي للأستاذ السيد محمد الخضر حسين ، وكتاب الشهاب
الراصد لمحمد لطفي جمعه .

النابغة الذبياني

- ١ -

اسمه ولقبه :

هو زياد بن معاوية بن ضباب بن جناب^(١) بن يربوع بن غيظ بن مزرة بن عوف ابن سعد بن ذبيان بن بغيض بن ريث بن غطفان بن سعد بن قيس عيلان .

وأمه عاتكة بنت أنيس الأشجعي^(٢) . ويكنى بأبي أمامة ، وبأبي ثمامة^(٣) ، وبأبي عقرب ، وهذه أسماء بناته^(٤) ، لأننا نعلم من شعره أنه كان له بنت تسمى (عقربا) وأنها أسرت في إحدى المعارك التي دارت بين ذبيان والغساسنة ، وأن القائد الغساني (وائل بن الجراح) لما علم أنها ابنة النابغة أطلق سراحها وسراح كل الأسرى إكراماً للنابغة ، فمدحه الشاعر بقصيدة مشهورة سنعود إليها إن شاء الله . ونراه كذلك في بعض القصائد يخاطب (أمامة) من مثل قوله : « كليني لهم يا أميمة »

وكان يلقب بالنابغة ، وقد ذهب النقاد في تأويل هذا اللقب مذاهب شتى فبعضهم يقول^(٥) : إنه سمي بالنابغة لقوله :

وسحلت في بني القين بن جسر^(٦) فقد نبغت لنا منهم شئون^٦

(١) هذه رواية الأغاني ج ٩ ص ١٥٤ ، وفي شرح القصائد العشر للتبريزي ص ٢٩٠ وفي الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ١١٥ ط الحلبي : هو زياد بن معاوية بن ضباب بن جابر

(٢) وأشجع : بطن من غطفان وهم عرب المدينة . صبح الأعشى ص ٣٤٤

(٣) راجع التبريزي شرح القصائد العشر ص ٢٩٠

(٤) ويرى الأصمعي أن لقبه أبو ثمامة . وأن ثمامة اسم رجل . راجع ديرنبورج ص ٢٠٥

(٥) الشعر والشعراء ص ١١٥ ، والأغاني ج ٩ ص ١٥٤ ، وخزانة الأدب ج ٢ ص ١١٦

(٦) في القاموس : جسر بفتح الجيم حي من قضاة ، ورويت في ديرنبورج ص ٢٠٦ بضم الجيم

وكذلك في شعراء النصرانية ص ٦٤٠

وفضلاً عن أن هذا البيت ليس مما رواه الأصمعي في ديوانه ، فليست له قيمة أدبية حتى يشيع فيشتهر الشاعر به ، وأغلب الظن أنه صنع لتعليق هذا اللقب ^(١) وقيل : لأنه قال الشعر بعد أن كبرت سنه ، ومات قبل أن يهتر ^(٢) ، على أن هذا الرأي يدحضه شعره ، ففي كثير من القصائد ترى حرارة الشباب وثورته ، وعاطفته وميعة وقوته ، وقد رأينا أن النابغة مدح عمرو بن هند سنة ٥٥٤ م بل يقال إنه اتصل بالمنذر الثالث والد عمرو بن هند في أخريات أيامه ، ونراه شهد نهاية النعمان بن المنذر أبي قابوس سنة ٦٠٢ م ، فيكون قد ظل يترنم على قيثاره الشعر ما يقرب من خمسين عاماً ، وهي مدة ليست بالقصيرة ، ولذلك لا نرى هذا الرأي في أنه قال الشعر وهو كبير ، وأنه لم يكن له في شبابه شيء منه .

ويقال إن اللقب مأخوذ من قولهم : نبغت الحمامة إذا تغذت ^(٣) وترنمت ، وليس هذا بشيء كذلك ؛ فإن كل الشعراء في الجاهلية كانوا ينشدون أشعارهم ويترنمون بها وعلاقة الشعر بالغناء مشهورة .

وحكى ابن ولاد أنه يقال : نبغ بالماء ونبغ بالشعر ، فسكانه أراد أن له مادة من الشعر لا تنقطع كمادة الماء النابغ ^(٤) . والمادة اللغوية تدل على التدفق والعلو والظهور ، وقد يعين على هذا الرأي أن النابغة لم يرث الشعر عن أب أو أم ، أو خال أو عم ، ولم يشتهر أحد من أسرته بقوله كما كان حال زهير بن أبي سلمى ، فمثلته كمثل نبغ الماء يعلو ويظهر ويتدفق من ذات نفسه ، دون أن يعرف أحد من أين يستمد مائه ^(٥) . ثم إن المادة تدل على الغزارة ، وكان النابغة كثير الشعر إذا قيس بشعراء عصره

(١) راجع ديرنبورج ص ٢٠٦

(٢) ابن قتيبة ص ١٠٨ ، وخزانة الأدب ص ١١٧ ط السلفية ، والعمدة لابن رشيق ، وشعراء النصرانية ص ٦٤٠ . وهتر : ذهب عقله من الكبر ، والمعنى : أن مدة قوله الشعر كانت قصيرة ، لأنه بدأ به وهو رجل كامل ، وتوفى قبل أن يخرف

(٣) خزانة الأدب ص ١١٦ ج ٢

(٤) نفس المصدر والاشتقاق لابن دريد ١٧٥

(٥) ديرنبورج ص ٢٠٨

فقد روى له الأصمعي أربعاً وعشرين قصيدة ، وزاد عليها الطوسي عن ابن الأعرابي سبعة ، عدا المقطعات الكثيرة التي رواها ابن الوردة نقلاً عن كتب الأدب ، والتي يرى أن معظمها صحيح النسبة كما مرّ بنا . ولذلك نرجح أنه سمي بالنابعة لاسكل هذه الأسباب مجتمعة .

ويجب أن نأخذ بعين الاعتبار أن عدة شعراء آخرين لقبوا بهذا اللقب ، فلم يكن وقفاً على النابعة الذبياني ، وأن النعليل الصحيح لقبهم هذا هو العلو والظهور والشهرة من غير سابق ورائة ، وهؤلاء الذين اشتهروا بلقب النابعة ذكرهم الأمدى في المؤلف والمختلف وهم ^(١) : النابعة الذبياني هذا الذي نترجم له ، والنابعة الجعدى الصحابي ، ونابعة بنى الديان الحارثي ، والنابعة الشيباني ، والنابعة الغنوي والنابعة العدواني ، والنابعة الذبياني أيضاً وهو نابعة بنى قتال بن ربوع ، والنابعة التغلبي ^(٢) واسمه الحارث

- ٢ -

سنة وسبابه :

غفل التاريخ عن ذكر ميلاد هذا الشاعر العظيم ، ولم يذكره إلا وهو شاعر ملء الأفواه والأسماع ، ولسكننا إذا جهلنا ميلاده ، فإننا نستطيع أن نحدد وقت وفاته ، فقد ذكر صاحب الأغاني ^(٣) أن النابعة حينما سمع بمقتل النعمان بن المنذر على يد كسرى أنوشروان ببلاد فارس قال : « طلبه من الدهر طالب الملوك ، وتمثل بأبيات ، والأبيات كما رواها دير نبورج ^(٤) هي :

من يطلب الدهرُ تدركه مخالبه والدهر بالوتر ناج غير مطلوب
ما من أناس ذوى مجد ومكرمة إلا يشد عليهم شدّة الذيب

(١) راجع خزائن الأدب ط السلفية ص ١١٩ ج ٢

(٢) النسبة إلى تغلب بكسر اللام تغلبي بفتح اللام كما في القاموس

(٣) ج ٢ ص ٣٩

(٤) ص ٢٤٤ وشعراء النصرانية ص ٨٢٠ ، والعقد الثمين ص ١٦٤

حتى يُبَيِّدَ عَلَى عَمْدٍ سَرَائِهِمْ
بِالْنافِذَاتِ مِنَ النَّبْلِ الْمَصَائِدِ
إِنِّي وَجَدْتُ سَهَامَ الْمَوْتِ مَعْرُضَةً
بِكُلِّ حَتِيفٍ مِنَ الْأَجَالِ مَكْتُوبِ

والآيات ليست مما رواه الأصمعي في ديوانه ، فإما أن تكون منحولة ، وإما أن يكون النابغة قد كبرت سنه ، وعجز عن رثاء النعمان إلا بهذه الآيات التي لا حرارة فيها ، ولا تنبيه عن وفاء الشاعر لهذا الذي طالما أغدق عليه النعم ، وأسبغ عليه النابغة مدائح . لقد رثى النابغة النعمان بن الحارث الغساني سنة ٦٠٠ م ، وذكر في رثائه أنه قد جلله الشيب وتقدم به العمر :

دعاك الهوى واستجهلتك المنازل وكيف تصابي المرء والشيب شامل^(١)

فهو قد عاش بعد سنة ٦٠٠ م ، وكان قتل النعمان بن المنذر في سنة ٦٠٢^(٢) ، فلا يبعد أن يكون النابغة قد عاش بعده قليلاً ثم مات ، وعلى كل فهو لم يشهد نهاية حرب داحس والغبراء سنة ٦٠٨ م ، ولم يشهد بعثة الرسول عليه السلام سنة ٦١٠ م^(٣) وبذلك يكون التاريخ الذي ذكره صاحب شعراء النصرانية^(٤) لوفاة النابغة وهو وهو سنة ٦٠٤ م قريباً من الصواب

ويظهر أنه قد مات وهو كبير السن قد جلله الشيب — وليس الشيب بمانع من التصابي إذا كان المرء قوياً مملوئاً بالحياة والنشاط ، ولا سيما في تلك البيئة التي عاش فيها النابغة — وما ذكر الشيب إلا لأن قواه قد ضعفت ، فيكون النابغة قد عمر طويلاً وأدرك المنذر الثالث ابن ماء السماء ٥٠٥ — ٥٥٤ ومدح خلفاءه من بعده

وكما غفل التاريخ عن ميلاد هذا الشاعر صمت كذلك عن صباه وشبابه ، وإن كان

(١) استجهلتك : دعتك إلى الجهل

(٢) راجع Huart . his ص ٧٢

(٣) نفس المصدر ص ٨٩

(٤) ص ٦٤٠

قد وري أنه زاحم حاتم الطائي ورجلا من النبئت^(١) في خطبة ماوية ، وانتصر حاتم^(٢) عليهما ، وأنه قال يزكي نفسه لديها :

هَلَّا سَأَلْتُ بَنِي ذِيانَ مَا حَسْبِي إِذَا الدَّخَانُ تَغَشَّى الْأَشْمَطَ الْبَرْمَا^(٣)

وَهَبْتَ الرِّيحَ مِنْ تَلْقَاءِ ذِي أَرْلٍ تَزْجِي مَعَ اللَّيْلِ مِنْ صُرَادِهَا صَرْمَا^(٤)

إِنِّي أَنْتَمُ أَيْسَارِي وَأَمْنَحْهُمْ مِثْنِي الْأَيَادِي وَأَكْسُوا الْجَفْنَةَ الْأَكْدَمَا^(٥)

وقد رويت هذه الأبيات في ديوانه ضمن قصيدة طويلة مما يدل على أنه لم يقلها في هذه المناسبة ، فضلا عن أن الحادثة رويت^(٦) لزيد الخيل وحاتم وأوس بن حارثة الطائيين

ويرى (ديرنبورج)^(٧) أن النابغة إذا كان قد اشترك في هذه المنافسة فلا بد أنه كان ذا غنى ، والغنى لم يأت إلا بعد أن تسكب بشعره لدى الملوك ، وبذلك يكون قد جاوز حد الشباب

وإذا كان التاريخ قد غفل عن ذكر شيء من صباه وشبابه ، فهل غفل شعره عن

(١) النبئت : أبو حى من اليمن اسمه عمرو بن مالك . القاموس

(٢) ذكر هذه الحادثة de Perceval ج ٢ ص 613 قلا عن الأغاني وذكرها (ديرنبورج)

صفحة ٢١١ ، وصاحب شعراء النصرانية صفحة ١٠٩ ، وصاحب الروائع

(٣) البرم : الذي لا يدخل مع القوم في الميسر عن بخل أو فاقة ، وخص الأشمط لأنه أجزع للبرد من الشاب ، ولو جعله شاباً لدل على شدة البرد وكان أجود في المعنى ، وإنما قال النابغة ما رأى ، والمعنى : أنه ليس ممن يستخس نفسه بالأخذ في الميسر وإنما دأبه أن يحضر ذلك ليطلع . قال متمم بن نويرة يرنى أخاه مالكا :

ولا يرما تهدي النساء لعرسه إذا القشع من برد الشتاء تققععا

(٤) الصراد : شدة البرد أو السحاب لا ماء فيه ، وصرم : ج صرمة وهي قطع السحاب ، وأرل

جبل ببلاد غطفان

(٥) الأيسار : جمع يسر وهم المتقامرون ، والياسر : الضارب بالقداح . يقول : إن قصص المتقامرون

أخذت ما بقي منهم فتمتهم ، ومثني الأيادي : أى أعطيهم نصيبين

(٦) راجع خزانة الأدب ط السلفية ج ٤ ص ١٦٠ ، وذيل الأمالي ص ١٥٤

(٧) ص ٢١١

ذكر مغامرات الشباب ؟ وهل حقاً ما يقال من أنه قال الشعر وهو كبير بعدما احتنك وجرب حوادث الدهر ، وخدمت فيه عواطف الشباب ؟

إن في شعره ما يدل على أنه كان يتغزل ، ويتودد إلى النساء ، ولن يكون ذلك إلا وهو في ميعة الشباب ؛ لأنه شغل وهو رجل بقضايا قومه وأمورهم ، ثم برحلته إلى الملوك ، اسمعه يقول وقد مر على ديار الحبشية فوجدها خلاءً (١)

عهدت بها سعادى وفي العيش غيرةً فأصبح باقى ودها يتقضبُ (٢)
وقد غنيت سعادى تئيب بودها لىالى لا يُسطاع منها التجنب
وأبدت سواراً عن وشوم كأنها بقية ألواح عليهم مُذهبُ
ديارهم إذ هم لأهلك جـيرةً وإذ هى لا يسطاع منها التجنب
ذكرت سعاداً فاعترتنى صبايةً وتحى مثل الفحل وجناء ذعلبُ (٣)

ويقول : أتاركة تدلها قطام وضنا بالتحية والسلام
فإن كان الدلال فلا تـأجـى وإن كان الوداع فبالسلام

ولكن هذا الضرب من الشعر قليل في ديوانه مما ينم عن روح جادة لا تشغل بما يشغل به شعراء الغزل واللهو ، والعبث والمجون ، أمثال امرئ القيس ، وعبد بنى الحساس ومن على شاكلتهم ، ولعل للحروب العديدة التي خاضتها قبيلته أثر في انصرافه عما يعنى به الشباب من لهو ومجانة ، وقد رأى أن ذبيان في حاجة ماسة إلى شاعر فحل يدافع عنها ، ويحمسها حين يحتدم الوغى ، ويذب عنها بلسانه هؤلاء الذين يطمعون فيها أو يقصدونها بسوء من قول أو فعل ، ولا أدل على هذا من انقطاعه عن ملوك الحيرة بعد أن توجه إلى عمرو بن هند حين توليه العرش ، ومدحه بقصيدة طويلة ، ثم شغل عن المديح ، وعن الرغبات الخاصة ، وانصرف بكل قواه يؤازر قبيلته في المحن التي أصيبت بها كما سنرى في الفقرة التالية :

(١) هذه القطعة وزدت في مخطوطة (ساوة) التي نشرها (ديرنبورج) ص ٢٨

(٢) ينقطع ، ويأتى غير منتظم (٣) ذعلب : ناقة سريعة المشى

الناطقة والسُّورة العامة :

يقول بعض النقاد القدماء^(١) إن الناطقة الذبياني كان من أشرف قومه الذين غض الشعر من منزلتهم ، ولا أستطيع أن أجزم برأى في منزلة الناطقة بين قومه ، وهل كان حقاً شريفاً من أشرفهم ، وأن هذا المتوسط في النسب هو الذي دفعه لأن يتشفع لهم لدى الغساسنة ، ويفك أسراهم ، ويصلح بينهم وبين حلفائهم ، ويشير عليهم بالرأى الحازم ؟ أو أن هذه كانت مهمة الشاعر أولاً ، ومهمة أي رجل من القبيلة لقي حظوة عند الملوك ، ورأى أن شفاعته مستجابة ، وأن العصية القبلية تناديه بأن ينهض لنجدة المكروب ، وإغاثة الأسرى ؟

وما بال يزيد بن سنان بن أبي حارثة يطلق ابنة الناطقة^(٢) ، ويطعن في نسبه وأنه من قضاة ، وليس من ذبيان ، ولو كان الناطقة حقاً من أشرف ذبيان ومن أوسطهم نسباً كما يقال ما خفي هذا النسب على أحد ، وما استطاع يزيد ولاتلك الجموع التي تبعته^(٣) وتحالف وإياهم على النار ، أن يطعنوا الناطقة في نسبه ، ولا أن يفخر عليه يزيد بقوله معرضاً به :

إني امرؤ من صلب قيس ماجدٌ لا مُدَّعٍ نسباً ولا مستنكر
وأنا امرؤ حرٌ لبيتي أمكنٌ والنبع بين بلادنا والعَرَّعَرُ

فيزيد ينفي أن الناطقة من قيس ، ويرى أنه من قضاة ، وقضاة تنسب إلى اليمن ، ثم من عذرة ثم من ضنة^(٤) ؛ ويعنطر الناطقة إلى أن يجيبه بقوله :

(١) راجع ابن قتيبة في الشعر والشعراء ص ١١٥ ، وخزانة الأدب ج ٢ ص ١١٧

(٢) ديوان الناطقة ، العقد الثمين ٢١١ ، وشعراء النصرانية ص ٧٠٩ ، وديرنبورج ص ٢١٠

(٣) هم خصيلة بن مرة ، وبنو نشبة بن غيظ بن مرة ، وقد تحالفوا مع يزيد بن سنان على النار ضد بني يربوع بن غيظ بن مرة رهط الناطقة

(٤) ضنة من عذرة ، وعذرة من قضاة ، وقضاة كانت تدعى أنها قيسية ثم تحولت إلى اليمن

جَمَعَ مَحَاشِكُ يَا يَزِيدُ فَإِنِّي أَعَدَدْتُ يَرْبُوعاً لَكُمْ وَتَمِيمًا (١)
وَلَحَقْتُ بِالنَّسَبِ الَّذِي عَيْرَتَنِي وَتَرَكْتَ أَصْلَكَ يَا يَزِيدُ ذَمِيمًا (٢)
عَيْرَتَنِي نَسَبُ السُّكْرَامِ وَإِنَّمَا نَحْرُ الْمَفَاخِرِ أَنْ يُعَدَّ كَرِيمًا (٣)
حَدَّثْتُ عَلَى بَطُونِ ضَنْئَةٍ كَمَا إِنْ ظَالَمَ فِيهِمْ وَإِنْ مَظْلُومًا (٤)

وليس معنى هذا أن النابغة كان دَعِيًّا في بني ذبيان ، وإنما نرجح أن هذه منازعات داخلية بين بطون قبيلة واحدة ، وأنه اضطر إلى أن يستنجد ببني ضَنْئَةٍ من قضاة فنصروه على يزيد ومحاشه ، وأن يزيد رماه بأنه من قضاة ، لأنه لجأ إلى غير قومه ينتصر بهم ، وكانت العداوة بين قيس واليمن على أشدها منذ العصر الجاهلي ، وقد ظلت متأججة الأوار حتى نهاية الدولة العربية ، وحملوها معهم في كل بلد نزحوا إليه بعد الفتح الإسلامي . ولقد كانت يد بني ضَنْئَةٍ من قضاة اليمنية لدى النابغة ورهطه عظيمة فلم يستطع لها جحوداً ، بل وَدَّ أن يلتحق بهم ، ورأى في هذا مفخرة له ، لأنه إنما يلتحق بنسب كريم .

وسواء كان النابغة من أشراف ذبيان ، أم ليس من أشرافهم ، فإنه أدى رسالته خير الأداء ، وعلى أحسن ما ينتظر من شاعر قبيلة في محنة . فنراه قبل أن يفسد ما بين بني عامر وبني غطفان (عبس وذبيان) ، يحاول أن يتلافى أسباب الخلاف بين هذين الحيين العظيمين ، وكانت غطفان وهوازن قد اصطالحوا على غيث أصاب بعض بلادهم أن يأكلوه جميعاً ، فلما حان فناؤه أغارت خيل من هوازن على غطفان ، فأصابوا طائفة

- (١) المحاش : الذين تحالفوا على النار حتى المحشوا أي احترقوا ، و (تميم) لم يرد تميم بن مرة ، وإنما أراد تميم بن ضبة بن عذرة بن سعد بن ذبيان ، وأما بنو يربوع فهم رهطه الأدنون
- (٢) يقول : أنا لاحق بالنسب الذي عيرتني ولست مثلك تنفي عن أصلك
- (٣) عيرتني بنسب كريم وهذا ظفر لي وغنم
- (٤) إن هذه البطون تعطف على في كل حال وتعينني

من أموالهم، وكان السكفيل على غطفان عامر بن ملك، وزُرعة بن عمرو، فوجه إليهما هذا العتاب، وفيه تظهر شخصية النابغة ورسالته القبلية: (١)

أبلغُ عامراً عنى رسولاً	وزُرعة إن نأيتُ وإن ذنوتُ
أعاتبُ سيدي قيس جميعاً	وأخبر صاحبي بما اشتكيتُ
فما حاولنا بقياد خليل	يصان الورْدُ فيها والكميتُ
إلى ذبيان حتى صَبَّحتهم	ودونهم الربائع والخبيثُ (٢)
أثمَّ تَعَذَّران إلى منها	فإني قد سمعتُ وقد رأيتُ
أحار بن المغيرة إن قيساً	أحلوا بالمحارم فادعيتُ
فإن غلبت شقاوتهم عليهم	فإني في صلاحهم سعتُ
ألا ياليتني والمرء ميت	وما يغني من الحدثن ليتُ
عَرِمَت غرامة في صلح قيس	ولم يتفاسدوا فيما بنيتُ

فهو يحاول أن يصلح بين القبيلتين، وتتجلى روحه المحبة للسلام والوثام، ولكن حين قتلت بنو عامر زهير بن جذيمة سيد بني عبس، بل سيد غطفان وهوازن، وأمعن خالد بن جعفر الكلبي العامري في طغيانه، ولج في عدوانه، كان النابغة من أشد الناس صرامة وقسوة على زُرعة بن عمرو هذا الذي خاطبه ذلك الخطاب اللين، وعاتبه هذا العتاب الرقيق. وذلك أن النابغة كان حريصاً على محالفة بني أسد لقومه، وقد قدم لهم يداً بيضاء من قبل حين اشتركوا مع المنذر بن ماء السماء ملك الحيرة في حرب الغساسنة فلما هزم المنذر يوم حليمة وقتل، وأسر عدد كبير من جيشه كان من بين هؤلاء الأسرى رجال من بني أسد، فتقدم النابغة إلى الحارث بن أبي شمر الغساني يتشفع في أسارى بني أسد فأجاب شفاعته، وهذا يدلنا على أن النابغة كان بعيد النظر في اصطناعه المعروف

(١) وردت هذه القطعة في مخطوطة (ساوة) ص ٣٧، وورد بيتان منها وهما الثالث والرابع

في ملحق ابن الورد

(٢) الربائع: أرض، والخبيث: كذلك أرض وفيها مات ضابئ بن الحارث البرجمي وكان حبسه

عثمان بن عفان.

لأن بني أسد حلفاء أقوياء يعتمد عليهم في المحن والشدائد ، ويدلنا على أن النابغة كان منذ يوم حليلة (٥٥٤ م) ذا مكانة وجاه لدى الغساسنة ، وإن لم يسجل ديوانه هذه الحادثة إلا في أبيات معدودة .

× قابله زُرعة بن عمرو بن خويلد بسوق عكاظ ، وأشار على النابغة بأن يترك قومه حلف بني أسد ، فأبى النابغة الغدر ، وبلغه بعد ذلك أن زُرعة يتوعدده ، فقال النابغة يهجوهم ، ويخوفه من جموع كثيرة سيحشدوها له ولقومه ، ولن تكون لهم طاقة بها ، جموع من بني ذبيان ، وبني عابس ، وبني أسد ، وبني كلب ، جموع مستعدة للقتال ، لها دراية ودربة بخوض المعارك . ولم نعد نرى النابغة الداعية إلى السلم ، ولكن النابغة الذي يرى من واجبه أن يدفع عن قبيلته الأذى ، ولعل في ذكره هذه الجموع الكثيرة قبيلة قبيلة ما يثني بني عامر عن العدوان ، ويلجئهم إلى السلام ، وذلك حيث يقول :

نبتت زُرعة والسفاهة كاسمها	يهدى إلى غرائب الأشعار (١)
خلفت يا زُرعة بن عمرو إنني	مما يشق على العدو ضرارى (٢)
أرايت يوم عكاظ حين لقيتني	تحت العجاج فما شققت غبارى (٣)
إنا اقتسمنا خطبتينا بيننا	فحملت برة واحتملت فجار (٤)
فلتأ تينك قصائد ولا يدفعن	جيش إليك قوادم الأكوار (٥)

(١) السفاهة : الجهل وهي قبيض الحلم ، غرائب الأشعار : لأنه ليس من أهل الشعر . والمعنى : أن اسم السفاهة قبيح وفعلها قبيح كذلك .

(٢) شق عليه الأمر : صعب عليه وأوقعه في المشقة . وضرار : مصدر ضار . والمعنى : أقسم أن عدوى يصعب عليه أن ينالني بأذى

(٣) العجاج : الغبار . وشق غباري : كناية عن دنوه منه مأخوذ من عدو الحبل

(٤) برة : اسم للبر وهو معرفة وصفة من البر ، وفجار : اسم من الفجور وصفة من الفجور أى الخصلة البرة ، والخصلة الفاجرة ، وذلك لأن زُرعة دعاه إلى الغدر بخلفائه بني أسد فأبى

(٥) القوادم : جمع قادمة وهي مقدمة الرحل ، والأكوار : جمع كور وهو رحل الناقة . يهدده بالهجوم والغزو ، وعبر بالدفع هنا توسعاً في المعنى ، لأنهم كانوا يركبون الأبل أحياناً ويجنبون الخيل حين الحاجة إليها .

رهط بن كوز محقبي أدراعهم فيهم ، ورهط ربيعة بن حذار (١)
ولرهط حراب وقد سورة في المجد ليس غراؤها بمطار (٢)
وبنوقعين لا محالة أنهم آتوك غير مقلبي الأظفار (٣)
سهيكين من صدأ الحديد كأنهم تحت السنور جنة البقار (٤)
حول بني ديدان لا يعصوني وبنو بغيض كلهم أنصاري (٥)

ولما استبحر الحلف بين عبس وذبيان في حرب داحس والغبراء ، اشتد حرص النابغة على حلف بني أسد لقومه ، وقد كثر أعداؤهم ، فلم يعد بنو عامر وحدهم ؛ ولكن صار بنو عبس كذلك حرباً عليهم ، وطالما تمني العامريون أن يفرقوا بين ذبيان وحلفائها حتى يستطيعوا غزوهم ، ولا سيما بعد أن تركت عبس ديار غطفان ، وتركوا بني عمومته (ذبيان) ، وقد كانوا جميعاً يواجهون بني عامر ، بيد أن النابغة لم يغفل عن مكائدهم ، وأخذ يشيد ببطولة بني أسد وبلائتهم في الحروب ، ويسفه بني عامر لهذه المحاولة الدنيئة ، وقد ذكروا أنهم مستعدون لمخالفة بني ذبيان ضد بني عبس إذا تخلوا عن حلف بني أسد

قالت بنو عامر خالوا بني أسد يا بؤس للجهل ضراراً لأقوام (٦)

- (١) (كوز) من بني مالك بن ثعلبة ، وربيعة بن حذار من بني سعد . ومحقبي : جعلوها كالحقائب لوقت الحاجة إليها
(٢) حراب وقد : من بني أسد ، وسورة المجد : أثره وارتفاعه . وليس غراؤها بمطار : كناية عن خصب المكان ، لأن الغراب لا يتحول عنه وفيه ما يشبعه ، والمقصود أن سورة المجد دائمة
(٣) بنوقعين : حي من بني أسد ، وغير مقامى الأظفار : كناية عن كمال عدتهم وعتادهم
(٤) السهكة : رائحة كريهة من لبس الحديد ومنها رجل سهك ، والسنور : السلاح التام . والبقار : اسم موضع كثير الجن ، والجنة : واحد من جنى . يقول : تغيرت ريحهم من طول لبس الدروع وشبههم بالجن لمضيههم فيما شاءوا وقدرتهم على الحرب والتغلب على أعدائهم
(٥) بنو ديدان : من أسد ، وبنو بغيض : من عبس ، وهذا قبل أن يختلف الحيان
(٦) خالوا : يقال خاليت خلاء ومخالاة إذا تركته ، (يا بؤس للجهل) اللام زائدة ؛ وهذه اللفظة تأتي بها العرب على سبيل التعنيف

يأبى البلاء فلا نبغى بهم بدلاً ولا نريد خلاء بعد إحكام^(١)
وبرفض هذا العرض ، وإذا كانت بنو عامر تفكر في صلح ذبيان فلتصالح كذلك
بنى أسد :

فصالحونا جميعاً إن بدا لكم ولا تقولوا لنا أمثالها عام^(٢)
إني لأخشى عليكم أن يكون لكم من أجل بغضائهم يوم كأيام^(٣)
وكان النابغة في حرصه على بنى أسد سياسياً ماهراً ، وهو لا يفتأ يشيد بأعمالهم
المجيدة ويهنئ قومه بأن ديارهم خلت لهم بعد جلاء بنى عبس عنها ، ولم يبق بها إلا بنو
أسد يحمونها ، وهذا اعتراف منه يشجع بنى أسد على نصرته :

ليهنئ بنى ذبيان أن بلادهم خلت لهم من كل مولى وتابع^(٤)
سوى أسد يحمونها كل شارق بألفي كمي ذى سلاح ودارع^(٥)
ويعزو لبنى أسد إجلاء بنى عبس إلى بلاد باهلة

فدع عنك قوماً لا عتاب عليهم هم ألحقوا عبساً بأرض القعاقع^(٦)
وكيف يترك حلف بنى أسد ، وبعض بنى ذبيان يتقاعسون عن نصرته قومهم في
حربهم الشعواء .

فما أنا في سهم ولا نصر مالك ومولاهم عبد بن سعد بطامع^(٧)
وقد استطاع بنو ذبيان بفضل هذا الحلف أن يصمدوا في هذه الحرب الطويلة ،
وأن يظلوا في ديارهم بينما أخذت بنو عبس تطوف أنحاء الجزيرة العربية من الشمال

(١) البلاء : الاختبار والتجربة ، والخلاء المتاركة ، والمراد هنا تقض الحلف بعد إحكامه

(٢) عام : مرخم عامر (٣) أى يوم في طوله بمثابة أيام ، ويوم الشر طويل

(٤) المولى : ابن العم ويقصد به بنى عبس ، وتابع : من يتبعهم

(٥) كل شارق : كل صباح . والسكى : الفارس المدجج بالسلاح

(٦) أرض القعاقع من بلاد باهلة . راجع ص ٧٦ من هذا الكتاب .

(٧) سهم ومالك : حيان من غطفان ، وعبد بن سعد من ذبيان . ومولاهم : حليفهم أو ابن عمهم .

إلى الجنوب ، تجاور هذه القبيلة حيناً ثم تجد منها جفوة فتتركها إلى غيرها وهكذا ، ومع أن العداوة قد اشتد بين عبس وذيبيان وطالت مدته ، وشهد النابغة الحرب من أولها ، فإنه لم يتعرض لهجاء عبس أبداً ، وكيف يهجوهم وهم قومه ، وطالما شاركوا بني ذيبيان البأساء والضراء ، ولهم جميعاً أعداء يكرهونهم سويّاً ؟ ولقد حَزَّ في نفس النابغة حقاً أن رأى بني عبس يهجرون ديارهم ويأجثون إلى أعدائهم العامرين ، وهم الذين قتلوا زهير بن جذيمة سيد غطفان كلها ، وهنا نراه يتحسر على فراق بني عبس ، ويحاول أن يجعل قومه يشاركونه الحسرة والألم ، بوصفه جموع عبس ، وشجاعتهم ، وأنهم بانضمامهم لبني عامر قد فقدت ذيبيان أخوتهم

أبلغ بني ذيبيان أن لا أخا لهم بعبس إذا حلوا الدماخ فأظلمها (١)
بجمع كلون الأعبل الجون لونه ترى في نواحيه زهيراً وحذيماً (٢)
هم يردون الموت عند حياضه إذا كان ورد الموت لا بد أكرما
ويعير بني عبس هذا الهوان ، واللجوء إلى أعدائهم الألداء :

جزى الله عبساً عبساً آل بغيص جزاء الكلاب العاويات وقد فعل
أأصبحتم والله يفعل ذاكم يعزكم مولى مواليكم شكل (٣)

ولم يكن هذا شعور النابغة وحده نحو بني عبس ، بل كان شعور قبيلته كلها وعلى رأسها آل بدر ، ولقد همَّ عيينة (٤) أن ينقض حلف بني أسد لأنهم قتلوا رجلين من بني عبس انتقاماً لمقتل فضلة الأسدي ، ولكن النابغة كان حكيماً لا ينساق وراء عاطفته فهو وإن كان يحب بني عبس ويود أن يتم الصلح بينهم وبين قومه ، إلا أنه لا يفرط

(١) الدماخ : جبال عظام ضخام واحدها دمح وهي منازل بني عامر ، وأظلم : موضع
(٢) الأعبل : الجبل الأبيض الحجارة ، والجون : من الأضاد ، وهو هنا الأبيض ، وشبه جموعهم بالجبل الأبيض لأنها تشرق من كثرة السلاح ، وهذا التعظيم تليق لبني ذيبيان عليهم
(٣) بنو شكل من بني عامر وكانوا قد نزلوا بهم (راجع ص ٧٦) . ويعزكم : أي يغلبونكم في المعازة ويصيرون أعز منكم والمعنى : أن موالي بني شكل أعز لديهم منكم وهذه منزلة لا تليق بكم .
(٤) الراجح أنه عيينة بن حصن الفزاري لأن حصناً قد مات ورثاه النابغة .

في بني أسد بأى ثمن كان ، ولا يستطيع أن يحدد فضاهم ، ولذلك حذر عينة مما هم به ، وأخذ يمدح بني أسد بقصيدة رائعة تعد من عيون الشعر العربى وفيها يقول مخاطباً عينة .

أَلَيْكُنِي يَا عَيْنُ إِلَيْكَ قَوْلًا	سأهديه إليك : إليك عني ^(١)
قَوَانِي كَالسَّلَامِ إِذَا اسْتَمَرَّتْ	فليس يرد مذهبها التظنى ^(٢)
بَيْنَ أَدِينٍ مَنْ يَبْغَى أَذَانِي	مدابنة المداين فليدني ^(٣)
أَتُخَذِلُ نَاصِرِي وَتُعِزُّ عَبَسَا	أيربوع بن غيظ للمعن ^(٤)
كَأَنَّكَ مِنْ جَمَالِ بَنِي أَفَيْشٍ	يقعقع خلف رجليه بشن ^(٥)
تَكُونُ نَعَامَةً طَوْرًا وَطَوْرًا	هوى الريح تنسج كل فن ^(٦)
تَمَنِّ بِعَادِهِمْ وَاسْتَبِقْ مِنْهُمْ	فإنك سوف تترك والتمنى ^(٧)

(١) ألك بين القوم ألكا من باب ضرب وألوكا أيضاً ترسل واسم الرسالة مالك بضم اللام ومألكة ولاهما تظم وتفتح . والمعنى : إني أرسل يا عين إليك قولاً سأهديه إليك . إليك عني : أى تنح وخذ حذرك .

(٢) السلام : جمع سلامة على وزن كلمة وهى الحجر ، والتظنى : إعمال الظن وأصله التظان والمعنى : أن هذه القوافى كاللحجارة فى قوتها ، وإذا أطلقت فلن يردّها عن وجهها التردد والظن

(٣) أدين : أجزى . فليدني من شاء فلن يستطيع ذلك ، أو أناله كفاء وند

(٤) يربوع بن غيظ : رهط النابغة ، والمعنى : من يدخل فيما لا يعنيه ويتعرض لكل شيء ، ويربوع ويربوع : والمعنى : يا يربوع بن غيظ لهذا العابت — فلهزمة للتداء ويربوع منصوبة وهذا جائز لأنها وصفت بابن — ولكل من يدخل فيما لا يعنيه ، حتى لا تؤذى من جراء عبثه وفضوله ، وفى هذا توبيخ وتقرير شديد لعينة ، وحرص من النابغة على مصلحة رهطه .

(٥) أفيش : أبوحى من عكل ، وجمال بنى أفيش غير عتاق وتنفر من كل شيء . والشن : القربة الخلق الصغيرة ، وقعقع الشيء : صوت ، وفلان يقعقع له بالشنان : يروعه مالا حقيقة له . والمعنى : يؤنب عينة على فزعه ونفسكيره فى قض حلف بنى أسد لأن عبساً غاضبة لمقتل رجلين منها فى مقابل نضالة الأسدى وهذا تمام ثقة من النابغة بأسد .

(٦) تكون مثل النعامة فى تفورها وفزعها وجريها ، وأحياناً تهب كالريح التى تنسج على الأرض طرائق مختلفة ، ويريد أنه يأتى بأشياء غير معقولة ويهب فجأة كالريح

(٧) بعادهم هلاكهم ، واستبق نفسك منهم وسوف تجد نفسك وحيداً ولن يفيدك التمنى شيئاً

لدى جرعاء ليس بها أنيس
إذا حاولت في أسد جفورا
فهم دُرعى التي استلّمت فيها
وهم وردوا الجفار على تميم
شهدت لهم موطن صادقات
وهم ساروا الحُجَير في خميس
وهم زحفوا لغسان بزحف
بكل مُجَرَّب كالليث يسمو
وضمر كالقِداح مَسُومَات
غداة تعاورته تسم بيض
ولو أنى أظعتك في أمور
فأنت ترى النابغة في هذه القصيدة يقف من عيئة وأغلب الظن أنه عيئة بن حصن

- (١) الجرعاء : الفلاة : والمطمئن : الآمن
(٢) النصار : ماء لبني عامر كانت فيه موقعة . والحجن : الترس . واستلام : لبس اللأمة وهي الدرع
كان بنو أسد له درعا ومجنا في يوم النصار هذا
(٣) الجفار : ماء لبني تميم . ويوم عكاظ كان بينهم وبين قريش
(٤) حجر آكل المرار والد امرئ القيس الشاعر ، وقد قتله بنو أسد وفي ذلك يقول امرؤ القيس :
أتاني حديث فكذبه بأمر ترزعزعه منه القليل
بنو أسد قتلوا ربهم ألا كل شيء سواه جليل
والخميس : الجيش
(٥) السرب بالفتح وبالكسر : الطريق . ومسيل الماء ، شبههم بالسيل ، والأرعن : الجبل ذو الأنوف البارزة ، فيشبه الجيش ذا الفضول بالجبل الأرعن . والمرجحن : الثقيل
(٦) الأوصال : المفاصل أو مجتمع العظام . جمع وصل . ذبال : ذو الذيل . والرفن : طويل الذيل
(٧) شبه الخيل الضامرة بالسهم . مسومات : معلمات لها دراية بالحرب
(٨) تعاورته : تداولته وتعاقبته . والبيض : السيوف . والرهج : الغبار الثائر . والمسكن : الساتر

ابن حذيفة الفزارى ، وكانت له رئاسة ذبيان بعد أبيه ، واشتهر بالحق ، ووصفه رسول الله صلى الله عليه وسلم بالأحق المطاع - موقفاً فيه تأنيب وتقريع . ويصفه بالحق والفرع لأوهى الأسباب ، ويشبهه بالنعامة لجبنها ، والريح الهوجاء فى هبوبها لا تدرى ماذا تفعل ؛ ثم يذكره بمواقف بنى أسد التى شهدها النابغة طواعية ومحبة منه لهم ، فقد أعانوه فى يوم النصار ، واقتحموا الجفار على بنى تميم ، وانتصروا على قريش وهم الذين قتلوا حجر أملك كندة ، وهم غزوا غسان ، وما أدراك ما غسان ؟ ، وأخيراً يقول له : لو أطعك فيما ذهبت إليه لندمت ندامة عظيمة . وهذا كلام الشيخ الذى حنكته التجربة للشباب اليافع الذى ورث الرئاسة عن أبيه ، ولا يقدر العواقب .

الصراع

وعلى الرغم من كثرة المواقع بين عبس وذبيان فلم يتعرض النابغة فى شعره لذكر هذه الملاحم ، ولم يهين قومه بانتصارهم حين ينتصرون ، أو يشمت بعبس حين ينهزمون . أترى النابغة كان قعيد بيته يترقب أنباء القتال عن بعد من غير أن يشترك فى المعركة ويخوض غمار الوغى ؟ إن فى شعره ما يدل على أنه كان فى الرعيل لأول من المحاربين :

لقد لحقت بأولى الخيل تحملنى كبداء لاشنج فيها ولا طنَّب (١)
مارية مثل مرى الدلو مركضة إذا الحوالب فى الأعطان تنحلب (٢)

ولقد أصيب يوم القنين هو وسان ويدر بن عقبة بن مالك بن حذيفة فقال يحض خارج بن سنان ومن معه على النجاة من الأسر :

(١) الخيل : الفرسان . كبداء : أصلها القوس ملء اليد وشبه بها الفرس . والشنج : تقبض فى الجلد والطنب : طول فى الرجاءين فى استرخاء ، وطول فى الظهر ، وهو عيب
(٢) المارية : القطة الملساء . شبه الفرس بالقطة ثم شبهها بالدلو فى انصبابها . وأصل المرى الإدرا من أمرت الناقة در لبنها . وناقة مرى : غزيرة اللبن . ومركضة : تركض الأرض بقوائمها . وقد وردت هذه الأبيات فى قصيدة له بخطوطه (ساوة) ص ٢٦

إنا أناس طالِبون تَرَاتِنَا فالحق بأرضك خارج بن سنان
لا أعرفن شَيْخاً يُجَرِّ برجله بين السكثيب وأبرق الحنَّان (١)
أجل ! لم يكن النابغة من الفرسان المعلمين مثل عنتره العبسي ، وعامر بن الطفيل
وأضراهما ، ولذلك لم يكن له في هذه الحروب مواقف يتغنى فيها بشجاعته وفروسيته ،
ثم إن الحرب الطويلة بين عبس وذبيان كانت حرباً بين إخوة وأبناء عمومة ، ولذلك
لم يفخر بانتصارات قومه على بني عمومتهم ، ولم يتعرض لذكر عبس بسوء إلا في
موضع الشماتة لما أصابهم من الذلة حين لجئوا إلى عدوهم المشترك بني عامر ، وها هو ذا
يشمت بقيس بن زهير وقد قال شعراً يتأسف فيه على ما صارت إليه حال عبس مع
بني عامر :

ابك بكاء السَّداد إنك لن تهبط أرضاً تحبها أبداً (٢)

نحن وهبناك للجَرِّيش وقد جاوزت في الحى جعفرأ عدداً (٣)

ومع أن عنتره كان من الفرسان المغاوير الذين أبلوا في هذه الحروب الطاحنة بلاء
حسناً وكانت له مشاهد صدق في كل موقعة ، فإنه لم يتعرض لدم ذبيان أو يعيرهم بهزيمة
أو يهجوهم مرة ، ولكنه كان يشيد بمواقفه وببطولته ، ولا سيما في المعارك التي كانت
بين غطفان وبني عامر ، أما حرب داحس والغبراء فكان يتغنى فيها بانتصاراته على
على حلفاء ذبيان كتميم وأسد دون أن يمس بني عمومته بسوء ، وموقف النابغة وعنتره
في هذه المعارك ، وعدم تعرضهما لوصفها ، وهجاء مناوئتهم والشماتة بهم ، أو تحميس
قريش لإبان المعركة ، يرجع إلى أنها كانت حرباً عارضة ، أسف الجميع لنشوبها بين
أبناء عمومة تربطهم صلات النسب والقربى وطول العشرة ؛ ولذلك لم يلبث بنو عبس

(١) الأبرق والبرقة بضم الباء : الأرض الغليظة أو الرمل . وأبرق الحنَّان : مكان

(٢) السداد : الاستقامة والتوبة وقد ورد هذان البيتان في شعراء النصرانية ص ٩٣٠

(٣) الجريش . الرجل الصارم النافذ ويقصد أنه تركه لمن يسومه الحسف وسوء العذاب وإن جاوز
في عدده بني جعفر بن كلاب وهو أبو رهط من عامر ، وفي ذكر جعفر تعريض وتذكيرة بوترهم القديم لدى بني
جعفر بن كلاب

أن ندموا على تطوافهم بالجزيرة العربية ونزلهم بشتى القبائل ، وأدركوا أن بنى عمومهم أبر بهم من سواهم ، وأن نارهم أبرد من جنة غيرهم . ولم يشهد النابغة خاتمة هذه الحرب الضروس ، ولكن شهدا زهير بن أبى سلمى ، وأغلب الظن أن عنتره قد رأى هذه النهاية ، واسكنه كان شيخاً كبيراً حينذاك .

• وإذا كان النابغة قد خص بعداوته بنى عامر ، وبمحبة بنى أسد فإنه كان يعبر عن شعور قبيلته كلها ، إلا من حاول أن يشذ منها وهم قليل . ولقد وقف بجانب قومه فى غاراتهم المتتابعة على ديار الغساسنة ، ينصحهم ، ويشجعهم ، ويثبط همم غسان عن غزوهم ، ويخوفهم من الجموع التى أعدها هؤلاء لهم ، ويريد أن يوفق ما استطاع بين محبة لقومه ، وحرصه على إرضاء الغساسنة ، فهو يعتذر إن أجرم قومه ، وينفى عنهم العدوان أحياناً . وكان يعز عليه ويحز فى نفسه أن يرى نساء قومه أسرى فى يد الغساسنة ، اسمعه يقول حين أغار قومه على (ذى أقر) — وهو واد خصيب كان قد حماه النعمان بن الحارث الغساني ، وقد نهاهم النابغة عن هذا العدوان فلم ينتهوا ، وعيروه خوفاً من النعمان ، وقد وجه إليهم الغساسنة من أديهم على تجرؤهم هذا ، وفى ذلك يقول النابغة :

لقد نهيتُ بنى ذبيانَ عن أَقْرِ وعن ترَبِّعِهِمْ فى كلِّ أَصْفَارٍ ^(١)
وقُلْتُ يا قومُ إنَّ اللَّيْثَ مَنْقَبُضٌ على برائته للوثبة الضارى ^(٢)
لأعرفنَّ ربَّ ربِّ بَأْحُورٍ أمدامِمْها كأنَّ أبكارها نِعَاجُ دُؤَارٍ ^(٣)

(١) التربع : الإقامة فى الربيع ورعى ما أنبتته الغيث ، وأصفار : يقول الأصمعي إنها جمع صفر — يربد الشهر — وكان حينئذ فى الربيع ، ويقول البطليوسى : حين يصفر الماء ويتربل الشجر ويبرد الليل وذلك فى آخر الصيف . وفى القاموس الصفرية — تولى الحر وإقبال البرد

(٢) الضارى : المعتاد . يصف الملك بأنه مستجمع للغزو والثوب فعل الأسد الضارى

(٣) الربرب — القطيع من البقر ، وهوراً : واخحات البياض والسواد وهو جمع حوراء والخور : شدة البياض فى شدة السواد ؛ ودوار ما استدار من الرمل . أى لا تكونوا فى مكان تسبى فيه نسلؤكم

يَنْظُرْنَ شَرَّراً إِلَى مَنْ جَاءَ عَنْ عَرْضِ
بِأُوجِهِ مُنْكَرَاتِ الرِّقِّ أَحْرَارِ^(١)
خَلْفَ الْعَضَارِيطِ لَا يُوقِينَ فَاحِشَةً
مُسْتَمْسَكَتٍ بِأَقْتَابٍ وَأَكْوَارِ^(٢)
يُذْرِينَ دُمْعاً عَلَى الْأَشْفَارِ مَنْحَدِراً
يَأْمُلْنَ رِحْلَةَ حِصْنٍ وَابْنِ سَيَّارِ^(٣)

ففي هذه الآيات تبشيع للحالة التي سيكون عليها نساء ذبيان وبناتها حين يسقن إلى الأسر يلتفتن يمنة ويسرة رجاء أن يرين من ينقذهن، ولهن وجوه لم تتعود العبودية وتستنكرها، وقد تركزن للأتباع والأجراء يعبثون بهن، ولا يستطعن اتقاء الفاحشة لأنهن مملوكات، ولا يملكن إلا مسح الدموع من العيون، وأملهن في أن يتقدم حصن ابن حذيفة سيد ذبيان وابن سيّار لفك أسرهن. وهذا الوصف الذي ساقه النابغة للأسيرات المقهورات يهز مشاعر القوم، ويجعلهم يحجمون عن العدوان، ولكونها الحاجة الملحة، وبخل السماء، وجذب الأرض، وقلة المرعى، وشدة الجوع كانت تدفعهم دفعاً إلى المغامرة في سبيل الحياة، وحفظ الرمح، وتطغى عليهم فلا يفكرون في المصير.

وإذا كان النابغة يحذر قومه من هذا المصير البشع لنسائهم الحرائر، ويخوفهم بطش الغساسنة، فإنه كان يخوف الغساسنة بأس قومه، وحلفائهم إذا عزموا على غزوهم، وكان النابغة يحالف بني عذرة (من قضاة) في حرب الغساسنة وهم يقيمون قريباً من ديارهم، وهذه سياسة منه، وقد عزم النعمان بن الحارث الغساني على غزو بني حنّ بن حزام، وهم من (عذرة)، وكانوا قبل ذلك قتلوا رجلاً من طيء،

(١) الشّرر: النظر بمؤخر العين، والعرض: الجانب والناحية

(٢) العضاريط الأتباع والأجراء. والأقتاب: عيدان الرحل، والأكوار: الرحال

(٣) الأشفار: ج شفر وهو هذب العين. يعني دمعين منحدر على الخدين، قال ابن الأعرابي: كان

يقال لبني سيّار الشوك منهم قطبة وعوسجة وقتادة وطلحة وكان قطبة سيدهم وخزيمه فارسهم

وأخذوا امرأته ، وغلبوا على واد القرى وهو كثير النخيل ، ونهاه النابغة عن غزوهم وأخبره أنهم في حرّة ، وبلاد شديدة ، فأبى ، فبعث النابغة إلى قومه يخبرهم بغزو النعمان ويأمرهم أن يمدوا بني حن ففعلوا ، وبذلك هزموا غسان فقال النابغة :

لقد قلت للنعمان يوم لقيته يريد بني حن ببرقة صادر^(١)

تجنب بني حن فإن لقاءهم كرية^(٢) وإن لم تلق إلا بصابر

هم منعوا وادى القرى من عدوهم بجمع مبير للعدو المسكائر^(٣)

العراقية زبيدة والسنة

وعلى الرغم من ذلك فإن النابغة كان يتمتع بمنزلة عظيمة لدى الغساسنة ورجالهم وأغلب ظني أن هذه المنزلة لا ترجع إلى أنه شاعر يثنى عليهم ، ويشيد بأعمالهم المجيدة فحسب ، ولكن لأن النابغة في ذلك الوقت صار رجل سياسة قد جمع حوله وحول قبيلته أحلافاً أقوياء ، وفي استطاعتهم أن يقضوا مضاجع الغساسنة ، وأن يغيروا على أطراف دولتهم في كل آونة ، وأن يعينوا أعداءهم المناذرة في تلك الحروب الطويلة التي طالما شنوها عليهم ، والتي أوردنا طرفاً منها آنفاً . فإرضاء النابغة ، واصطناع السياسة والدهاء معه ، وإكرامه بفك الأسرى الذين يقعون في أيديهم تهدئة لتلك القبائل ، ونشر للأمن والسلام في أطراف دولتهم ، وبجانب هذا مدح من النابغة الشاعر المسموع الحكمة في قبيلته وحلفائها لهم ، وإذاعة لأريحياتهم وكرمهم فتحبهم القبائل ولا يمالئون أعداءهم . ولقد أغار النعمان بن وائل بن الجراح ذات مرة على بني ذبيان وأسروا منهم عدداً ، وكان في هذا السبي عقرب بنت النابغة فلما عرفها قال لها : والله ما أحد أكرم علينا من أهلك ، وما أنفع لنا عند الملك ، ثم جهزها وخلّاها ، ثم قال : والله ما أرى النابغة يرضى بهذا منا ، فأطلق له سبي غطفان وأسراهم .

(١) البرقة : الأرض ذات الرمل والحصى ، وصادر : اسم موضع

(٢) أي برجل صابر ، فإنهم أشد صبراً ممن يلقاهم وإن بلغ الغاية في الصبر

(٣) مبير : مهلك

وكان النعمان بن الجراح هذا قائداً للحارث بن أبي شمر الغساني . فلم يكذ النابغة
يسمع بهذه الأريحية ، وياكرامه وهو غائب ، حتى أثنى على ابن الجراح ، واصفاً
غزوته لبني ذبيان ، وكيف سبي البنات الغرائر ، واستطرد إلى وصف حالتهن وهن
في الأسر ، ثم قال : إن الشكر أصبح واجباً عليه ولا بد من رحلة يقوم بها لتقديمه
هذا الشكر ، وهو وإن لم يسبق له أن مدح رجلاً من السوق ، وإنما كان مديحه وقفاً
على الملوك ، إلا أن ابن الجراح هذا أطلق بفعاله الكريمة لسانه بالثناء عليه ،
وفي ذلك يقول :

لعمري لنعم الحى صبيح سربنا	وأيماتنا يوماً بذات المارود ^(١)
فآب بأبكار وعون عقائل	أوانس يحمها امرؤ غير زاهد ^(٢)
يخططن بالعيدان في كل مقعد	ويخبأن رمان الشدي النواهد ^(٣)
ويضربن بالأيدي وراء براغز	حسان الوجوه كالظباء العوافد ^(٤)
غرائر لم يلقين بأساء قبلها	لدى ابن الجراح ما يشقن بوافد ^(٥)
أصاب بني غيظ فأضحوا عباده	وجاءلها نغمى على غير واحد ^(٦)

- (١) صبح القوم : أغار عليهم صباحاً ، والسرب : الجماعة ، وذات المارود : موضع بديار غطفان
(٢) العون : ج عوان وهي المرأة المتزوجة وعقائل : ج عقيلة وهي التي يحافظ عليها ، وغير زاهد : إما
ذلك الذي أسره فهو يعبت بهن ، وإما أنهن كن في حامية من لا يقر عليهن ويمتنعن بكل متع الحياة ،
والأول هنا يناسب المعنى العام
(٣) في هذا البيت تصوير بديع لهؤلاء النسوة وهن يخططن بالعيدان في كل منزل تنزل به قافلة
الأسري شأن المهموم الذي غلبه الحزن . وهن مع ذلك في غاية الحياء
(٤) البراغز : ج برغز كجعفر وقنفذ وهي بقر الوحش أو أولادها يقول : إن بقر الوحش أو أولادها
لا ينفر منهن بل يتقبل عبثهن معه ويضربن بأيديهن ظهور هذه الأبقار وذلك لملاحة هؤلاء النساء كأنهن
الظباء التي تثنى أعناقها وهي أملح في هذا الشكل
(٥) غرائر : ج غريرة وهي الساذجة التي لا تجربة لها ، وما يشقن بوافد : اتقطع أمهلن من الخلاص
لأنهن في حوزة هذا الرجل الشجاع
(٦) بنو غيظ : رهط النابغة ، وجللها نغمى . يشير إلى أنهم بعد أن صاروا أرقاء له فك أسره
وأنعم بذلك على غير واحد

فلا بُدَّ من عوجاء تهوى براكب ^(١) إلى ابن الجلاح سيرها الليل قاصد
تخب إلى النعمان حتى تناله ^(٢) فدى لك من رب طريفي وتالدي
فسكنت نفسي بعدما طار روحها ^(٣) وألبستني نعمي ولست بشاهد
وكننت امرءاً لا أمدح الدهر سوقه ^(٤) فلست على خير أذاك بحاسد
علوت معداً نائلاً ونكايه ^(٥) فأنت لغيث الحمـد أول رائد

ولم يختص النابغة بجاهه وشفاعته قومه وحدهم ، بل كان يتشفع لأحلافهم ولا سيما بني أسد ، وقد رأينا حرصه عليهم وعلى مرضاتهم ، فقد أغار الحارث بن أبي شمر على بني أسد منتقماً منهم لغارة سابقة على حماه ، وكان النعمان بن الحارث واجداً على حصن ابن حذيفة الفزاري معتقداً أنه هو الذي يحرض القبائل على انتقاص أطرافه ، والتعدي على أملاك غسان ، وأنه هو الذي قادهم في العام السابق لهذه الغزوة ، وقد أسر الحارث عدداً كبيراً من بني أسد وفزارة ، فلما ذهب النابغة ليتشفع لهؤلاء الأسرى قال له الحارث : ما رمى بني أسد إلا حصن وقد بلغني أنه لا يزال يجمع علينا الجموع ليغير على أرضنا ، وقال النعمان بن الحارث - وكان شديداً غليظاً - : إن حصناً عظيم الذنب إلينا وإلى الملك ، فنفي النابغة التهمة عن حصن : وفي ذلك يقول مدافعاً عنه وعن

(١) العوجاء : الضامرة من الأبل ، وقاصد : صفة لراكب ، وتقدير البيت : تهوى براكب قاصد إلى ابن الجلاح سيرها الليل . وبذلك لا يكون في البيت إقواء كما في بعض الرايات حيث رويت قاصد بضم الدال (٢) والنعمان . هو ابن وائل بن الجلاح . والطريف : المال المستحدث ، والتالد : المال الموروث (٣) كان النابغة في قلق على بنته وقومه ، فسكن نفسه بإطلاق الأسرى إكراماً له ولبنته ، وهو غير موجود ، وهذا نهاية الكرم

(٤) قد يخيل إلينا أن هذا البيت فيه شيء من قلة الذوق ، لأنه يصفه بأنه من السوق ويقول : إنه لم يمدح سوقه قبل اليوم . ولكن هذا الأسلوب مستساغ في عصر النابغة لأن السوق معناها الرعية أي دون الملك ، وهذه اللفظة للواحد والجمع والمذكر والمؤنث ، ومما يدل على أن ليس في البيت إهانة أنه قال في الشطر الثاني : إنه لا يحسده على هذا الخير العظيم الذي جعله يلهج الألسنة بالثناء عليه ويكون أول رجل في الرعية يمدحه شاعر مثل النابغة ؛ وذلك لأن المديح لم يكن قد ابتذل ، إذ كان في أول عهده

(٥) معداً : أبو العرب المستعربة ، ومنهم كان وائل بن الجلاح ، ونائلاً : عطاء ، ونكايه : تنكيلا بالأعداء . وفي الشطر الثاني تأكيد لمعنى البيت الذي قبله .

بني أسد ، واصفاً انتقام الغساسنة منهم استدراراً لعطف الحارث بن أبي شمر
وولده النعمان :

إني كأتني لدى النعمان خبره
بأن حصناً وحياً من بني أسد
ضلت حلومهم عنهم وغرهم
قاد الجياد من الجولان قائضة
إلى أن يقول :

وما بحصن نعباس إذ ثورقه
ظلت أقاطيع أنعام مؤبلة
فأذوقيت بحمد الله شرتها
فأبجى فزار إلى الأطواد فاللوب

(١) النعمان : هو ابن الحارث بن أبي شمر ، والأود : ج ود . قال الأصمعي : كأتني عنده حاضر من
علمي بالقصة وقد أخبر بعض وده عن حصن ورهطه ، وعن بني أسد حلفاء قومه بأنهم يسعون عليه ،
ويقولون نحن في أمان فحمانا لا يقرب ولن يستطيع الانتقام .

(٢) الحلوم : العقول ، والسن : حسن القيام على الرعي والماشية ، والمعيدى : تصغير معدي نسبة إلى
معد ، والألف واللام فيه للجنس لأنه لا يريد واحداً بعينه ، وخفف الدال لأن الباء مشددة بعدها ، والتعزيب
أن يبيت الرجل بماشيته في المرعى لا يريحها لأهلها . يقول اغتر هؤلاء الرعاة بانسباط أموالهم في مراعيها ،
وصغرهم تخفيرا لهم وتعظيماً لشأن الغساسنة الذين أغار عليهم هؤلاء الرعاة

(٣) الجولان : على حدود غسان وهي من مدنها ، وقائضة : غزت في القبط وهو وقت لا يغزى
فيه لتعذر الماء والسكلاء وذلك لشدة عزمه وصبره . ومنعلة : ألبست نعلا لحفاؤها ، وترجي : تساق ،
والجنوب : المقود

(٤) الأمرار : مياه في ديار بني أسد والمحروب : الذي سلب ماله ، والمعنى : أن أصوات بني أسد
وقد حاربوا وأوقع بهم النعمان لما سمعها حصن الفزاري أرق المأسا وجزع لها

(٥) الأقاطيع : ج قطع على غير قياس ، وهي الطائفة من الأبل ، والمؤبلة : التي تتخذ للقفية لا تتركب
ولا تستعمل ، والزوراء : مسكن بني حنيفة وهي أدنى بلاد الشام إلى الشيخ والقيصوم والمعنى ظلت أنعام بني
أسد في هذا الموضع

(٦) اللوب : ج لابة ولوبة وهي الحرة . إن فزاراً لم تغز في هذه المرة ووقيت شر الغزو ولذلك يدعوها
إلى النجاة والاعتصام بالجلال الشاخنة والحرار المستعصية على الغزاة قبل أن يتجه إليهم ويوقع بهم

ولا تلاقى كما لاقت بنو أسد فقد أصابتهم منها بشؤبوب^(١)
 لم يبق غير طريد غير منفلت وموئيتي في حبال القد مسلوب^(٢)
 أو حرّة كهاة الرمل قد كُبلت فوق المعاصم منها والعراقيب^(٣)
 تدعو قعيناً وقد عض الحديد بها عض الثقاف على صمّ الأنابيب^(٤)
 وقد استجاب الغساسنة لشفاعته ، وأطلقوا له الأسرى جميعاً ، وبذلك أضاف يداً
 من أياديه البيضاء على بنى أسد جعلهم يحرسون على معونته ومعونة قومه في حروبهم
 كما كان يحرس على مرضاتهم ، ويتغنى بشجاعته وعظيم بلائهم .
 وهكذا كان يتمتع النابغة بمنزلة لا تداني لدى بنى غسان جعلته يهيج بالثناء عليهم
 وما تشفع مرة إلا وقبلت شفاعته ، وأكرم الأسرى ورجعوا إلى ديارهم مزودين
 بالعطايا والهبات سياسة من الغساسنة ، وإكراماً للشاعر الفحل ، ولا عجب بعد ذلك
 حين نراه يقول فيهم^(٥)

ولله عيناً من رأى أهل قبة أضّر لمن عادوا وأكثر نافعاً
 وأعظم أحلاماً وأكثر سيدياً وأفضل مشفوعاً إليه وشافعاً
 متى تلقهم لا تلق للبيت عورة ولا الضيف ممنوعاً ولا الجار ضائعاً
 أو حين يقول في بعض اعتذار يانه للنعمان بن المنذر

(١) الشؤبوب : الدفعة من المطر بشدة ، يدعوه ألا يقيموا بمكان يلاقون فيه ما لاقت بنو أسد
 (٢) القد : الشراك يشد بها الأسير ، والطريد : الذي طرده الخوف ، وفي تصويره لحالة بنى أسد
 تلك وهم ما بين طريد لم ينج من الخوف والفرع فهو بمثابة الأسير ، وما بين مقيد في أغلال الأسر حفز لغزارة
 على النجاة ، واستدرا لعضف الغساسنة
 (٣) المعصم : موضع السوار من اليد ، والمهاة : البقرة الوحشية تشبه بها المرأة لجمال عيونها ،
 ووئيد خطوها
 (٤) قعيناً : بطن من بطن أسد ، والثقاف : خشبة تقوم بها الرماح ، والأنابيب جمع أنبوب وهي كعوب
 العضا . يقول : عض الحديد معاصم هذه المرأة فجعلت تستغيث بقومها
 (٥) هذه الأبيات نشرت في مخطوطة (ساوة) ص ٥٢ ، وذكر البيت الأخير في ملحق ابن الوردة

ملوك وإخوان إذا ما أتيتهم أحكم في أموالهم وأقرب

وعلى الرغم من هذه المسكنة الممتازة التي كان يتمتع بها النابغة لدى الغساسنة ، فيقضى حوائج قومه ، ويفك العاني ويعين المحتاج ، ويحفظ لقومه أحلافهم مطوقين بمنته ، وجميل أياديه فلا يتقاعسون عن نصرتهم حين يحز بهم الأمر ، ويغير عليهم أعداؤهم فإن قوم النابغة لم يحفظوا له هذه الأيادي المفضلة ، وقد رأينا فيما سبق كيف طلق يزيد بن سيار بنته ، وجمع عليه الجموع يعادون رهطه وعشيرته ، ونسى ونسيت هذه الجموع معه ما يقدمه النابغة لهم من نعم ، ولذلك أطلقها زفرة حارة مستعيراً مثلاً خيالياً مشهوراً لدى العرب في عدم الوفاء ، وفي الغدر والخديعة يصور به حال قومه هؤلاء الذين تنكروا له ، وعادوه من غير جريرة اقترفها . فقال :

ألا أبلغا ذياناً عني رسالةً فقد أصبحت عن منهج الحق جائره
أجدكم أن تزجروا عن ظلامته سفيهاً ولن ترعوا لذي الودّ آصره ^(١)
وإني لألقى من ذوى الضغن منهم وما أصبحت تشكروا من الوجد ساهره ^(٢)
كما لقيت ذات الصفا من حليفها وما انفكت الأمثال في الناس سائره ^(٣)
فقلت له : أدعوك للعقل وأفيا ولا تغشيني منك بالظلم بادره ^(٤)

(١) الآصرة : العلاقة (٢) ساهرة : مؤرقة من الوجد

(٣) ذات الصفا : زعموا أن أخوين خربت بلادهما ، وكانوا قريبين من واد فيه حية قد حتمت فلا ينزله أحد ، فزله أحدهما يرعى فيه إبله ، وكان أخوه قد حذر به بطش الحية فلم يستمع إليه ، ورعى فيه زماناً ثم نهشته الحية وقتلته ، فأراد أخوه أن يأخذ بثأره ويقتل الحية ، فزعموا أنه حينما قابلهما ندمت الحية على ما فعلته ، وصالحته على أن تدفع دية أخيه في كل يوم ديناراً ، وحلفت له وحلف لها ، وأخذت تعطيه عقل أخيه فكثر ماله ، ثم قال لنفسه ما فائدة هذا المال وأنا أرى قاتل أخى ، فعمد إلى فأس فأحدها ، وترقبها على باب جحرها ، ثم نادى فخرجت له وضربها بالفأس ضربة أخطأت رأسها وقطعت جزءاً من ذنبها ، وقالت له لبس بيننا إلا العداوة نخذ حذرنا منذ اليوم ، ولما أراد أن يقنعها بالعودة إلى ما كانا عليه من صلح قالت له كيف أعادوك وهذا أثر فأسك وأنت فاجر لا تبالي بالمواثيق . وهذا هو حديث الحية الذي نظمته النابغة هنا .

(٤) العقل : الدية

فوائدها بالله حين تراضيا فكانت تدريه المال غباً وظاهره
فلما توفي العقل إلا أفلته وجارت به نفس عن الحق جائره
تذكر أني يجعل الله الجنة فيصبح ذا مال ويقتل واثره (١)
فلما رأى أن ثمر الله ماله وأئل موجوداً وسد مفقره (٢)
أكب على فأس يحد غرابها مذكرة من المعاول بآثره (٣)
فقام لها من فوق جحر مشيد ليقتلها أو تخطى الكف بآدره
فلما وقاها الله ضربة فأسه وللبر عين لا تغمض ناظره
فقال تعالى نجعل الله بيننا على مالنا أو تنجزى لي آخره
فقلت : يمين الله أفعل إني رأيتك غداراً يمينك فآجره (٤)
أبي لي قبر لا يزال مقابلي وضربة فأس فوق رأسي فآقره (٥)

وبهذا المثل الواضح صور النابغة حاله مع هؤلاء الذين جحدوا فضله ، وحسدوه
مكانته وعفته ومنزله بين القبائل ولدى الملوك .

ولقد رأينا في هذا الفصل كيف أن شؤون القبيلة وسياستها وحروبها قد احتلت
جزءاً كبيراً من شعر النابغة ، وتفكيره ، وكذلك كانت مهمة الشاعر الذي يقدر
التبعات ويعرف لقومه حقهم عليه ، وقد أفاد النابغة من الاهتمام بالسياسة القبلية
مغنيين : أولها خاص به وهو أنه صار وجيهاً مسموع الكلمة مقبول الشفاعة محبوباً

(١) جنة : مكان يتقى فيه شرها ، وأنى بمعنى متى أو كيف

(٢) أئل المال : نماه وزكاه ، ومفقره : جمع فقر ، وسد مفقره أى وجوه فقره

(٣) غرابها : حدها . ومذكرة صلبة جيدة الحديد ، وباترة قاطعة

(٤) يمين الله أفعل : على حذف أداء النفي أى لا أفعل

(٥) قبر أخيه الذى قتلته فهذا القبر يبعث في نفسه الرغبة في الانتقام فلا تأمن له بعد ذلك ، وأثر

ضربة الفأس تدعوها إلى عدم مصالحته ، وفاقرة : داهية ومهلكة

من الحلفاء الذين اصطنعهم وأسبغ عليهم فضله ، وإن حسده بعض من أكل الضغن قلوبهم شأن كل المصلحين في العالم لا يعدمون شأنًا وحاسداً يحقد عليهم ما منحهم الله من فضل وخير ، وثانيهما عام وهو أنه حفظ لقييلته حلفاءها وعزها فانتصرت في حروبها ولم ترزأ في أموالها فزادت قوة وغنى .

- ٤ -

اتصاله بالنعمان بن المنذر :

✕ تولى النعمان بن المنذر أبو قابوس عرش الحيرة - كما عرفنا - نحو سنة ٥٨١ م وكان من الملوك ذوى الهمم العالية ، والعزائم الجبارة ، ظهر ذلك في محاولته التغلب على الغساسنة ، والانتقام للهزائم التى منى بها قومه على أيديهم من قبل ، ولا سيما يوم حليلة ويوم عين أباغ ، ويوم إحراقهم الحيرة

وقد أحاط النعمان ماله بألوان زاهية من الترف ، جعلته مقصد الشعراء من جميع أنحاء الجزيرة ، وأجزل لهم العطاء ، فكانوا يمدحونه ، ويقيمون فى بلاطه ما شاءوا ثم يعودون إلى ديارهم ، وقد غمرهم بجوده يتغنون بما أثره ، وقد ذكرنا آنفاً بعض من وفد عليه من الشعراء ، وطرفا من حياته عند الكلام على بيئته النابغة ^(١)

وما أن ذاع صيت النعمان فى أنحاء الجزيرة حتى وجد النابغة - وهو الشاعر الفحل - أن الفرصة مواتية لكي يصل ما انقطع بينه وبين ملوك الحيرة . فترك الغساسنة إلى حين وقدم على النعمان بن المنذر ، فاستقبله بكل ما يليق بهذا الشاعر العظيم من الحفاوة والكرم ، وبهذا السياسى المحنك والزعيم القدير ، مدركاً أن مثل النابغة - وهذه منزلته - لو شاء لرجح كفة المناذرة فى حربهم الضروس مع أعدائهم الغساسنة بانضمام قومه وحلفائهم إلى جيش الحيرة

(١) راجع ص ٨٧ من هذا الكتاب

وقد وجد النابغة لدى النعمان ما حجب إليه الإقامة ، بل الانقطاع إليه ، على الرغم من أن منح الغساسنة كانت لا تزال تملأ جوانب بيته ، وفيها تحف الذهب والفضة ^(١) وليس هذا نكراً لجميلهم ، ووجوداً لا ياديهم ، فإن النابغة قد وطد علاقته بهم حتى صارت أخوة ، ثم إنه أدرك مكانته السياسية ، وأنه يستطيع أن يدل بها على من شاء دون أن يخشى بأساً من جفوة ، فما عليه إذاً لو توجه للنعمان ينال من عطاياه كما ينال الشعراء ، وفي الحيرة مكان أوسع لشاعريته ، فهي عربية الصبغة ، لا تزال محافظة على كثير من طباع أهل البادية من كرم ونجدة .

ومع أنه انقطع للنعمان بن المنذر ، فإن باب الغساسنة ظل مفتوحاً له يغشاه في كل آونة ، فلا بدع إن قال فيهم :

ولكنني كنتُ امرأ إلى جانب من الأرض فيه مسترادٌ ومَذْهَبٌ

ويكاد عهد النابغة الذي ياتي مع النعمان يطغى على كل شيء من سيرة هذا الشاعر ، وقد أغفلت كل كتب الأدب العربية حياته قبل أن يتصل بالنعمان ، وكأنما ابتدأت تلك الحياة من يوم أن اتصل به . ويكاد الأدب لا يذكر النابغة إلا مقروناً باسم النعمان ولا يتحدث التاريخ عن النعمان إلا وبجواره اسم النابغة كما حدث مع المتنبي وسيف الدولة فيما بعد

أغرق النعمان على الشاعر العظيم جليل الهبات ، وكان نديماً له يؤاكله ، ويجالسه ويحضر أوقات أنسه ولهو ، ويأكل في صحاف الذهب والفضة ^(٢) ، ويدخل عليه في أي وقت شاء دون استئذان ، ويعامله معاملة الصديق لا معاملة التابع ، هذا له موهبته الأدبية وذاك له سطوته وملكوته ^(٣) ؛ وكان النعمان سخياً مع النابغة حقاً يهبه

(١) راجع 11 . P. 502 de Perceval.

(٢) الأغاني ج ٩ ص ١٧٢

(٣) ديرنبورج ص ٢٢٢

مئات النوق والخيل ، والجوارى الحسان اللاتي ألفن النعمة ، وفي ذلك يقول النابغة
معدداً هذه النعم :

الواهبُ المائة المعكاه زينها سعدان توضح في أوبارها اللبد^(١)
والراكضات ذبول الریط فانقها برّد الهواجر كالغزلان بالجرد^(٢)
والخيل تمزّع غرباً في أعنتها كالطير تنجو من الشؤبوب ذى البرد^(٣)
والأدم قد خيست فتلاً مرافقها مشدودة برحال الحيرة الجدد^(٤)

ومع كل هذا الخير العميم لم نسمع للنابغة في هذه الحقبة التي قضاهها مع النعمان
ابن المنذر شيئاً من المديح إلا القليل ومن ذلك الدالية التي وصف فيها المتجردة ، ولم
يقل هذه القصيدة إلا بعد أن طلب منه النعمان ذلك ~~لا~~ يستعرض لها بعد قليل . فأى
سبب حال بين النابغة وبين الثناء عليه ، وهو يتقلب في أعطاف نعمته ، ويحتل لديه
مكانة أوغرت صدور من حوله ؟ هل كان ذلك سياسة منه حتى لا يغضب الغساسنة
وهو شديد الحاجة إليهم ، لكثرة ما يقع بينهم وبين قومه من مشكلات تدعوه إلى

(١) المعكاه : الغلاظ الشداد وهو اسم يقع على الواحد والجمع ، والسعدان : نبت تسمن عليه الإبل ،
ويغذوها غذاء لا يوجد مثله ، وتوضح : اسم موضع ، واللبد : ما تلبس من أوبارها . والمعنى : إنه يهب
الإبل المؤبلة المهمة في مراعيها التي لم يعمل على ظهورها فتمت أوبارها
(٢) ويروى : والساجحات ذبول الریط فانقها . والذبول : يقصد بها ما أسبل من الأثواب ، والريط :
جمع ربطة وهي كل ملء لم تكن لفقين ، وفانقها ، وفنقها : نعم عيشها ويقال : جارية فنق أى منعمة ،
والهواجر : ج هاجرة وهي الحر الشديد ، والجرد : الموضع الذي لا ينبت شيئاً . والمعنى : إنه يهب كذلك
الجوارى اللاتي يرفلن بأذيالهن نعمة حتى إنهن يمشين عليها لطولها ، ثم نعمهن فكن في منعة من الهواجر
فكأنهن الغزلان التي لا تخفى محاسنها

(٣) تمزّع : تمر مرأ سريعاً ، وغرباً : حدة ونشاطاً ، والشؤبوب : الدفعة من المطر بشدة . والمعنى :
إنه يهب الخيل الجياد التي هي في سرعتها كالطير الخائفة من أذى البرد فتلتبس النجاة منه بمضاعفة طيراتها
(٤) الأدم : البيض من النوق جمع أدماء ، وخيست : ذلت ، والفتلاء : التي بانث مرافقها عن آباطها
فهي مندبجة بعيدة عن آباطها ، وإذا كانت كذلك سامت من الجروح التي تصيب كراكرها إذا صكتها مرافقها
فيمنعها بذلك عن السير .

ساحتهم ، فلو تورط في مدح النعمان ربما أغضبهم وأغلق بذلك باباً طالما ولجّه لينقذ
أسرى قومه وحلفائهم ، ويعود مثقلاً بالهبات الفخمة والعطاء الوفير ؟ ! أو أن ذلك
كان عن أنفة منه وترفع فلم يشأ أن يجعل ثمن صداقته للنعمان وغشيانه مجلسه ومواكلته
ومنادمته مديحاً يسجل عليه الضعة ، وهو من هو في قومه ، ويرى أن النعمان في حاجة
إلى مصانعته ؟

ومهما يكن السبب فإن وجود النابغة بحاشية النعمان ، واحتلاله تلك المنزلة الرفيعة
لديه ، واختصاصه به ، أو غر صدور بطائنه وجعل له حساداً ينفسون عليه هذه المكانة
ويتربصون به الدوائر ، فعملوا جهدهم على الوقعة بينه وبين الملك حتى نجحوا بعد عدة
محاولات ، ولا نستطيع الجزم بالسبب المباشر الذي أدى في النهاية إلى الجفوة بينهما ،
لقد روي أن عبد القيس بن خفاف التيمي ، ومرة بن سعد بن قريع السعدي نظما
على لسان النابغة هجاءً سفيهاً في النعمان ، يعرضان فيه بجده لإمه ، وأنه كان صائغاً
من فذك ، فقالا :

قَبَّحَ اللهُ ثُمَّ ثَنَى بِلَعْنٍ وارث الصائغ الجبان الجهولا
من يَضُرُّ الأَدْنَى ويعجز عن ضُرِّ الأَقْصَى ومن يخون الخليلا
يجمع الجيش ذا الألوف ويغزو ثم لا يَرْزَأُ العَدُوَّ فتَيْسلا
وكانت أم النعمان سلمى حقاً بنت صائغ من فذك ، يدعى عطية ، وليكن النعمان لم يكن
يخفي هذا النسب بل كثيراً ما ذكر الشعراء اسم أمه ولم يعد ذلك عيباً كقول حسان
ابن ثابت :

وأنا الصقر عند باب ابن سلمى يوم نعمان في الكبول مقيم ^(١)
أو قوله :

أنا الزائرُ الصقرُ ابن سلمى وعنده أبي ونعمان وعمرو وواقدا

(١) ليس النعمان في هذا البيت هو النعمان بن المنذر ولكنه شخص آخر يقصده حسان كما ترى
في البيت الثاني

ولعل إحجام النابغة عن مدح النعمان شجعهم على نظم هذه الأبيات، وكان هذا الإحجام ناجم عن احتقار النابغة للملك، فهو وضع النسب، وأمه بنت صائغ، وربما كان هذا الصائغ يهودياً شأن سكان فدك ووادي القرى، ثم إنه يجهز الجيوش ولا يضر العدو شيئاً، وفي هذا تعريض بمحبة النابغة للغساسنة، ثم هو جبان يضر الأقارب ويعجز عن ضر الأقاليم، ويخون الخليل كما يزعمون.

ولسكن هذه الواقعة لم تؤثر في النعمان ولم يستمع إليها، ولم يذكر لنا الرواة سبباً لعداوة عبد القيس للنابغة، وإن كان واضحاً أنه الحسد والضغن لما نال من منزلة، وأما امرأة فقد ذكروا (١) أنه كان له سيف يدعى ذا الرقيقة لحسن فرنده وصفاء جوهره وأن النابغة حسنه في عين النعمان حتى طلبه من مرة القرية فلم يستطع حجزه عنه، وأسرها في نفسه للنابغة حتى وشى به

X ويذكرون سبباً آخر لهذه الجفوة، وهو أن النابغة وصف المتجردة امرأة النعمان وصفاً فيه كثير من الفحش، نقل إلى الملك مصحوباً بوشايات الحساد، فاضطغن عليه، والمتجردة هذه كانت زوجة أبيه، واشتهرت بجمالها فتزوجها بعد وفلق والده، وكان أبرش دميم الوجه، قصيراً، قبيح المنظر (٢) فكان يغار عليها كل الغيرة وحدث أن مرت المتجردة على مجلس النعمان، وفيه النابغة، فسقط نصيفها (٣)، فاستترت بيدها فطلب النعمان من النابغة وصفها فقال قصيدته المشهورة التي مطلعها:

من آل مميّة رايح أو مغتدى عجلان ذا زاد وغير مزود

وفيها يقول إشارة إلى حادثة النصيف:

سقط النصيف ولم ترد إسقاطه فتناولته واتقنتا باليد

ويظهر أن شائبه قد وجدوا الفرصة مواتية فزادوا في هذه القصيدة بعض الأبيات

(١) الأغاني ج ٩ ص ١٥٨

(٢) الأغاني ج ٩ ص ١٥٩، والشعر والشعراء ط الحلبي ص ١١٨

(٣) النصيف: الخمار، والعامة، وكل ما غطى الرأس. القاموس

الداعرة^(١) التي نجزم بأن النابغة لم يقلها ، لما اشتهر به من العفة ، والحنكة السياسية والجد في شعرة ، ويقال : إن المنخل اليشكري^(٢) كان من ندماء النعمان ، وكان يهيم بالمتجردة حباً ، حتى اتهم بها ، وكان على شيء من الجمال ، بل يقال : إن ولدي النعمان منه^(٣) وأنه هو الذي دس هذه الأبيات ورواها للنعمان ، وقال له : لا يستطيع أن يقول هذا إلا من قد جرب ، غيرة منه وحسداً للنابغة

ومن العجيب أن ابن قتيبة الذي روى حادثة المنخل اليشكري هذه ، وكذلك صاحب الأغاني لم يفتننا إلى التناقض الذي وقع فيه ، فإنهما رويَا بعد ذلك أن المنخل اليشكري هذا قد قتله عمرو بن هند بعد أن سجنه ، لأنه كان يشبب بأخته هند ، وقد قال فيها : (٤)

ولقد دخلت على الفتى	ة الخدير في اليوم المطير
السكائب الحسناء تر	فُل في الدَّمَقِس وفي الحرير
فدفعتها فتدافعت	مشى القطاة إلى الغدير
وعطفها فتعطف	كتعطف الظبي الغدير
ولقد شربت من المدا	مة بالصغير وبالكبير
وشربت بالخييل الإنا	ث وبالمطمية الذكور ^(٥)
فإذا سكرت فإني	رب الخورنق والسدير
وإذا صحوت فإني	رب الشويهة والبعير
يا هند هل من نائل	يا هند للعاني الأسير

وأنه قال قبل مقتله في سجن عمرو بن هند

(١) تجد بعض هذه الأبيات في الشعر والشعراء ص ١١٧ - ١١٨

(٢) هو المنخل بن عبيد بن عامر من بني يشكر (٣) الشعر والشعراء ط الحلبي صفحة ٣٦٥

(٤) راجع الأغاني ج ٩ ص ١٥٩ ، والشعر والشعراء ط الحلبي ص ١٦٥ ، ٣٦٦

(٥) يريد أنه باعها وشرب بشمنها

طَلَّ وَسَطَ الْعِبَادِ قَتْلَى بِلَا جُرْمٍ وَقَوْمِي يُنْتَجُونَ السَّخَالَا (١)
لَا رَعِيْتُمْ بَطْنًا خَصِيْبًا ، وَلَا زَرْعًا عَدُوًّا وَلَا زَرْأَتُمْ قَبِيْلًا (٢)

ومعلوم أن عمرو بن هند توفي حوالى سنة ٥٧٠ م (٣) ، وأن عرش الحيرة قد ملكه بعده قابوس ، ثم المنذر ، ثم النعمان بن المنذر ، صاحب النابغة سنة ٥٨١ م فهذا التناقض فى رواية المنخل يدعونا إلى الشك فى أنه هو الذى دس هذه الآيات البذيئة ، التى تتجاوز حدود الأدب على النابغة ، ثم إن النابغة لم يشر إليه فى اعتذارياته أو هجائه لهؤلاء الذين أفسدوا ما بينه وبين النعمان ، وإنما أشار إلى الأقارع عامة ، وإلى واحد منهم بخاصة ، ولعله مرة القريعى الذى مر ذكره ، وكان لا يزال يرتفع فى حمى النعمان ، ويتمتع بعطفه بعد أن أقصى النابغة ، وفى ذلك يقول :

لَعَمْرِي ! وَمَا عَمْرِي عَلَى بَهِينٍ لَقَدْ نَطَقْتُ بِطُلَا عَلَى الْأَقَارِعِ
أَقَارِعُ عَوْفٍ لَا أَحَاوِلُ غَيْرَهَا وَجَوْهُ قُرُودٍ تَبْتَغِي مِنْ تَجَادُعٍ (٤)
ويقول فى هذا الواشى :

لَسَكَلْتَنِي ذَنْبٌ أَمْرِي وَتَرْكِيْتُهُ كَذَى الْعُرِّ يُسْكُو غَيْرُهُ وَهُوَ رَاتِعٌ (٥)
ولعل ثمة سبباً آخر لم يذكره مؤرخو الأدب (٦) ، وهو أن الوشاة أو هموا النعمان أن النابغة غير مخلص له ، وأنه لا يمدحه ترفعاً وأنفة ، أو أنه لا يراه أهلاً للمدح ، وإنما هو من أشياع الغساسنة ، ومدائحهم مشهورة . وقد شجعهم على ذلك صمت

(١) طل : أهدر ولم يثأر به . السخال : ولد الشاء من المعز والضأن الواحدة سخلة

(٢) زرأتم : قصتم . والقبال : زمام النعل ، يقال : « ما قطعت له قبالا ولا زرأته زبالا » أى أقل

شئ وأدناه ، والزبال بكسر الزاى : ما تحمله النملة فيها (٣) راجع Huart. His .P.72

(٤) يروى وجوه بالفتح على الشتم ، وتجادع : تشاتم

(٥) العر : بالفتح الجرب ، وبضم العين قروح تخرج فى عنق الفصيل ، فإذا أرادوا أن يعالجوه

كروا بعبراً سليماً فيبرأ المريض

(٦) من الذين فطنوا إليه صاحب الروائع

النابعة ، وعدم ثنائه على النعمان ، وقد بحثنا ذلك آنفاً ، وقد أشار النابعة إلى هذا السبب في أكثر من قصيدة حين أخذ يعتذر للنعمان ، وذلك حيث يقول :

لئن كنت قد بلغت عنى خيانةً لمبلغك الواشى أغش وأكذب
ولسكني كنت امرأاً لى جانب من الأرض فيه مستراذ ومذهب
ملوك وإخوان إذا ما أتيتهم أحكم في أموالهم وأقرب
كفعلك في قوم أراك اصطنعتهم ولم ترهم في شكر ذلك أذنبا

فالنابعة يبرر مدائحها للغساسنة ، وأنهم أنزلوه منزلة الأخوة يحكم في أموالهم ، فوجب عليه شكرهم ، وقد اصطنع النعمان قوماً وقربهم منه ، ولا شك أنه لا يعد شكرهم له ذنباً . ولعل هذه الأسباب مجتمعة هي التي أوغرت صدر النعمان عليه حتى هم بالبطش به لولا أن حاجبه عصاماً ، وكان صديقاً للنابعة ، أنذره قبل أن يتمكن منه فهرب تاركاً كل ما وهبه النعمان من منح وعطايا ، وعصام هذا هو الذى يقول فيه الراجز^(١) :

نفس عصام سوّدت عصاماً وعلمته السكر والإقداما
وصيرته ملكاً همماً حتى علا وجاوز الأقواما

وكان من الطبيعي بعد أن فر النابعة من النعمان أن يلجأ إلى قومه يحتوى بهم من بطشه وسلطانه ، وبعد أن مكث فيهم مدة ، وقد ضاعت ثروته التي جمعها في الحيرة ، تذكر أنه شاعر ، وأن ثمة قوماً لم يقصروا في شأنه يوماً ما ، هم الغساسنة ، وأنه يستطيع أن يسترد ثراه ومنزلته إذا نزل بهم ، فشد رحاله إليهم ، وكان ذلك بعد سنة ٥٨٧ م ؛ لأن الملك الغساني الذى وفد عليه النابعة بعد محنته في الحيرة هو عمرو الرابع ابن الحارث السادس الأصغر وقد ملك بعد أبيه سنة ٥٨٧ م وبذلك يكون النابعة قد أقام

(١) هكذا قال صاحب الأغاني ج ٩ ص ١٥٨ ، وتنسب هذه الأبيات للنابعة راجع ملحق ابن الوردي

صفحة ١٨٥ ، ونسبة إلى عصام بن شهر الجرمي هذا يقال للرجل الذى يبنى مجده بنفسه « عصامى »

في حاشية النعمان بن المنذر سبع سنوات على الأقل، وقد جاء في العقد الثمين لوليم
ابن الورد البروسى تعليقا على قصيدة النابغة

لقد نهيتُ بنى ذبيان عن أقر وعن تربعهم في كل أصفار

أن النابغة كان منقطعاً إلى النعمان بن الحارث الغساني، ولما مات رثاه النابغة،
وانقطع إلى أخيه عمرو^(١) وهذا التعليق المثبت في أوائل القصائد يُعزى إلى الأصمعي^(٢)
وقد وجده ابن الورد في مخطوطي باريس، وفي مخطوطة (لندن)، وقد رواه الأعلام
الشنتمري عن الأصمعي، وليس من وضع البطلوسى شارح هذه المجموعة كما ظن
صاحب الروائع^(٣) معتقداً أن صاحب شعراء النصرانية الذى نقل هذه التعليقات
في أوائل القصائد، قد أخذها عن الوزير أبى بكر البطلوسى، والواقع أنه نقلها عن
العقد الثمين كما حرره ابن الورد، ولسكن صاحب شعراء النصرانية كثيراً ما ينقل شرح
البطلوسى للقصائد، ومن ثم ظن صاحب الروائع أن التعليقات من وضعه.

ولا شك أن تعليق الأصمعي على القصيدة المتقدمة يفهم منه أن عمرو بن الحارث
ملك بعد أخيه النعمان، وهذا خطأ لم يفتن إليه صاحب شعراء النصرانية^(٤) في هذا
الموضع، كما لم يفتن إليه بعض مؤرخى الأدب، فإن عمرو بن الحارث هو الذى تولى
الملك أولاً، ولما مات في سنة ٥٩٧م تقريباً خلفه أخوه النعمان، وقد رثى النابغة النعمان
عند وفاته في سنة ٦٠٠ كما مر بنا^(٥) وقد خالف الأصمعي بذلك ما عرف من تاريخ
الغساسنة وما روى في الأغاني^(٦) وفي الشعر والشعراء^(٧) وفي خزنة الأدب^(٨)
وما عليه جمهور الفرنجة^(٩).

(١) العقد الثمين ص ٢١٠ (٢) راجع مقدمة العقد الثمين ص ١٢

(٣) انظر الروائع (النابغة الذبياني ص يا)

(٤) انظر شعراء النصرانية ص ٦٧٨ (٥) انظر ص ٩٢ من هذا الكتاب

(٦) انظر الأغاني ج ٩ ص ١٥٩ ط السامى (٧) الشعر والشعراء صفحة ١١٨ ط الحلبي

(٨) خزنة الأدب ج ٢ صفحة ١١٨ ط السلفية (٩) راجع Huart. His. P.72

وراجع ديرنبورج صفحة ٢٣١ الهامش رقم ٤ وهو أول الذين فطنوا إلى خطأ الأصمعي هذا

لجأ النابغة إلى عمرو بن الحارث وما أن وصل إليه حتى قال يصف حالته^(١) :
 إلى ابن مُحَرَّقٍ أعلبت نفسي وراحلتى وقد هدَّت العيونُ
 أتيتك عارياً خَلَقاً ثيابي على خوف تُظنُّ بي الظنونُ
 فألفيتُ الأمانة لم تخنها كذلك كان نوح لا يخون

ففي هذه الأبيات يصور النابغة حاله أدق تصوير ، فقد كان مستخفياً وأظهر نفسه وراحلته إلى عمرو بن الحارث ليلاً ، بعد أن هدأت العيون حتى لا يراه أحد من الناس وهو في هذه الثياب الخلق ، وفي هذا الاضطراب النفسى ، فيظنون الظنون به ، ووجد عمراً على عهده كريماً ، أميناً على صداقته ، لم يتغير وده ، ولذلك ما لبث النابغة أن مدحه بتلك البائية المشهورة ، ولا شك أن أريحية الغساسنة وحسن لقائهم له ، بعد أن تركهم سماع سنين طويلة ، أثرت في نفسه وهاجت شعوره ، وأطلقت عقدة لسانه ، وهو الذى ضمن على النعمان بن المنذر بمدحه طوال هذه السنين ، وبائية النابغة من عيون الشعر العربى الفخيم ، وفيها يقول :

كليني لهم يا أميمة ناصب وليل أقاسيه بطيء السكواكب^(٢)
 تطاول حتى قلت ليس بمنقض وليس الذى يرعى النجوم بآيب^(٣)
 وصدر أراح الليل عازب همه تضاعف فيه الحزن من كل جانب^(٤)

(١) هذه الأبيات ليست في ديوان النابغة ، وقد ذكرها ابن الوردي ملحقة ضمن أبيات راجع صفحة ١٧٦ ، وراجع ديرنبورج صفحة ٢٥١ هامش رقم ٣ وقد ورد البيت الثانى فى الأغاني ج ٩ ص ١٥٥ ومخطوطة ساوة ص ٥٢ ضمن قصيدة طويلة قيل إنها موجهة إلى النعمان بن المنذر

(٢) كليني : دعيني من وكله للشيء أى أسلمه له ، وأميمة تصغير أمامة وهى بنته كما مر ، أو تصغير أم ونرجع هنا تصغير أمامة ، وخير ما قيل فى توجيه فتحها : أن الفتحة لمناسبة الألف المنقلبة عن ياء المتكلم المحذوفة للتخفيف ، أو أنها منادى مبني على الفتح فى رأى من يبنى المنادى المفرد على الفتح .

وناصب : صفة لهم أى ذو نصب وتع ، وبطيء السكواكب : كناية عن طوله

(٣) تطاول : زاد فى الطول والتعبير بها أبلغ من طال ، وليس الذى يرعى النجوم : يريد النجم الذى يتقدمها فى السماء أو يريد الصبح فأقامه مقام الراعى الذى يرعى الإبل .

(٤) عازب : بعيد ، وأراح الأبل : إذا ردها آخر النهار إلى أهله

والمعنى : كليني لقلب قد جمع فيه الليل كل شارد من الهم بعيد عنه فى أثناء النهار لتلهى الإنسان بشئون الحياة ، فإذا جن الليل أوى إلى القلب حتى تضاعف فيه الحزن من جميع نواحيه

- عَلَى لَعْمَرٍ وَنَعْمَةٍ بَعْدَ نَعْمَةٍ لَوَالِدِهِ لَيْسَتْ بَذَاتُ عَقَارِبٍ (١)
- حَلَفْتُ يَمِينًا غَيْرَ ذِي مَثْنَوِيَّةٍ وَلَا عِلْمَ إِلَّا حُسْنُ ظَنِّ بِصَاحِبٍ (٢)
- لَئِنْ كَانَ لِلْقَبْرَيْنِ قَبْرٌ بِحَلَقٍ وَقَبْرُ بَصِيدَاءَ الَّذِي عِنْدَ حَارِبٍ (٣)
- وَلِلْحَارِثِ الْجَفْنِيِّ سَيِّدٍ قَوْمِهِ لِيَلْتَمِسْنَ بِالْجَيْشِ دَارَ الْمُحَارِبِ (٤)
- وَوَثَّقْتُ لَهُ بِالنَّصْرِ إِذْ قِيلَ قَدْ غَزَتْ كِتَابُ مَنْ غَسَانٍ غَيْرِ أَشَائِبِ (٥)
- بَنُو عَمِّهِ دُنْيَا وَعَمْرُو بْنُ عَامِرٍ أَوْلَئِكَ قَوْمٌ بِأَسْمِهِمْ غَيْرُ كَاذِبِ (٦)
- إِذَا مَا غَزَوْا بِالْجَيْشِ حَلَقَ فَوْقَهُمْ عَصَائِبُ طَيْرٍ تَهْتَدِي بِعَصَائِبِ (٧)

- (١) ليست بذات عقارب : أى لا من فيها ولا أذى
- (٢) ذي مثنوية : أى لم استثن في يميني ، فمثنوية بمعنى ثنية ، والثنية الاستثناء وأصلها الاعوجاج والمنعطف في الطريق ، فيمينه لا اعوجاج فيها ، بل هى مؤكدة لا شك فيها ولا استثناء ، ولا علم لى بصحة هذه اليمين إلا تقى وحسن ظنى بصاحبى الذى أمدحه .
- (٣) لئن كان : أى لئن كان هذا الممدوح ابن هذين الرجلين اللذين في هذين القبرين ، وجلق : دمشق أو قرية قريبة منها ، وصيداء مدينة على ساحل الشام بجوار بيروت
- (٤) الحارث الجفنى : هو الحارث بن أبى شمر الغسانى ، وقد وهم الأصمى فقال : إن أباه اسمه يزيد ابن الحارث الأعرج (شعراء النصرانية ص ٦٤٥) ، وقد مر بنا أن اسمه الحارث السادس الأصغر ، والجفنى نسبة إلى آل جفنة وهم الغساسنة
- والمعنى : لئن كان الرجل ينتمى لهؤلاء الملوك الغر الميامين ، ليلغن مبلغهم ، وليطلبن بجيشه أعداءه فيغزوهم فى عقر دارهم كما كان آباؤه وأجداده يفعلون . وإنما قال هذا وهو يعلم أنه ابنهم مبالغة فى المدح ، كما تقول لمن لا تشك فى نسبه : لئن كنت ابن فلان لتفعلن فعلة
- (٥) أشائب : جمع أشابة وهم الأخلاط ، أى أن هذه الكتائب كلها من صميم غسان
- المعنى : غسان مشهورة بشدة المراس والشجاعة ، فلما قيل إن كتائب منها خرجت للغزو لم تستعن بسواها تيقنت أن عمرأ ملك غسان منتصر لا محالة
- (٦) دنيا : أراد الأدين من القرابة ، وإذا كسر أوله جاز فيه التنوين ، وإذا ضم لم يجز فيه إلا ترك الصرف ، لأن فعلى لا يكون إلا للمؤنث ، وهو منصوب على المصدر إذا نون كما تقول : هذا درهم ضرب الأمير ، وعلى الحال إذا كانت ألفه للتأنيث . وعمر بن عامر من الأزرد وهم أقارب الغساسنة .
- (٧) العصائب : ج عصابة وهى الجماعة ، وعصائب الطير : الجماعات من أصناف مختلفة من الطير كالنسور والعقبان والرخم ، وهى تتبع الجيش منتظرة من يقتلونهم لتأكل لحومهم

يَصَانِعُهُمْ حَتَّى يُغَيِّرُنْ مُغَارَهُمْ مِنْ الضَّارِيَاتِ بِالدِّمَاءِ الدُّوَارِبِ^(١)
 تَرَاهُنْ خَلْفَ الْقَوْمِ خُزْرًا عِيُونُهَا جُلُوسَ الشَّيُوخِ فِي ثِيَابِ الْمَرَانِبِ^(٢)
 جَوَانِحَ قَدْ أُيْقِنَ أَنَّ قَبِيلَةَ إِذَا مَا التَّقَى الْجَمْعَانِ أَوَّلُ غَالِبِ^(٣)
 لَهْنٌ عَلَيْهِمْ عَادَةٌ قَدْ عَرَفْنَاهَا إِذَا عُرِّضَ الْخَطِيءُ فَوْقَ السَّكَوَاتِ^(٤)
 عَلَى عَارِفَاتٍ لِلطَّعَانِ عَوَابِسَ بَيْنَ كُلُّوْمٍ بَيْنَ دَامٍ وَجَالِبِ^(٥)
 إِذَا اسْتَنْزَلُوا عَنْهُمْ لِلطَّعْنِ أَرْقُلُوا إِلَى الْمَوْتِ إِرْقَالَ الْجَمَالِ الْمَصَاعِبِ^(٦)
 فَهُمْ يَتَسَاقَوْنَ الْمَنِيَّةَ بَيْنَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ بَيِّضُ رِقَاقِ الْمَضَارِبِ^(٧)

(١) يصانعهم : من المصانعة وهي حسن الصعبة ، يريد أن هذه الطيور الجارحة تسير معهم دون أن تؤذى دابة فهذه حسن مصانعتها لهم ، أو أنها تغير على الأعداء كما يغيرون فهي تصانعهم بهذا . الضاريات المتعودات ، والدوارب : من درب دربة أي ضرى ضراوة ، فالضاريات الدوارب بالدماء أي المتعودات على دماء القتلى المشغوفات بها

(٢) خزرًا : ج أخزر ، وخزراء أي ضيقة العيون ، أو أنها تتغازر أي تقبض أجفانها لتحدد النظر جلوس الشيوخ : جالسة جلوس الشيوخ . والمرانب ج مرنبان أي من جلد الأرنب . شبه النسر وما عليها من الريش بشيوخ عليها الأكسية

(٣) جوانح : مائلات للوقوع . وفي هذا إشارة إلى أنها معتقدة بنصرة جيشه من أول الصدام ، فهي مائلة لتتقض ومستعدة لشرب الدماء وأكل اللحوم

(٤) لهن : لهذه الطيور نزلها منزلة العاقل لإدراكها هذه الأمور . والقنا الخطي : منسوبة إلى الخط بلد بالبحرين ، والكواب جمع كائبة وهي من جسم الفرس ما تحت السكاهل إلى الظهر بحيث إذا نصب عليه السرج كانت أمام القربوس يضع الفارس عليها رحمه مستعرضاً

(٥) عارفات : خيول صابرات لطعان الأعداء ، يقال : وجدت فلاناً عروفاً على ذلك أي صابراً ، عوابس : كواح الوجوه ، الكلوم : جمع كلم وهو الجرح ، الدامي الذي يسيل منه الدم ، والجالب : اليابس الذي نشأت عليه قشرة :

(٦) أرقلوا : أسرعوا ، والمصاعب : جمع مصعب وهو الفحل الذي لم يقيده جبل فهو قوي شديد إذ يقتنى للفحولة لحسب . قال الأصمى : إذا اشتدت الحرب ووقع الالتحام ربما ضاق الموضع على الدابة فينزل صاحبها

(٧) المنية : الموت ، يتساقون : يسقى بعضهم بعضاً ، ويبيض : سيوف ، والمضارب : جمع مضرب وهو حد السيف

يطيرُ فضاضاً بينها كلُّ قونس
ولا عيبَ فيهم غيرَ أن سيوفهم
تورثن من أزمان يوم حليلة
تقد السلوقي المضاعف نسجه
بضرب يزيل الهام عن سكيناته
لهم شيمة لم يعطها الله غيرهم
محلتهن ذاتُ الآله ودينهم
ويتمعهن منهم فراش الحواجب^(١)
بهن فلول من قراع الكتائب^(٢)
إلى اليوم قد مجربن كل التجارب^(٣)
وتوقد بالصفاح نار الجباب^(٤)
وطعن كما يزغ المخاض الضوارب^(٥)
من الجود والاحلام غير عواذب^(٦)
قويم فما يرجون غير العواقب^(٧)

(١) فضاضاً : ما انفق وتفرق ، والقونس : أعلى البيضة التي توضع على الرأس من الفولاذ ونحوه ، وفراش الحواجب : أي فراش الجمجمة ، وهي العظام الرقيقة التي تكون في أسفل الجمجمة فوق الحنك والحلق والضمير في بقعها يعود على (كل قونس) لأنه في معنى الجمع كقوله تعالى : « وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق » ، والمعنى أن السيوف لحدتها وقوة ضرباتهم بها تطير كل بيضة من الفولاذ قطعاً ، وبعد أن تطيح بالخوذة تطير العظام الرقيقة للجمجمة .

(٢، ٣) الفلول : جفل وهو الثامة في حد السيف ، والقراع : المضاربة بالسيوف ، ويوم حليلة قد مر ذكره في صفحة ٩٠ . وفي هذا تأكيد للمدح بما يشبه الذم لأن انفلالها من قراع الكتائب ثمر وفضل فهو دليل صبرهم وشجاعتهم وكثرة ضربهم للأعداء ، وتورثن : تدل على أنهم أبناء شجعان ، و(إلى اليوم) تدل على أنهم لم يكفوا عن القتال وخوض المعارك منذ يوم حليلة

(٤) السلوقي : الدرغ السلوقي نسبة إلى سلوق من ساحل أنطاكية بالشام ، والدرع مؤنثة وقد تذكر كما هنا ، الصفاح : الحجارة العراض ، والجباب : ذباب له شعاع بالليل . والمعنى : أن هذه السيوف لمضائها وشدة الضرب بها تقطع الدورع المضاعفة النسج ، ثم تغز من بدن العدو حتى تصل إلى الأرض فتقبح الشرر من الحجارة العراض

(٥) الهام : جمع هامة وهو الرأس ، وسكنانه : ج سكنة وهي مقر الرأس من العنق . الإيزاغ : دفع الناقة ببولها . المخاض : النوق الحوامل ، والضوارب : التي تضرب بأرجلها ، والمعنى : أنه إذا ضرب بهذه السيوف أزال الرعوس عن الأعناق ، وإذا طعن بها (والطنع عادة للرمح) خرج الدم في إثر هامتها كأن دفاع بول النوق الحوامل وهو اندفاع شديد

(٦) الشيمة : الطبيعة ، والأحلام : العقول ، والعواذب : الغائبة البعيدة . أي لا يمانلهم في جودهم أحد ويعطون وعقولهم حاضرة حتى لا يظن أنهم مبذرون سفهاء ، أو يعطون وهم في نشوة الخمر وعند غيبة العقل بل سخاؤهم جبلة وطبيعة

(٧) محلتهن : ذات الآله : أي مسكنهم نفس الآله يريد بيت المقدس ، ويروى محلتهن أي كتابهم عبادة الله . والمجلة : كتاب الحكمة . وذلك لأن الفلاسنة نصارى ، يريد أنهم لا يخافون إلا عواقب أعمالهم بخوف الله ، ويروى (خير العواقب) والمعنى عليه ظاهر

رقاق النعال طيبٌ مُحْجَزَاتِهِمْ يُحْيِيُونَ بِالرِيحَانِ يَوْمَ السَّبَّاسِ (١)
تحييهمُ بِيضُ الْوَلَانِدِ بَيْنَهُمْ وَأَكْسِيَةُ الْإِضْرِيحِ فَوْقَ الْمَشَاجِبِ (٢)
يَصُونُونَ أَجْسَاداً قَدِيماً نَعِيمُهَا بِخَالِصَةِ الْأَرْدَانِ خُضْرِ الْمَنَاكِبِ (٣)
وَلَا يَحْسِبُونَ الْخَيْرَ لَا شَرَّ بَعْدَهُ وَلَا يَحْسِبُونَ الشَّرَّ خُضْرَةَ لَا زَبِ (٤)
حَبُوتِهَا غَسَانٌ إِذْ كُنْتَ لَاحِقاً بِقَوْمِي ، وَإِذْ أُعِيتَ عَلَى مِذَاهِبِي (٥)

ولا أريد أن أتعرض لهذه القصيدة بالدرس والتحليل في هذا المقام ، وما أفاده النابغة من رحلته إلى الغساسنة ، وكيف انعكس في شعره ؟ ، وما اقتضاه المديح من فن وأسلوب ، فلذلك موضعه إن شاء الله عند الكلام على شعره ، وحسبنا أن نقول إن هذه القصيدة قد تعد الوحيدة من نوعها في شعر النابغة ، لأنها مديح بحت ، لم يقل مثله للنعمان بن المنذر على الرغم من إسباغ النعم عليه ، بل لم يقل قصيدة مثله للغساسنة من قبل ، ولم يروها غيرها فيهم ، اللهم إلا أبياتاً قليلة من مثل قوله يحذر قومه بطش النعمان بن الحارث الغساني (٦)

(١) رقاق النعال : كناية عن الترف فهم لا يحتاجون لخصف نعالهم ، إذ قلما يعيشون بل يكون الخيل والحجزة : تجمع شد الأزار والسر اويل على الجسم ، وطيب حجراتهم : كناية عن العفة فكأنه قال : يشدون أزرهم على عفة . والسباسب : يوم الشعانين وهو يوم عيد عند النصاري

(٢) الولائد ج وليدة وهي الأمه ، والإضريح : الحزر الأحمر ، والحز : ثياب تنسج من الصوف المخلوط بالحرير ، وقيل الإضريح كساء من جلد المرعزي . والمشاجب : جمع مشجب وهو عود تنشر عليه الثياب . قال الأصمى : هم ملوك أهل نعمة ، فخدمهم الإماء البيض الحسان ، وثيابهم ثمينة مصونة تعلق على المشاجب

(٣) الأردن جمع ردن وهو الكم . الخالص : الشديد البياض أى بياض كسائر الثوب : ومناكبها خضر ، وكان هذا زى الملوك

(٤) ضربة لازب : أى ثابتة دائمة

(٥) حبوت بمدحى غسان وأنا آمن بين قومي ، ومدحتهم لما ضاقت على الأرض حين هربت من النعمان فهم أحق بمدحى في حالى آمنى وخوفى

(٦) ليست هذه الأبيات من مرويات الأصمى وجاءت في ملحق ابن الورد وفي مخطوطة ساوة ، وفي شعراء النصرانية

يوماً حليمة كانا من قديمهم وعين باغ فكان الأمر ما ائتمرا
يا قوم إن ابن هند غير تارككم فلا تكونوا لادنى وقعة جزرأ
ومن مثل قوله يمدح الحارث الأعرج ، وكان ذلك طبعاً قبل أن يهرب من وجه
النعمان بن المنذر (١)

والله والله لنعم الفتي الأعرج لا النكس ولا الخامل (٢)
الحارب الوافر والجابر المحروب والمرجل والحامل (٣)
والطاعن الطعنة يوم اللقاء ينهل منها الأسل الناهل
والقائل القول الذى مثله ينبت منه الزمن الماحل
والغافر الذنب لأهل الحجا والقاطع الأقران والواصل

وبعض مقطوعات أخرى لا تتجاوز كل منها بضعة أبيات على الرغم من طول
إقامته بين ظهرانيهم يتمتع بالأمن والطمأنينة ، والرفاهية ، والحظوة ، والمنزلة السكرية
فقد عاش عمرو بن الحارث ، ولما توفى فى سنة ٥٩٧ لم يفرط فيه خليفته النعمان السادس
أبو كرب ، وأبو حجر ، على الرغم من أنه كان غليظاً شديداً ، وبطلا مغواراً يحب
الغزوات ، ولا يطيق أن يعيث أحد بما حماه من أرض ، وقد مر بنا ما قام به النابغة
من الشفاعات لقومه وأحلافهم من أسد وبنى حن لدى النعمان هذا أيام أن كان ولي
عهد . وقد قال فى النعمان هذا حينما خرج إلى بعض متنزحاته بعض أبياتاً يمدحه بها
وسنتعرض لها عند الكلام على شعره وطريقته فى المدح إن شاء الله . ولما قتل النعمان
فى سنة ٦٠٠ م فى إحدى غزواته رثاه النابغة بقصيدة طويلة مطلعها :

(١) رويت هذه الأبيات فى مخطوطة ساوة ص ٤٧ والبيت الثالث روى فى ملحق ابن الوردة رقم ٤

(٢) النكس : الضعيف

(٣) الحارب الوافر : أى يسلب ذا الفنى ماله فى الحرب ، والجابر المحروب : أى يعطى من سلب ماله فى
الحرب ويحجر كسره ويغنيه ، والمرجل : يجرد الفارس من فرسه ، ويحمل الكل

دعائك الهوى واستجھلتك المنازل وكيف تصابى المرء والشيب شامل
وسنتحدث عنها في شعره ، ويظهر أن النابغة لم يلق حظوة عند خليفته حُجْر الثاني
إما لأن هذا الملك لم يكن على شاكله آباءه كرماء وأريحية وتقديراً لمواهب الشاعر
الكبير ، وهذا بعيد ، أو أنه كان حدث السن ، والنابغة قد أصبح شيخاً كبيراً فلم تتجاوب
نفساهما ، أو أن النابغة قد رأى الفرصة سانحة للعودة إلى النعمان بن المنذر ، وشام بريقاً
من رضاه ، وقد علم بمرضه ، وكان يطمع في أن يصفح عنه ويعيد إليه ثروته إذا قبل
بعد هذه القطيعة الطويلة ، وبعد أن ملأ الدنيا بشعره يعتذر إليه ويتنصل مما رمى به زوراً
وبهتاناً ، وهو في ظل الغساسنة يتمتع بسطوتهم ونعيمهم . وسنعود إلى هذا الموضوع
بعد قليل . ومهما تسكن الأسباب التي حدثت بالنابغة إلى ترك الغساسنة في ذات العام
الذي تولى فيه حجر الثاني ، فإنه ودعهم وداعاً رقيقاً ينم عن نفس معترفة بالجميل وذلك
حيث يقول :

لا يبعد الله جيراناً تركتهم مثل المصاييح تجلو ليلة الظلم^(١)
لا يبرمون إذا ما الأفق جلله برد الشتاء من الأحمال كالآدم^(٢)
هم الملوك وأبناء الملوك لهم فضل على الناس في اللاواء والنعم^(٣)
أحلام عاد وأجساد مطهرة من المعقة والآفات والإثم^(٤)

ترك النابغة ديار الغساسنة واتجه صوب الحيرة ، وهنا تتناقض الروايات في
الأسباب التي حفزته على القدوم ، وفي العاربة التي رضى بها النعمان على شاعره القديم
بعد أن توعدده وأهدر دمه

(١) مثل المصاييح في الرأي أو في الوجوه
(٢) البرم الذي لا يدخل في الميسر بخلا ولؤماً ، والأدم : جمع أديم وهو الجلد الأحمر . يقول : ليسوا
بأبرام إذا اشتد الزمان وامتنع القطر وجلل السماء سحاب أحمر كالجلد لا مطر فيه
(٣) اللاواء : المشقة والشدة
(٤) لهم عقول راجحة كأحلام عاد ، وأجساد مطهرة من الآفات ، ونفوس منزّهة عن عقوق الأرحام
وقطعها وار تكاب الآثام

نبئت أن أبا قابوس أوعدني ولا قرار على زار من الأسد
لم يكن النابغة خائفاً من النعمان بن المنذر ، وقد كان له في ظل الغساسنة مأمّن
ومنزل كريم ، وكان له في ديار قومه وصحرائهم وجبالهم منعة تقيه شر النعمان :

سأكعمُ كلبِي أن يَريكَ نبجُه وإن كنتُ أرعى مُسحَلان فحامراً (١)
وحَلَّتْ بيوتِي في يَفَاعٍ مُمنَعٍ يُخَالُ به راعِي الحمولة طائراً (٢)
تَزِلُّ الوعولُ العَصمُ عن قذُفاته وتُضحي ذُراه بالسحاب كوافراً (٣)
حِذاراً على ألا تنالَ مَقادتي ولا نِسوتي حتى يَمُنَّ حرارنا

بمثل هذه الأبيات خاطب النابغة النعمان كي يبرهن له على أنه يستطيع أن يفلت
منه ، وأن يعتصم بالجبال الشاخنة التي تزل الوعول العصم عن قذفاتها ، والتي يجلبها السحاب
لارتفاعها ، ولقد أيد أبو عبيدة الراوية المشهور أن النابغة لم يرجع إلى النعمان عن رهبة
وخشية منه : « لعمر الله ما لمخافته فعل إن كان لا مناً من أن يوجه إليه جيشاً . وما كانت
عشيرته لتسلمه من أول وهلة ، ولكنه رغب في عطاياه وعصافيره ، (٤) »

وذكر صاحب الأغاني أن السبب في عودة النابغة إلى الحيرة سمعه بهرض النعمان
« وأنه عليل لا يرجي ، فأقلقه ذلك ، ولم يملك الصبر على البعد عنه مع علمته ، وما خاف
عليه وأشفق من حدوثه به ، فصار إليه وألفاه محموماً على سريره ينقل ما بين الغمر
وقصور الحيرة ، فقال لعصام بن شهيرة حاجبه :

(١) كعم البعير : إذا جعل في فيه الكعام ، ومسحَلان وحامر : موضعان . لن أقول فيك سوءاً
وإن كنت بعيداً عنك

(٢) اليفاع : المشرف على الأرض ، والحمولة : الأبل التي قد أطاقت الحمل ، وطائراً : لصغر حجمه وذلك
لشدة ارتفاعها

(٣) الوعول : التيوس البرية جمع وعل . والعصم : ج أعصم وهو الذي في إحدى رجليه بياض ،
قذفاته : ج قذفة وهي الشرفات ، وكوافراً : مغطاة

(٤) الأغاني ج ٩ ص ١٦٥ طبعة الساسي

ألم أقسم عليك لتخبرني }
 فإني لا ألومك في دخولي }
 فإن يهلك أبو قابوس يهلك }
 ونمساك بعده بذناب عيش }
 أمحول على النعش الهام ؟ (١)
 ولكن ما وراءك يا عصام ؟ (٢)
 ربيع الناس والشهر الحرام (٣)
 أجب الظهر ليس له سناس (٤)

ويرى ابن قتيبة أن النعمان هو الذي دعاه إلى الحيرة بعد أن بلغه أن الذي قذف به باطل ، فبعث إليه : إنك صرت إلى قوم قتلوا جدتي فأقمت فيهم تمدحهم ، ولو كنت صرت إلى قومك ، لقد كان لك فيهم تمتنع وحصن ، إن كنا أردنا بك ماظننت . وسأله أن يعود إليه ، (٥)

ولا ريب أن النابغة لم يجرؤ على العودة إلا بعد أن وجد الفرصة مواتية ، وسواء كانت تلك الفرصة هي مرض النعمان — وقدمه لعودته وهو في فراش المرض قد يستل سخيمة نفسه ويظهر النابغة بمظهر الوفي الحريص على مودته ، فيرق له ويعيده إلى مكانته السابقة ، أو أن النعمان ذاته تبين وجه الحق فيما رمى به النابغة فأرسل إليه يؤمنه ويستدعيه إلى حاشيته . أما أن الحرص على عطايا النعمان وعصافيره (٦) هي التي حفزت النابغة إلى المخاطرة وقدم الحيرة دون أن يرى بارقة من أمل في رضا النعمان كما يقول أبو عبيدة فذلك ما نستبعد

ولم يشأ النابغة أن يأتي النعمان مذنباً متهماً ، وإنما أراد أن يقدم بين يدي عودته حججاً قوية على برائه ، حتى يصفو قلب النعمان له ، فإذا ما اتصل بينهما الود لقي منه

(١) قال أبو عبيدة : كانت ملوك العرب إذا مرض أحدهم حملته الرجال على أكتافها يتعاقبونهم ؛ لأنه عندهم أوطأ من الأرض

(٢) أي لا ألومك في ترك الإذن لي في الدخول ولكن أخبرني بحقيقة أمره

(٣) هو كالربيع في الحضب ، والشهر الحرام : لأن جاره في أمن وعافية لا يصل إليه أحد

(٤) لا يبقى لنا من العيش إلا مثل الذنب في حقارته بعد أن ذهب من الجمل سناسه وهو خير ما فيه وفي هذا البيت رويت أجب بالرفع والنصب والجرا

والرفع والنصب حكوا والجرا في قوله من قال : أجب الظهر

(٥) الشعر والشعراء ص ١١٨

(٦) العصافير : نوع من الإبل النجبية كانت للنعمان ، قيل كانت سوداء

ما كان يلقي من عطف في أيامه الأولى التي طالما حنّ إليها ، والتي لم ينسها طوال تلك المدة ، فاجتهد النابغة في الاعتذار للنعمان بتلك القصائد المشهورة ، والآيات الخالدة التي زودت الشعر العربي بتراث مجيد من المعاني النفيسة ، وسنعرض لها عند الكلام على فنونه الشعرية إن شاء الله .

العودة إلى النعمان بن المنذر :

أما كيف عاد النابغة إلى الخيرة فقد تعددت الروايات في ذلك ، فصاحب الأغاني يذكر أن النابغة قدم في صحبة رجلين من فزارة ^(١) كانا من المقرئين لدى النعمان ، وبينه وبينهما دُخُلٌ ^(٢) ، وأن النابغة استجار بهما ، وسألهما الشفاعة ، وأن النعمان ضرب لهما قبة من آدم ولم يشعر بأن النابغة معهما ، ودس النابغة قينة تغنيه بآيات من قصيدته

يا دار ميسة بالعلياء فالسند أقوت وطال عليها سالف الأمد

فلما سمع النعمان الشعر قال : أقسم بالله إنه لشعر النابغة ، وسأل عنه فأخبر أنه مع الفزاريين فكلماه فيه فأمنه .

ويسوق صاحب الأغاني هذه الرواية بصيغة أخرى يفهم منها أن النعمان قد حرّم على الناس ذكر النابغة أمامه ، وأن النعمان كان يرسل لصديقيه الفزاريين بطيب والظاف مع قينته ، فكانا يأمرانها أن تبدأ بالنابغة قبلهما ، وأنها ذكرت ذلك للنعمان ، فعلم أنه للنابغة ، ثم ألقى عليها شعره هذا وسألهما أن تغنيه إذا لعبت بلبه الراح ، ففعلت فأطربته فصاح من نشوته : هذا شعر علوى ، هذا شعر النابغة ! ثم إنه خرج في غب سماء فعارضه الفزاريان والنابغة بينهما قد خضب بخناء فأقنأ خضابه ، فلما رآه النعمان قال : هي بدم كانت أخرى أن تخضب ثم إن الفزاريين تشفعا فيه فقبل شفاعتهما وأمنه ^(٣) ، وقد شهد

(١) يقول ابن قتيبة إنهما زبان بن سيار ، ومنظور بن سيار ، وقيل أنهما منظور بن زبان ، وسيار ابن عمرو ، راجع ابن قتيبة ص ١١٨ ، والاشتقاق لابن دريد ص ١٧٢ ، ١٧٣ ، ودير نورج ص ٢٤٠

(٢) أصل الدخُل المداخل المباطن وصاحب السر ، وأراد به هنا المودة الصافية

(٣) راجع الأغاني ج ٩ ص ١٦٥ طبعة السامي

حسان بن ثابت كيف أن النعمان قرب النابغة إليه، واستمع إلى شعره ، وقد حسده حسان - الذي كان قد انتهر فرصة غياب النابغة عن بلاط الحيرة فقصدها عتله ينال حظوته ومنزلته - على ثلاث لا يدرى على أيتهم كان له أشد حسداً : على إيداء النعمان له بعد المباحدة ومسامرته له وإصغائه إليه ، أم على جودة شعره ، أم على مائة بعير من عصافير النعمان أمر له بها ؟ وقد علم حسان أن لا قبل له بمنافسة النابغة ، ونصحه عصام ابن شهيرة الحاجب بالانصراف مكرماً إلى بلده ، فإن النعمان لا يؤثر على النابغة شاعراً آخر .^(١)

ويذكر صاحب الأغاني رواية أخرى عن حسان بن ثابت وهي أنه كان ينادم النعمان ذات يوم في قبة له فسمع رجلاً يرتجز وهو يدور حول القبة :

أَصُمُّ أَمْ يَسْمَعُ رَبُّ الْقُبَّةِ يَا وَاهِبَ النَّاسِ لِعَنْسِ صُلْبِهِ^(٢)
ضَرَابَةً بِالْمَشْفَرِ الْأَذْبَةَ ذَاتَ نَجَاءٍ فِي يَدَيْهَا جُلْبِهِ^(٣)
فِي لَحِيبٍ كَأَنَّهُ الْأَطْبَهُ^(٤)

فقال النعمان : أليس هذا أبا أمامه ، قالوا : بلى ! ثم أذن له وقربه واستمع إليه وحباه بمائة من عصافيره^(٥) . ولم يذكر صاحب الأغاني في هذه الرواية شفاعاة الفزاريين التي رواها كذلك ابن قتيبة وغيره ، وإنما تجرأ النابغة وأخذ يطوف بقبة النعمان معرضاً نفسه للخطر ، مرتجزاً هذه الأبيات التي فيها استجداء صريح ، وفيها وصف للنوق

(١) الأغاني ج ٩ ص ١٦٥ ط الساسي

(٢) العنس : الناقة الصلبة ويروي ابن الوردي في ملحقة الشطر الثاني : الواهب النوق الهجان الصلبة

(٣) والمشفر من البعير كالشفة للإنسان ، وضربة بالمشفر : حين ترغى لقوتها وفتوتها ، والأذبة : جمع أذب وهو ثور الوحش ، أو الطويل الثاب ، وذات نجاء : سريعة ، والجلبة : القشرة تغلو الجرح عند البرء . يريد أنها قد مرنت على السير

(٤) اللاحب : الطريق الواضح ، والأطبة جمع طبابة وطباب وهي طرة السماء المستطيلة ، يريد أنه واضح

كصفحة السماء (٥) راجع الأغاني ج ٩ ص ١٦٩

لا يناسب مقام التشفع والضراعة والتودد ، وفيها قلة ذوق في قوله : أصم أم يسمع
رب القبة ، ولذلك نرجح عدم صحة هذه الرواية ، ولا سيما وأن هذا الرجز لم يثبت
في الصحيح من شعره ، ولم يرو في ديوانه

ثم إنه يفهم من روايتي الأغاني أن النعمان كان في صحة وعافية حينما جاءه النابغة ،
وهذا يناقض ما رواه سابقاً من أنه وجده مريضاً محملاً على أكتاف الرجال ، وأرى
أن النابغة حينما عاد إلى الحيرة قد وجد النعمان مريضاً ، يدل على ذلك ما ذكرناه من
شعره لعصام بن شهبة الجرمي حاجب النعمان ، وما جاء فيما رواه الأصمعي من شعره
في قصيدته التي يقول فيها :

وَهَمَّيْنِ هَمَّاءَ مُسْتَكْنَأَ وَظَاهِرَا (١)	كُتِمْتُكَ لَيْلًا بِالْجُمُومَيْنِ سَاهِرَا
وَوَرَدَ هُمُومٍ لَنْ يَجِدُنْ مَصَادِرَا (٢)	أَحَادِيثَ نَفْسٍ تَشْتَكِي مَا يَرِيهَا
وَهَلْ وَجَدْتُ مِثْلِي عَلَى الدَّهْرِ قَادِرَا (٣)	تَكَلَّفَنِي أَنْ يَفْعَلَ الدَّهْرُ هَمَّهَا
عَلَى فِتْيَةٍ قَدْ جَاوَزَ الْحَيَّ سَائِرَا	أَلَمْ تَرَ خَيْرَ النَّاسِ أَصْبَحَ نَعَشَهَا
يَرُدُّ لَنَا مُلْكًا وَالْإِرْضَ عَامِرَا	وَنَحْنُ لَدَيْهِ نَسْأَلُ اللَّهَ خُلْدَهَا
وَنَرْهَبُ قَدَحَ الْمَوْتِ إِنْ جَاءَ قَامِرَا (٤)	وَنَحْنُ نُرْجَى الْخُلْدَ إِنْ فَازَ قَدَحُنَا
وَأَصْبَحَ جَدُّ النَّاسِ يَظْلَعُ عَائِرَا (٥)	لَكَ الْخَيْرُ إِنْ وَّارَتْ بِكَ الْأَرْضُ وَاحِدَا

(١) الجمومان : موضع ، ومستكنأ وظاهراً . منه ما بدا ومنه ما خفي ، وقال البطليوسي : همين معطوف
مقدماً على أحاديث أي كعمتك أحاديث وهمين ومثل ذلك قولك : عليك ورحمة الله السلام ، وقيل جعل الليل
معدى على السعة لكتمتك وعطف عليه همين ، وأحاديث بدل من همين

(٢) الهموم ترد إليه ولا تتركها فلا تجد لها منصرفاً . وقد فرق بين راب وأراب ، فإذا استيقنت الأمر
قلت رابني ، فإذا أسأت الظن ولم تستيقن بالريبة قلت أرابني

(٣) همها : مرادها ، أي أن نفسه كلفته ألا تصاب بمكروه

(٤) المنية تقامرنا فيه فنحن نرجو أن يبرأ من مرضه فيفوز قدحنا ، ونرهب أن يفوز قدح المنية

(٥) الجد : الخط ، ويظلم : يعرج يقول : إن وارتك الأرض فالخير لك حياً وميتاً ، فواحداً على هذا التأويل
حال من الخير ، ويصح أن تكون دعائية أي إن وارتك الأرض فإنما توارى واحداً لا مثل له في فعله ولا
شبيهه له في الناس ، ويكون واحداً مفعولاً بوارت

وَرُدَّتْ مطايا الراغبين وُعِرَّتْ جِيادُكَ لا يُحْفَى لها الدهرُ حافراً^(١)
 رأيتُكَ ترعاني بعين بصيرة وتبعثُ حُرَّاساً عَلَيَّ وناظراً
 وذلك من قول أتكأ أقوله ومن دَسَّ أعدائي إليك المآبراً^(٢)
 فأليت لا آتيك إن جئتُ مجرماً ولا أبتغي جاراً سواك مُجْاوراً
 فأهلي فداء لا مريء إن أتيته تقبلُ معروفي وسدَّ المفارقة^(٣)
 ثم يذكر بعد ذلك الأبيات التي ذكرناها آنفاً في معرض الاستدلال على أنه كان
 في منعة من أن يصل إليه النعمان

سأكعم كلبي أن يريكَ نبجُه وإن كنتُ أرعى مُسَحَلانَ خامراً^(٤)
 إلى أن يقول :

أقولُ وإن شَطَّتْ بي الدَّارُ عنكم إذا ما لقينا من مَعَدٍ مسافراً
 ألكني إلى النُّعمانِ حيثُ لقيته فأهدى له الله الغيوثَ البواكراً^(٥)

وأرى أن هذه القصيدة قالها النابغة عندما علم بمرض النعمان وشد رحاله إليه ، وقد
 سمع أنه يحمل على سرير يتنقل به الرجال بين القصر والبساتين المحيطة به ، فأرسلها
 الشاعر بين يدي مقدمه تمهد له السبيل إلى قلب النعمان ، وتبين له أنه يستطيع أن ينجو
 من بطشه ، واسكنه أثر القدوم إليه ، وختمها بالدعاء له علَّ في كل ذلك ما يذهب
 وضر نفسه ، ونرجح أن النابغة أسرع في مجيئه إلى الحيرة ووجد الملك لا يزال مريضاً ،
 وأنه قال بعض هذه القصيدة وهو في الحيرة قلقاً على النعمان ، كما قال لعصام :

ألم أقسم عليك لتخبرني الأبيات

(١) عريت جياذك : حطت عنها السروج ولم تستعمل في سفر ولا في غزو

(٢) المآبر : النائم واحدها مأبرة

(٣) المفارقة : واحدها فقر ، ومثله مذاكر واحدها ذكر وهو جمع على غير قياس أي سد وجوه فقره

(٤) سبق شرح هذا البيت

(٥) ألكني : سبق شرح الألوكة ؛ ومعنى ألكني : كن رسول

ويجوز أن يكون النابغة قد استعان بالفزاريين بعد أن شفى النعمان، ومعلوم أن فزاره من ذبيان فهم من أبناء قبيلة واحدة، ويهمهما أن يعود الشاعر الكبير إلى سابق منزلته، وأن تزول عنه الوصمة التي ألحقها به الوشاة، وقد استطاع النابغة باعتذارياته الجميلة أن يأسر قلب النعمان، حتى أفاض عليه النعم، ورد للشاعر ثراه، ولكن الأيام لم تمهله، إذ لم يلبث النعمان بعد ذلك إلا أمداً وجيزاً حتى غضب عليه كسرى على أثر وشاية زيد بن عدى انتقاماً لقتله والده، وقد رأينا كيف أن النابغة حينما بلغه مقتل النعمان قال: «طلبه من الدهر طالب الملوك»، وتمثل بأبيات فاترة مرّ ذكرها^(١)، كما مرّ تعليقنا عليها، وكان النابغة قد لحق بقومه منذ تنسك الدهر للنعمان ابن المنذر، ولم يلبث بعده إلا قليلاً حتى توفي بعد أن أسن حوالى سنة ٦٠٤م، وبذلك طويت حياة شاعر كانت مليئة بالحوادث الجسام، وقد خاض غمار هذه الحوادث وكان له فيها أثر كبير، كما صبغت شعره بألوان خاصة ميزته عن سواه من الشعراء

— ٥ —

صفاته ودينه:

ذكر الرواة أن النابغة الذي يأنى كان حسن البزة، مهيب المنظر، له ضفيران تدليان على كتفيه^(٢)، وأنه كان يعيش عيشة مترفة، ويقتنى التحف الثمينة، والخيول، والنوق العتاق، وله عبيد وإماء، ويأكل في صحاف الذهب والفضة^(٣)، وقد جاء في شعره ما يدل على هذا الثراء الذي حباه به الغساسنة، والمناذرة

وإن تلادى إن ذكرت وشكّيتي ومهرى، وما ضمت إلى الأنامل^(٤)

(١) راجع ص ٨٧، و ص ١٠٨ و ٨٠٩ من هذا الكتاب

(٢) الحمرة ص ٦٣ (٣) الأغاني ج ٩ ص ١٧٢، وراجع de Perceval. 11. P.502

(٤) التلاد: المال القديم، والشكك: السلاح. وماضت الأنامل: أى ما يملك

حباؤك والعيس العتاق كأنها هجان المها تجدى عليها الرحائل^(١)
وقد مر بنا تعداد بعض النعم التي أغدقها عليه النعمان بن المنذر ، من إبل مؤبلة
وإماء منعيات يرفلن في الحرير ، عشن في منعة من حر الهواجر ، ومن خيول سريعة
العدو ومن نوق مشدودة برحال الحيرة الجدد

وقد كان النابغة ذا عفة ووفاء ، وهو وإن كان قد ترفع عن مدح السوق
وكنت امرأ لا أمدح الدهر سوقاً فلست على خير أتاك بحاسد
إلا أنه لم يستسكف عن منازل هؤلاء السوق وتأديبهم ، فبهجوه تارة ويهددهم
ويشيع نقائصهم كما فعل مع زُرعة بن عمرو^(٢) وكقوله ليزيد بن عمرو بن الصغق الكلابي
وفيه ما ينبئ أنه كان يودب السفهاء الذين يتجرءون عليه ، وأن المقالة لا تعوزه حين
يبغى هجوه ، وأن هؤلاء الشعراء ليسوا له بأنداد ، وهم يصدون عنه فرقا منه :

حسبك أن تهاض بمحكات يمر بها الروى على لسانى^(٣)
فقبلك ما شتمت وقازعوني فما نزر الكلام ولا شجاني^(٤)
يصد الشاعر الثنيان عني صدود البكر عن قرم الهجان^(٥)
أثرت الغي ثم نزعته عنه كما حاد الأذب عن الطعان^(٦)
وأحياناً يحقر من شأن الذى يتعرض له ، ويزدرى به كما فعل مع عامر بن الطفيل
الفارس المشهور ، فقد هجا النابغة بأبيات أولها :

(١) حباؤك : هبتك وعطاؤك . والعيس : الإبل البيض . وهجان المها : البيض منها
(٢) راجع ص ١١٥ من هذا الكتاب
(٣) الهض : كسر العظام بعد الجبر وقد هضته فانهاض . أي حسبك أن تذلل وتخزى بهذه القوافي
(٤) قاذعوني : من المقاذعة وهي المشامة والهجاء ، وشجاني : أحزننى
(٥) الثنيان : الذى دون السيد ، ويقال له أيضاً ننى وهو الذى يستثنى من القوم فلا يلحق بفحول الشعراء
والقرم : الفحل الكريم من الإبل ، والهجان : الأبيض . والبكر : الصغير
(٦) الأذب : البعير الذى على رأسه شعر يبلغ حاجبيه وعينه فهو نفور أبداً والعرب تقول : كل
أذب نفور .

ألا من مبلغ عني زياداً غداة القاع إذ أزف الضرابُ
وأراد شعراء بني ذبيان الرد عليه ، ولكن النابغة طلب إليهم أن يتركوه له ،
يحقره ويصغر من شأنه ، ويسلك الطريق الذي يراه ناجماً في تأديبه فقال :
فإن يك عامرٌ قد قال جهلاً فإن مَظِنَّةَ الجَهْلِ الشَّبَابُ
فكن كأييك أو كأبي براء توافقك الحكومة والصواب^(١)
ولا تذهب بحلمك طاميات^(٢) من الخيلاء ليس لهن باب^(٣)
فإنك سوف تحلم أو تنأى إذا ما شبت أو شاب الغراب^(٤)
وهكذا كان يسلك سبلاً متباينة في إسكات هؤلاء الذين يريدون انتقاصه ، أو
التعرض لقومه ، ولو لم يفعل النابغة ذلك ، ويرد على هؤلاء ويفحهم ، ويذلهم بشعره
الذي وصفه بقوله :

قوافي كالسلام إذا استمرت فليس يرد مذهبها التظنى^(٤)
لنهبوا عرضه وأخزوا قومه ، ونشروا فيهم قالة السوء تشيع بين العرب ، فلا يرفعون
لهم رأساً ، ولا يتغنون بمحمدة ، والسفيه إذا لم تجبه ظن صمتك ضعفاً ، وإحجامك
جنباً وخوراً ، أو فهاهة وعياً ، والأولى أن يدع بعنف وشدة وإلا زاد نباها .
ومن أظهر سجايا النابغة الخلقية الوفاء ، وقد رأينا كيف كان وفيماً لبني أسد حلفاء
قومه ، لا يقبل فيهم نعمة مشاء ، ولا يفكر في التنكر لهم في السراء أو البأساء
إذا حاولت في أسد فجوراً فإني لست منك ولست مني
وكان يعد نقض حلفهم فجوراً وغدراً ولذلك قال لزرعة بن عمرو :

(١) أبو براء : هو عامر بن مالك بن جعفر بن كلاب ملاعب الأسنة وهو عم عامر بن الطفيل
(٢) الطاميات : المرتفعات يقال طام الماء : ارتفع ، وليس لهن باب : أى لا فرج له منهن ولا ينكشفن
عنه ، وأنها خيلاء لا سبب لها
(٣) يريد أنه لا يفلح ولا ينتهي عما هو عليه من الجهل حتى يشيب الغراب أى لا يفلح أبداً
(٤) السلام : الحجارة راجع ص ١١٩

إنا اقتسمنا خطيتنا بيننا حملت برّة واحتملت فجّار

وعلى الرغم من إيذاء قومه له ، ونكرانهم لفضله ، وهو الذى يتشفع لهم عند الملوك ويطلق من أجله الأسرى ، فإنه لم يتلوم مرة فى تأدية هذا الواجب الذى تفرضه المروءة وشرعية القبيلة ، ولقد فسر هذا بقوله :

إذا أنا لم أنفع خيلى بوده فإن عدوى لم يضرهم نفعى

ولقد اشتهر النابغة بالحكمة ، والرزانة ، ورجاحة العقل ، واستطاع بهذه الخلال الكريمة أن يتبوأ بين قومه منزلة رفيعة ، فهو مقصدهم فى الشدائد ، وهو الشفيع المستجاب الكلمة لدى الملوك ، وهو الذى يشير عليهم بالرأى الصائب فيستمعون لقوله ولقد تمكن بفضل سجايه تلك أن ينزله الغساسنة منزلة الأخوة ، وأن ينادمهم ويسمر معهم ، ويحضر مجتمعاتهم ومحافلهم فى أعيادهم ، واستطاع أن يأسر قلب النعمان بن المنذر وأن يكون له صديقاً وندماً . وقد ذكرنا آنفاً شيئاً عن شجاعته وخوضه غمار القتال مع قومه وأحلافهم ^(١) وشيئاً عن كرمه وغشيانه مجالس الميسر ^(٢)

أما دين النابغة فكان دين عامة العرب فى ذيك الوقت ، يعتقد بوجود إله واحد هو خالق هذا الكون ، وإن كان يعظم الأوثان والأصنام ، إذ يراها شفيعاً له عند الله وقد حاول صاحب شعراء النصرانية ، وتبعه صاحب الروائع أن يعدد النابغة من الشعراء النصارى لقوله :

ظلت أقاطيع أنعام مؤبلة لدى صليب على الزوراء منصوب

ولقوله يمدح الغساسنة :

محتهم ذات الآله ودينهم قويم فما يرجون غير العواقب

ولذكره يوم الشعانين وما شاكل ذلك ، ولعمري إن هذا استنتاج فيه كثير من الجرأة ، فالنابغة لم يذكر هذه الأمور لأنه كان نصرانياً ، ولكن لأن الغساسنة نصارى وهو فى صدد مدحهم ، ولا ريب أنهم يسرون بالثناء على دينهم الذى يخالف دين عامة العرب ، وأنه دين قويم . ولو أن النابغة قد صبأ عن دين آبائه وأجداده لوجد فى شعره

ما ينم عن عقيدته وحماسه لها وإعجابه بها . أجل ! جاء في شعر النابغة ما يدل على اعترافه
بآله واحد :

حلقت فلم أترك لنفسك ريبة وليس وراء الله للمرء مذهب
وكقوله :

إذا فعاقبني ربي معاقبة قرَّت بها عين من يأتيك بالفند^(١)
كما كان يؤمن بجزاء الآخرة

ولكن لا تُخَانُ الدهرَ عندي وعند الله تجزية الرجال
وبما ينسب إليه قوله :

تعصى الآله وأنت تظهر حبه هذا لعمرك في المقال بديع
لو كنت تصدق حبه لأطعته إن المحب لمن يحب مطيع
وإني لأشك في أن النابغة قال هذين البيتين ، فليست عليهما مسحة شعره ، وما فيه
من رنين وقوة ، وظاهر عليهما الحداثة ، ومع ذلك فليس فيهما ما يدل على أنه يتبع ديناً
بذاته . على أن النابغة كان يكثر من ذكر (الله) في شعره ، ولقد كان كثير من

العرب في الفترة التي سبقت بعثة محمد عليه الصلاة والسلام يعتقدون بوجود آله واحد
وسمعوها من اليهود والنصارى شيئاً عن الحساب والعقاب والبعث والحشر والجزاء^(٢) ،
ولذلك شاع في شعر الفحول من شعرائهم بعض هذه المعاني ، وإن كانت غامضة غير
محدودة ، يذكرونها في صيغ عامة ، من مثل قول النابغة

إذا فعاقبني ربي معاقبة . . . البيت

وتراه يحمد الله : فإذا وقيت بحمد الله شرَّتها . . . البيت
ويعتقد أن الله ذو عدل ووفاء

(١) الفند : الكذب

(٢) راجع ص ٢٧ و ٣١ من هذا الكتاب

أبى الله إلا عدله ووفاءه فلا الشكر معروف ولا العرف ضائع
وأن الأفعال منسوبة إلى الله في الحقيقة لا الإنسان :

فلما وقاها الله ضربة فأسه وللبر عين لا تغمض ناظره
وأن المواثيق والعهود يجب أن تكون باسم الله كقوله : وفواثقها بالله حين تراضيا
وكقوله : فقال تعالى نجعل الله بيننا على مالنا أو تنجزى لى آخره
على أن كل هذه الآيات إن دلت على شيء فإنما تدل على أنه يؤمن بالله كما كان
يؤمن عامة العرب . ولقد جاء في شعر النابغة ما يثبت أنه كان يحج إلى الكعبة في
موسم الحج ، والكعبة كانت مباءة الأوثان والأصنام ، ولكن العرب كانوا يعظمونها
لأنها بيت الله الذي شيده إبراهيم ، استمع إليه يقول :

قالت أراك أخا رَحِلٍ وراحلة تَغشى متالفَ لَنْ يَنْظُرَ نَكَ الهَرَمَا (١)
حيَاكَ رَبِّي فَإِنَّا لَا يَحِلُّ لَنَا لهُو النساء وإن الدين قد عَزَمَا (٢)
مَشْمَرِينَ عَلَى خَوْصٍ مَزْمَمَةٍ نَرْجُو الآله ونَرْجُو البر والطُعْمَا (٣)

بل تراه يقسم بالأنصاب ، وما أريق عليها من دم قد تجسد ، وبالكعبة ، وبرب الكعبة
الذي أمن الطير في الحرم ، وذلك في صدد اعتذاره للنعمان ، أى في أخريات أيامه :
فلا لَعَمْرُ الذي مَسَحَتْ كَعْبَتَهُ وما هُرِيقَ على الأنصاب من جَسَدٍ (٤)
والمؤمن العائذات الطير تَمَسَحُهَا رَكبانُ مكة بين الغَيْلِ والسَّعْدِ (٥)

- (١) أى متالف تقتلك ولا ينظر نك إلى وقت الهرم ، نخذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه
(٢) الدين هنا : الحج أى لا يحل لنا اللهو بك لأننا قد عزمنا على الحج
(٣) مشمرين : جادين ، والخوص : الإبل الغائرة العيون واحدها خوصاء ، ومزمة : مشدودة برحائها
والطعم : ج طعمه وهى ما يرزقه الإنسان وكان يسبق الحج الذهاب إلى عكاظ للتجارة كما رأينا
(٤) مسحت : زرت وطفيت ولمست ، وهريق : صب ، والجسد : الدم
(٥) المؤمن : الله تعالى ، وهو مجرور بواو القسم أو معطوف على (لعمري الذي) ، والعائذات : المستجيرات
وهو منصوب بالمؤمن لاعتماده على للوصول لأن الألف واللام بمعنى الذى أو مجرورة لإضافة مؤمن إليها إضافة
لفظية ، فالطير إما منصوب أو مجرور على أنه عطف بيان لها وتمسحها حال ، وركبان مرفوع على أنه فاعل
تمسح. والغيل : يفتح الغين : الماء الحار على وجه الأرض وهو ما يخرج من أصل جبل أبى قبيس ، والغيل
بالكسر ، والسعد : أجمتان كانتا منافع بين مكة ومكة وقد رجع الأصمى الغيل بالفتح هنا

وكقوله :

حلفتُ بمن تساق له الهدايا على التأويب يعصمها الدرين^(١)

برب الراقصات بكل سهب^(٢) بشعث القوم موعدها الحجون^(٣)

ولقد نفى دير نبورج^(٤) نصرانية النابغة ، وأكد أنه كان كبقية العرب يعتقد في آله واحد ، وإن كان يعظم الأوثان ويحلف بها ، وليس ثمة داع للتعسف وتحميل الآيات ما لا تحتل من معان تلمساً لادعاء أن النابغة كان نصرانيا ، وإن بيتاً كالذى يقوله النابغة :
فلا عمر الذى أثنى عليه وما رفع الحجيج إلى إلال^(٥)

لأدل على دينه من تلك الآيات التى مدح بها الغساسنة على نصرانيتهم ، ووصف فيها أعيادهم ، أو التى ذكر فيها اسم الله فى مقام الحلف أو الدعاء ، وقد كان هذا أمراً شائعاً بين العرب فيقسمون بالله ، ويقولون باسمك اللهم ، ورب السكبة ، وما شا كل هذا وهم على وثنيته ؛ لأنها وثنية وراءها توحيد يكمن فى قرارة نفوسهم

والنابغة إذا لم يكن نصرانياً فإنه كان رجلاً عاقلاً حكيماً ، ذا مبادئ مستقيمة ، وانتهج سبيلاً خلقياً قوياً ، تجلى فى حرصه على العهود والمواثيق ، وتبشيعه الخيانة والغدر ، واستنكاره بكل ما أوتى من قوة ما نسب إليه من تهم ، وتجلى بعض مبادئه الخلقية فى قوله :

واسبق ودك للصديق ولا تكن قتباً يعص بغارب ملحاحا^(٥)

فالرفق يمين والأناة سعادة فتنة فى رفق تنال نجاحا

(١) التأويب : السير جميع النهار ، أو تبارى الركاب فى السير . وأدرنت : الإبل طعمت الدرين وهو يبس كل حظام حمضى أو شجر أو بقل

(٢) السهب : الفرس السريع العدو . وشعث القوم : أى الحجاج ، والحجون : جبل بمحلة مكة . يقسم بكل هذه الأمور التى تتعلق بالحج

(٣) راجع ص ٢٦٣

(٤) الإلال : ككتاب جبل على يمين الإمام بعرفة

(٥) القتب : الإكاف الصغير على قدر سنام البعير ، والغارب : الكاهل أو ما بين السنام إلى العنق ، يريد ألا يكون دائم الاحتكاك بصديقه يضايقه ويحاسبه على الصغيرة والكبيرة

والياس مما فات يُعْقِبُ راحة ولرب مطعممة تعود ذباحا^(١)
ففي هذه الآيات يدعو النابغة إلى المحافظة على الود، والتسامح مع الأصدقاء،
وإلى الرفق في المعاملة، والتأني في الأمور، وعدم التحسر على ما فات، وعدم الجشع
والحرص على الحياة، ويتجلى كذلك هذا المعنى الأخير في قوله:

ولستُ بذَاخِرٍ لَغَدٍ طَعَاماً حِذَارِ غَدٍ لِكُلِّ غَدٍ طَعَامٌ
تَمَخَّضْتُ الْمَنُونُ لَهُ يَوْمَ أَنِي وَلِكُلِّ حَامِلَةٍ تَمَامٌ
وليس معنى هذا أنه لم يكن ذا ثراء يوماً ما من حباء الغساسنة والمناذرة، ولكنه
ثراء أهل البادية قد تذهب به سنة مجدية

(١) الذباح: نبت سام أو وجع في الحلق

شعر النابغة

يعد النابغة من شعراء الطبقة الأولى في العصر الجاهلي ، يتبارى في ميدان الأسبقية مع امرئ القيس وزهير ، ولم يستطع ناقد ما في القديم وفي الحديث أن يفضل أحدهم على الآخر ، وإن امتاز امرؤ القيس بالسبق الزمني ، وفي الوصول إلى معان مبتكرة خالدة على نمط لم يسبق إليه ، وسبيل غير معبد من قبل ، فذلل بذلك الشعر لمن أتى بعده ، ووضع للشعر تقاليد عاتية لم يستطع الفسكك منها في عصوره اللاحقة ، وفخر ينابيع المعاني ، ودل عليها رواد الشعر من بعده ، فجددوا وابتكروا ، ولكن ظل له فضل الرائد الأول .

كان النابغة من مدرسة المجودين في الشعر المتأنيين في صوغه ، الذين لا يقولونه ارتجالاً ، وإنما يتعملون فيه ، ويقلبونه على وجوه مختلفة ، ينفون منه الغث ويختارون له جيد اللفظ والمعنى ، فهو وزهير ينتميان إلى مدرسة واحدة ، وإن اشتهر زهير بحولياته وبطول التفكير والتهذيب لشعره ، ولم يجاره النابغة في هذا المضمار ، وعلى الرغم من ذلك فقد قلّ في شعره السقوط والوحش من الألفاظ ، مع افتتان في المعاني

وإذا كان امرؤ القيس قد اشتهر بوصف النساء والتشبيب بهن ، وتصوير مناظر الصيد ، والإجادة في وصف الطبيعة ، وإذا كان زهير قد برع في الحكمة وتصوير المشاهد الحسية في الفلاة . وبرّز في وصف مناظر الصيد ، فإن النابغة قد أضاف إلى قيّارة الشعر الجاهلي وتراً جديداً لم يعرف من قبله ، وذلك هو فن الاعتذار ، وإن حلق في كثير من الفنون الأخرى كالوصف والمديح والثناء والهجاء والحكمة ، إلا أنه في اعتذارياته نسيج وحده ، أتى فيها بما يدل على تفهم للنفس البشرية ، وقدرة عجيبة على ابتكار المعاني والتحايل في أسر القلوب وسل سخائمها ، فطرق أبواب الاعتذار جميعها ، في رقة وعذوبة وسلاسة ندر أن تنهياً كلها لشاعر .

الاعتذار :

مرت بنا قصة النابغة مع النعمان بن المنذر وغضبه عليه؛ لو شاية قام بها حساد النابغة ومن نفسوا عليه مكانته لدى النعمان ، وعرفنا كيف عاد النابغة إلى النعمان، ولسكنه كان حريصاً على ألا يعود مجرماً أو متهماً ، لا لخوف من أبي قابوس، ولا لرغبة، في عطاياه ولسكن لأن النابغة كان ذا جاه ومنزلة عظيمة في قومه ، وكان رجل سياسة ، وأبى أن يختم حياته المليئة بعظام الحوادث وهو متهم لدى المناذرة بالخيانة وعدم الوفاء لصاحبه ورعاية صداقته ، بل بذمة وتحقيره ، وهي أمور كان النابغة يعتقد أنه برىء منها ، وأنها لا تتفق مع ما اشتهر به من الوفاء لأصدقائه ورعايته العهود ، والجد في حياته ، وليس يحز في نفس امرئ أكثر من أن يشيع عليه نقيض ما يعتقد ، أو ما هو عليه في الحقيقة . هذا فضلاً عن أن تلك التهم تشين هذا المجد الذي دأب النابغة طوال حياته على رفع عمده ، وتغض من منزلته الرفيعة بين قومه وأحلافهم ، والملوك الذين أحبوه وأكرموه ؛ ولذلك جهد النابغة في نفي هذه التهم بدافع نفساني أولاً ، ثم بدافع الحرص على السمعة والكرامة ، ولقد حاول أن يظهر نفسه للنعمان بادي الأمر أنه عزيز الجانب كريم اليد ، ثائر على الظلم ، فارس شجاع ، له منعة من قومه ؛ حتى لا يظن النعمان به الظنون ، ويرى في اعتذاره بعض تلك المعاني التي تخطر بالبال كالحرص على النعمة التي كان يتقلب في أعطافها أو الخوف من بطشه ، ولذلك قال :

أبلغ لديك أبا قابوس ما ألكنة الواهب الخيل والقينات والنعماء
نلوى الرءوس إذا ريمت ظلامتنا ونمنح المال في الإحمال والغنما (١)
ونلبس الدهم ذا الماذى ضاحية بالدهم تمت نغشى الموت والقنما (٢)

(١) الغنم : الغنائم أي أننا نأبى الضيم ونلوى رءوسنا كبراً ، ونمنح المال في حالي الشدة والرخاء
(٢) الدهم : الأسود ، ويقصد به الشك . وذا الماذى : كل سلاح من الحديد ، وضاحية : أي في وضوح النهار لشجاعتهم ، والدهم الثانية : الجواد الأسود اللون ، والقنم : الغبار

وَنَقْتُلُ السَّكْبَشَ بَعْدَ السَّكْبَشِ نَاسِرَهُ قَدِمًا وَنَضْرِبُ فِي حَوْمَاتِهَا قَدِمًا (١)
ولقد مرت بنا قصيدته التي قالها أول ما قدم الحيرة بعد الجفوة بينه وبين النعمان
والتي أبدأها بتجديده عن أرقه وكتمانه همين : هم ظاهر يلوح على مخايل وجهه ، وهم
مستكن في حنايا صدره ؛ لأن نفسه تشتكي ما يريها ، وما ثبت لديه من سوء ظن
صاحبه به فوردت عليها الهموم ، ولم تجد لها منصرفاً ، ونفسه تكلفه أن يعمل على أن
يصرف الدهر ذلك الهم ، ولسكن هل له قَبْلُ بالدهر وقدره عليه ، وذلك حيث يقول :

كتمتك ليلاً بالجـومين ساهراً وهمين هماً مستكناً وظاهراً
أحاديث نفس تشتكي ما يريها وورْدَ هموم لن يجدن مصادراً
تكلفني أن يفعل الدهر همها وهل وجدت قبلي على الدهر قادراً

وقد رأينا أنه في هذه القصيدة يبرهن للنعمان أنه على الرغم من منعته ، وتحصنه في
قمم الجبال ، التي يخال بها راعي الحمولة كالطائر لصغر حجمه ، وشموخها في أجواز الفضاء ،
والتي تزل الوعول العصم عن قذفاتها ، وتضحي ذراها مغطاة بالسحب لشدة ارتفاعها ،
فإنه حريص على مرضاته ، وعلى أن يبرى نفسه مما اتهم به ، وتلك لعمري نفس كبيرة
ذات حساسية مرهفة ، وذلك حيث يقول :

سأكعم كلبي أن يريك نبجته وإن كنت أرعى مُسَجَّلان فخامراً
وحلت بيوتى في يفاع ممنع يخال به راعي الحمولة طائراً
تزل الوعول العصم عن قذفاته وتضحي ذراه بالسحاب كوافراً (٢)
حذاراً على ألا تنال مقادق ولا نسوتى حتى يمتن حرائراً

وهو وإن كان في هذه المنعة ، ويعز على كل من يريده بسوء ، إلا أنه أتى النعمان
واعترافاً إليه ؛ ليزيل عن نفسه ما وصمت به ، ويسترد مكانته الاجتماعية والأدبية ،

(١) كبش القوم : فارسهم

(٢) مر شرح هذه الأبيات

ولذلك يقول :

فَأَلَيْتَ لَا آتِيكَ إِنْ جِئْتُ مُجْرِمًا وَلَا أُبْتَغِي جَارًا سِوَاكَ بِجَاوِرًا
ومن بدائع اعتذارياته هذه القصيدة البائية الخالدة التي يقول فيها :

أَتَانِي أُبَيْتُ اللَّعْنَ أَنْكَ لَمَسْنِي وَتِلْكَ الَّتِي أَهْتَمُّ مِنْهَا وَأَنْصَبُ^(١)
فَبِتُّ كَأَنَّ الْعَائِدَاتِ فَرَشَنَ لِي هَرَّاسًا بِهِ يُعَلَى فِرَاشِي وَيُقَشَّبُ^(٢)
حَلَفْتُ فَلَمْ أَتْرِكْ لِنَفْسِكَ رِيْبَةً وَلَيْسَ وَرَاءَ اللَّهِ لِلْهَرِّ مَذْهَبُ
لَئِنْ كُنْتُ قَدْ بَلَغْتَ عَنِّي خِيَانَةً لِمَبْلَغِكَ الْوَاشِي أَغْشُ وَأُكْذِبُ
وَلَسَكُنِّي كُنْتُ أَمْرًا لِي جَانِبُ مِنَ الْأَرْضِ فِيهِ مُسْتَرَادٌ وَمَذْهَبُ^(٣)
مَلُوكٍ وَإِخْوَانُ إِذَا مَا أَتَيْتَهُمْ أَحْكَمُ فِي أُمُومِهِمْ وَأَقْرَبُ
كَفَعَلِكَ فِي قَوْمٍ أَرَاكَ اصْطَنَعْتَهُمْ وَلَمْ تَرْهَمْ فِي شُكْرٍ ذَلِكَ أَذْنِبُوا
فَلَا تَتْرُكْنِي بِالْوَعِيدِ كَمَا تَنِي إِلَى النَّاسِ مَطْلُيُّ بِهِ الْقَارِ أَجْرِبُ
أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَعْطَاكَ سُورَةً تَرَى كُلَّ مَمْلُوكٍ دُونَهَا يَتَذَنَّبُ^(٤)
بَأَنَّكَ شَمْسٌ وَالْمُلُوكُ لَوَاكِبُ إِذَا طَلَعَتْ لَمْ يَبْدُ مِنْهُمْ كَوْكَبُ
وَلَسْتَ بِمُسْتَبَقٍ أَخَا لَا تَلْمُهُ عَلَى شَعَثٍ، أَيْ الرِّجَالِ الْمَهْذَبُ؟^(٥)
فَإِنْ أَكْ مَظْلُومًا فَعَبْدٌ ظَلَمْتَهُ وَإِنْ تَكْ ذَا عُتْبِي فَتَمْلِكُ يُعْتَبُ^(٦)

(١) أُبَيْتُ اللَّعْنَ: أَيْ أُبَيْتُ أَنْ تَأْتِيَ أَمْرًا تَلْعَنُ عَلَيْهِ ، وَتِلْكَ: أَيْ الْمَلَامَةُ هِيَ الَّتِي صَيَّرْتَنِي مَهْتَمًا ،
وَالنَّصَبُ: الْإِعْيَاءُ بَعْدَ الْمَشَقَّةِ

(٢) الْعَائِدَاتُ: الزَّائِرَاتُ مِنَ النِّسَاءِ فِي الْمَرَضِ . وَهَرَّاسٌ: شَجَرٌ شَائِكٌ ثَمَرُهُ كَالنَّبَقِ . وَيُقَشَّبُ:
يُخْلَطُ وَيُجَدَّدُ

(٣) مُسْتَرَادٌ: أَيْ إِقْبَالٌ وَإِدْبَارٌ وَهُوَ مُصْدَرٌ مَبْنِيٌّ مِنْ رَادٍ يَرُودُ إِذَا خَرَجَ رَائِدًا لِأَهْلِهِ ، وَمَذْهَبُ
مَفْعَلٌ مِنَ الْمَذْهَابِ

(٤) سُورَةٌ: سُلْطَانًا وَقُوَّةً . وَيَتَذَنَّبُ: يَضْطَرِبُ

(٥) الشَّعَثُ: التَّفَرُّقُ وَالْفَسَادُ . وَتَلْمُهُ: تَجْمَعُهُ وَتُصْلَحُهُ

(٦) الْعُتْبُ بِفَتْحِ الْعَيْنِ: الْمَوْجِدَةُ ، وَالْعُتْبِي: الرِّضَا . وَأَعْتَبَهُ: أَعْطَاهُ الْعُتْبِي ، وَطَلَبَ إِلَيْهِ الرِّضَا

ومن هذه الآيات يتضح أسلوب النابغة في الاعتذار ، انظر إليه : كيف وصف حالته النفسية لما علم بغضب النعمان ، وأنه مهموم نصَّب لذلك الغضب ، بل إنه كالمريض الذي لا يكتحل جفناه بسنة من نوم ، كأن الزائرات اللاتي يُعدنه فرشاً له شوكة ، وهيهات لمن ينام على الشوك أن يعرف طعم الراحة أو يذوق السكرى ! ثم انتقل بعد هذا إلى الحاجة في لطف ، فذكر أنه حلف بالله أنه يرى بما رمى به زوراً وميناً ، وليس بعد اليمين بالله يمين ، فعلى النعمان أن يصدق قسمه ، ويبرئه مما اتهم به ؛ لأن ما بلغه هو دس واش ، هو أغش الناس وأكذبهم عليه ، أغش الناس له لأنه باعد بينه وبين شاعره الفحل ، وملك النعمان لا يزدان إلا بمثله ، وأكذبهم عليه ؛ لأنه اختلق تهماً لا أساس لها ، ولا برهان عليها . ثم يقول للنعمان : إن كان هذا الواشي قد استدل على تنكري لك بذهابي إلى الغساسنة ، وأنا وجدت لديهم متسعاً من الأرض فهو لاء . وإن كانوا ملوكاً لا يقلون عنك منزلة ، فهم لي إخوان أحكم في أموالهم ، ويشعرونني في كل برهة على عظيم مودتهم ، وعلى أنى لست منهم ذلك الشاعر المرتزق بل القريب المحبوب ، والصديق الكريم ، وليس ذلك بدعاً من الأمر ، ولذلك وجب على شكرهم والإشادة بفضلهم ، وحاشاك أن تنكر على هذا فقد اصطنعت أقواماً كانوا مع غيرك ثم أتوا إليك فأدنيتهم وأكرمهم ، فأنثوا عليك بما أنت أهله ، ولم تر ذلك منهم ذنباً . وفي هذا كله تعريض بالنعمان ، وأنه خسر ، وأنه لم يعامله معاملة الغساسنة له . وبعد هذه المجادلة المقنعة أخذ النابغة يهول في قوة النعمان ، ويفخم فيه حتى يتفتح له قلبه مخافة أن يفهم من الحاجة السالفة أنه في غنى عنه ، وفي منعة منه ، فقال : إنك أوعدتني وتركتني موسوماً بهذا الوعيد ، فمثلي مع الناس مثل البعير الأجرى يدفعونه كلما رأوه ؛ خشية أن يعدى سواه من الإبل ، فأنا لا أزال أدع في المجالس ، وتوصد دوني الأفدة منذ غضبت عليّ : رهبة منك وخشية لك ، ولا تعجب إذا كان هذا شأنك ، وهذه سطوتك على القلوب ، فإني أقرر أن الله حبأك منزلة يفرق منها كل ملك ، ويضطرب لها كل صولجان ، فأنت من الملوك شمس يكسف ضوءها كل ضوء سواها ، فإذا ظهرت

في ميدان ما : من كرم ، أو قوة ، أو ثروة ، لم تجد لهم أثراً ؛ إذ لا يستطيعون مباراتك
ثم بعد هذا التعظيم وهذه المبالغة التي أحاطت النعمان فوق منزلته ، والتي من شأنها أن
تهزه عجباً ، وتثني عظمته ، وتدخل على قلبه المسرة والجدل ، وجه النابغة إليه نصيحة
خالدة حكيمة بقوله : لن يكون لك صديق ما إذا لم تغفر خطيئته ، وتنسى زلته ، وتقبل
عثرته ، وتله على ما به من عيوب ، فليس ثمة على ظهر البسيطة رجل تبرأ من العيب
وصار مهذباً لا هنة تشوب خلقه

وفي النهاية قذف النابغة بآخر سهم في كنانته ، وأظهر من الذلة والخضوع ما لا عهد
للعربي الأبى به ، وذلك حيث يقول : إني راض بحكمك ، وقسوتك عليّ ، فما أنا إلا
عبد ظلم ، وهيهات للعبد أن يحتج على ظلم سيده له ، وعسفه به ، فدع الأمر على هذا
الوضع ، وانستأنف علاقتنا بهذه الصورة . ولكن النابغة يذكر هذا من قبيل سل السخيمة
وترضية النفس فحسب ، ولن يقبل إلا الرضا ، ولذلك ختم اعتذاره بقوله : وإن شئت
أن ترضى وتصفح فملك خليك بهذا ، وأنت له أهل .

على هذا هذا المزهري الأوتار الخمسة عزف النابغة هذه الأغنية الحلوة ، عليها
تستل من فؤاد النعمان ما به من ضغن عليه ، وتهديد له ، وسطر بها فناً جديداً في الأدب
العربي لا يزال حتى اليوم يشرب بعنقه في موكب الشعر الزاخر تفوقاً وسمو مكانة

ومن روائعه في الاعتذار العينية المشهورة ، وفيها سبيل جديدة سلكها النابغة
لشفذ بها إلى فؤاد النعمان فيمسح بيلسم سحره ، وعذب شعره ، ما علق به من وضر ،
وما استكن فيه من موجدة ، وفيها يقول :

وعيد أبي قابوس في غير كنهه أتانى ودونى راكس فالضواجع ^(١)

(١) في غير كنهه : في غير موضعه ، راكس : واد ، والضواجع . ج ضاجع وهو منحني الوادي

فَبِتْ كُنَانِي سَاوَرْتَنِي ضَيْلَةً
 يُسَمِّدُ مِنْ لَيْلِ التَّسَامِ سَلِيمَهَا
 تَنَازَرَهَا الرَّاقُونَ مِنْ سُوءِ سَمْعِهَا
 أَنَانِي أَيْتِ اللَّعْنِ أَنْكَ لَمْتَنِي
 مَقَالَةٌ أَنْ قَدْ قَلْتَ سَوْفَ أَنَالَهُ
 لَعَمْرِي وَمَا عَمْرِي عَلَى بَهِينِ
 أَقَارِعَ عَوْفٍ لَا أَحَاوِلُ غَيْرَهَا
 أَنَاكَ أَمْرٌ مُسْتَبْطَنٌ لِي بِغَضَّةٍ
 أَنَاكَ بِقَوْلِ هَلْهَلِ النَّسِجِ كَاذِبٍ
 أَنَاكَ بِقَوْلِ لَمْ أَكُنْ لِأَقُولُهُ

مِنْ الرُّقْشِ فِي أَنْيَابِهَا السَّمِ نَاقِعٌ (١)
 حَلَى النِّسَاءِ فِي يَدَيْهِ قَعَاقِعُ (٢)
 تَطْلُقُهُ طَوْرًا وَطَوْرًا تَرَاجِعُ (٣)
 وَتِلْكَ الَّتِي تَسْتَكُّ مِنْهَا الْمَسَامِعُ (٤)
 وَذَلِكَ مِنْ تَلْقَاءِ مِثْلِكَ رَائِعُ (٥)
 لَقَدْ نَطَقْتَ بُطْلًا عَلَى الْأَقَارِعِ (٦)
 وَجَوْهُ قُرُودٍ تَبْتَغِي مِنْ تَجَادُعِ (٧)
 لَهُ مِنْ عَدُوِّ مِثْلِ ذَلِكَ شَافِعُ (٨)
 وَلَمْ يَأْتِ بِالْحَقِّ الَّذِي هُوَ نَاصِعُ (٩)
 وَلَوْ كُتِبْتَ فِي سَاعِدِي الْجَوَامِعُ (١٠)

(١) سَاوَرْتَنِي : وَابْتَنِي ؛ وَضَيْلَةٌ : دَقِيقَةُ اللَّحْمِ ، وَهِيَ أَشَدُّ سَمًّا مِنْ غَيْرِهَا وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ الرَّاجِزُ :

لَمِيْمَةٌ مِنْ حَنْشٍ أَعْمَى أَصَمٌ قَدْ عَاشَ دَهْرًا وَهُوَ لَا يَمُشِي بِدَمٍ

وَكُلَّمَا أَثَارَ مِنْهُ الْجُوعَ شَمَ

لَأَنَّ الْحَيَّةَ إِذَا كَبُرَتْ عَافَتْ الطَّعَامَ ، وَضَوَّلَ جَسْمَهَا ؟ وَازْدَادَتْ شَرَّتَهَا لَتُرَكَّرَ سَمُّهَا . وَالرَّقْشَاءُ : الَّتِي فِيهَا قَطْعُ سُودٍ وَبَيَاضٍ . وَالنَّاقِعُ : الثَّابِتُ ، يُقَالُ : تَقَعَّ قَعْوَعًا إِذَا ثَبَتَ أَيُّ طَالُ مَكَثُهُ

(٢) لَيْلِ التَّسَامِ : لَيَالِي الشِّتَاءِ الطَّوَالَ ، وَالسَّلِيمُ الْمُدَوَّغُ تَفَاوُلًا بِشَفَائِهِ ، وَقَعَاقِعُ : جَمْعُ قَعْقَعَةٍ وَهِيَ الصَّوْتُ الشَّدِيدُ . وَيَعْلُقُ الْحَلَى عَلَى الْمُدَوَّغِ لَتَقْوَى نَفْسُهُ ، وَلَيْسَ بِنَافِعٍ ، أَوْ حَتَّى لَا يَنَامُ فَيَسْرِى السَّمُّ فِي جَسْمِهِ

(٣) تَنَازَرَهَا : أُنْذِرُ بَعْضَهُمْ بَعْضًا مِنْ سُوءِ سَمِّهَا ؛ لِأَنَّهَا تَمْسُكُ بِهِمْ فَلَا تَسْتَجِيبُ لَهُمْ حِينَ يَدْعُونَهَا أَوْ مِنْ سُوءِ سَمْعِهَا بِكُسْرِ السِّينِ أَيُّ شَهْرَتِهَا فِي السُّوءِ . وَتَطْلُقُهُ أَيُّ يَشْتَدُّ بِهِ الْوَجَعُ تَارَةً ، وَيَخْفُ تَارَةً

(٤) تَسْتَكُّ : تَضِيقُ وَالسَّكُّ : ضَيْقُ الصَّبَاحِ

(٥) رَائِعُ : مَفْزَعٌ وَمَقَالَةٌ بِالرَّفْعِ بَدَلٌ مِنْ فَاعِلٍ أَنَّنِي فِي الْبَيْتِ قَبْلَهُ .

(٦) الْأَقَارِعُ : بَنِي قُرَيْعٍ بَنُ عَوْفٍ يُشِيرُ إِلَى مَرَّةِ الْقُرَيْمِيِّ الَّذِي وَشَى بِهِ

(٧) تَجَادُعُ : أَيُّ تَشَاتُمٍ ، وَقَدْ مَرَّ شَرْحُ هَذَا الْبَيْتِ وَمَا قَبْلَهُ

(٨) الْبَغْضَةُ : الْبَغْضُ ، كَالَّذِلَّةِ وَالذَّلِّ وَالْقَالَةِ وَالْقَلِّ ، وَشَافِعُ : أَيُّ مَعَهُ شَخْصٌ آخَرُ مِثْلَهُ

(٩) هَلْهَلِ النَّسِجِ : سَخِيفِ النَّسِجِ وَثَوْبِ مَهْلَهْلٍ كَذَلِكَ ، وَالنَّاصِعُ : الْوَاضِحُ

(١٠) الْجَوَامِعُ : الْأَغْلَالُ الْوَاحِدَةُ جَامِعَةٌ ، أَيُّ وَلَوْ حَبَسْتَ حَتَّى يَبْلُغَ مِنْ حَبْسِي أَنْ أَغْلَ

حلفت فلم أترك لنفسك ربيعة
بمصطحبات من لَصَافٍ وثبرة
سما ما تبارى الريح خوفاً عيونها
عليهن شعث عامدون لحجهم
لـكلفتني ذنب امرئ وتركته
فإن كنت لأذو الصَّغْنِ عني مكذب
ولا أنا مأمون بشيء أقوله
فإنك كالليل الذي هو مدركي
خطاطيف حُجْنٍ في حبال متينة
أتوعدُ عبداً لم يخنك أمانة
وأنت ربيعٌ ينعشُ الناسَ سيبه
أبي الله إلا عدله ووفاه

وهل يأمن ذا أمة وهو طائع^(١)
يزُرْنَ إلا لا سيرُهُنَّ التدافع^(٢)
لهن رذايا بالطريق ودائع^(٣)
فهن كأطراف الحنئ خواضع^(٤)
كذي العُرِّ يكوى غيره وهو راتع^(٥)
ولا حلفي على البراءة نافع^(٦)
وأنت بأمر لا محالة واقع
وإن خلت أن المتأى عنك واسع
تمدُّ بها أيدٍ إليك نوازع^(٧)
ويترك عبد ظالم وهو ظالع^(٨)
وسيفٌ أعيرته المنية قاطع
فلا النكر معروف ولا العرف ضائع

- (١) الريبة : الشك ، ذو أمة : أي ذو دين
(٢) لصف وثبرة : موضعان ، والإلال : جبل عن عين الإمام بعرفة ، وسيرهن التدافع : أي يدفع بعضها بعضاً لسرعتها ، أو أنها قد أعيت وأجهدها السير فهن يتحاملن في سيرهن
(٣) السام : الخفيف اللطيف السريع من كل شيء ، وخواصاً : غائرة العيون من الجهد ، ورذايا : جمع رذية ، وهو المتروك المطروح من الإبل ، ودائع : تركت بالطريق
(٤) شعث : ج أشعث وهو المغبر الشعر من طول السفر ، والحنئ : القسي ، وخواضع : ج خاضعة أي متطامنة العنق
(٥) العر بالفتح : الجرب ، وبالضم : قروح تخرج في أصل العنق ، وقد مر شرح البيت
(٦) من روى كنت بالضم رفع (ذو) على الابتداء ، ومكذب خبر عنه ، ومن رواه بالفتح ، نصب ذا على أنه مفعول مقدم لمكذب على صيغة الفاعل ، ونصب مكذبا على أنه خبر كان
(٧) خطاطيف : جمع خطاف وهو الحديد في جانبي البكرة التي تدل في البئر عند إخراج الماء ، أو كل حديدة معوجة . وحجن : ج أحجن وحجناء أي معوجة . قال الأصمعي : كأنني في خطاطيف أجز بها إليك خطاطيف مبتدأ محذوف تقديره لك
(٨) ظالع : جائر عن الحق ، وهو للمذكر والمؤنث بلفظ واحد (الفاموس)

وَتَسْقَى إِذَا مَا شَدَّتْ غَيْرَ مُصَرَّدٍ بزوراء في حافاتها المسك^(١) كانع

ففي هذه القصيدة القوية يحاول النابغة مرة أخرى أن يبرهن على براءته ، وأن يضرب على وتر جديد في الاعتذار عله يستميل قلب النعمان ، فيرد إليه اعتباره . فقد جاءه وعيد أبي قابوس ، وهو في مكان أمين ، وحصن ركين بين راكس والضواجع ، ومع هذا فقد أرقه هذا الوعيد ، وأقضى مضجعه ، فبات كأنما وثبت عليه حية قد كبرت سناً ، وازدادت شررة وضراوة ، وصار سمها نافعاً لا يبرأ منه عليل ، فن لدغته يحفوا السكرى جفونه سهداً وألماً ، ويلبس حلى النساء حتى لا يغلبه النعاس فيسرى سمها في بدنه فيشيع فيه التلف ، ويودى به إلى التهلكة ، وهي حية ضئيلة الجسم ، مشهورة بسعة حيلتها ، أو بضراوتها وقسوة لدغتها ، حتى تحاشاها الراقون الذين تخضع لهم الأفاعى والصلال وتراها تعاود هذا اللديغ ، فتارة يشتد به الألم ، وتارة يخف عنه ، وهو في حيرة من أمره فهذا الألم الممض الذي يعانيه من ظفرت به هذه الحية هو ذات الألم الذي يحز في فؤادي وينهش ضميري ، ويلدغ نفسي ويوجعها . إن هذه الليالي النابغية قد ذاعت ، وهي ليال كان للضمير وتأنيبه فيها سطوة وقهر ، وهو الذي جعله نهياً للوساوس والمفازع . وليس الخوف من بطش النعمان ، فقد كان في مأمن من أن تصل إليه يده ، وكان بين قومه ، أو بين ملوك أعزة هيئات أن يسلموه لعدوه وعدوهم ؛ إذ تأبى عليهم ذلك شهامتهم العربية ، ومنعه ملكهم ، وهم الذين طالما غزوا الحيرة وأوقعوا بملوكها الضر في ميدان الوغى .

وبعد أن وصف النابغة ما يعانيه من ألم نفسي لاذع ، ولياليه المؤرقة ، أخذ يبرىء نفسه مما اتهم به فقال للنعمان : بلغنى أنك لمتنى ، وملا متك تلك هي التي أفرق منها وأجزع وأتمنى أن لو كنت أصم الأذنين حتى لا أسمعها لفظاعتها ، ولقد قلت سوف أناله

(١) مصرد : التصريد الشرب دون الري يقال : صرد شرا به إذا قلله ، وزوراء : إناء من قصب للشراب ، وكانع : من كنع المسك بالثوب لصق به

بسوء مهما بالغ في الحذر وأمعن في الحرب ، وذلك فظيع مرعب من مثلك . وفي هذا تهويل من النابغة في سطوة النعمان ، ومثل هذا التهويل يرضى كبريائه ، ويشرح فؤاده ومن ثم التفت النابغة إلى أعدائه الذين وشوا به ، وأفسدوا صدر النعمان عليه ، فأقسم بحياته ، وليست حياته هينة رخيصة عليه : أن هؤلاء الأقارع قد كذبوا ومانوا ، وأتوا بالإفك والبهتان ، ويعنى أقارع عوف لا يحاول هجاء سواها ، فلمهم وجوه قروء كالحة كثيفة تطلب المشاتمة والمشاكسة . وقال للنعمان : لقد أتاك امرؤ يكن البغضاء والموجدة لى ، قد أكل الحقد فؤاده ، واعتصر الحسد نفسه ، وزكاه عدو في مثل حسده وحقده ، أتاك بفرية مختلقة ، ضعيفة واهنة ، كأنها الثوب المهلهل النسيج لا يقوى على الاختبار ، وليته أتى بالحق الناصع ، وإنما أتى بالزور والباطل ؛ أتاك بقول أترفع عن أن أقوله ، ولم أكن لأقوله ، وأنا في هذه السن ، وتلك المسكاة ، ولو سجننت وغلت يدائ بالأصفاد . لقد أقسمت لك ولم أدع موضع ريبة إلا فندته ، وكيف يأثم من له دين مثلى طائعا مختاراً فيجلف كذباً . أقسم بهذه الإبل التى تنقل الحاج إلى بيت الله الحرام تتدافع في سيرها عدواً ، وتبارى الريح سرعة ، وقد غارت عيونها من التعب والجهد ، ونفق منها في الطريق ما ضعفت منته وأهلكه الونى ، وبمن عليها من الرجال الذين قد اغبرت وجوههم ، وتشعثت شعورهم وذلك لطول سفرهم ، فأضحت هذه النوق كأنها الأقواس ضموراً وانحناء

وإني وهذا الواشى الذى تركته يتمتع بعطفك وحماك كالبعير الأجرى الذى يكوى سواه وهو راتع فى بحبوحة وأمن .

ثم انتقل النابغة إلى المجادلة وإظهار اليأس من النعمان بقوله : إن كنت لا تكذب هذا الذى امتلأ قلبه ضغناً علىّ ، ولا تصدق يميني التى أقسمتها على براءتى ، ولا يوثق بى فى أى شىء أقوله ، وأنت مصر على الإيقاع بى ، فكيف أصنع وقد ضاقت علىّ السبل ، وسلكت كل طريق لأرضيك فوجدته لا يصل إلى قلبك ؟ لقد صرت كالليل المفزع الرهيب الموحش الذى يطبق بظلمته ، ولا مفر ولا مهرب من وحشته ، فأنت

منى بمثابة هذا الليل من المسافرين سفرة طويلة ، لا يستطيع منه نجاة ، ولا عنه حولا .
ولقد أتخيل أن المسافة شاسعة بيني وبينك ، ولسكن غضبك على يلاحقني في خلوتي ،
ولن يهدأ لي ضمير حتى ترضى ، وكأنني أجذب إليك بخطاطيف حجر تشدها
حبال متينة

ومن ثم أخذ النابغة يتذلل ويخضع فقال : أتوعد عبداً أميناً لم يفرط في حق أو تمن
عليه ، وتترك هذا الظالم الجائر عن الصراط السوى . وإذا لم يقنعك هذا المنطق ، فلك
من سجاياك ما يجعلك ترضى ، فأنت ربيع للناس خصباً وحباً ، ينعشهم ويحييهم ،
فليكن عفوك حباً وكرماً ، وإلا فأنت سيف من سيوف الموت لا يخطئ وهيبات
منك النجاة ! إن الله يأبى إلا العدل والوفاء ، فكن عادلاً معي ، وكن وفياً لتلك
الأيام الحلوة التي اختلسناها من يد الزمان معاً ، وليس المنكر كال معروف في الجزاء
والحكم ، وليس العرف بضائع عند الله وعند الناس . ثم ختم القصيدة بالدعاء له
بأن يهنأ في شرابه وأنسه ، وأن يظل في عزه وترفه ، فيسقى متى شاء ، وكما يريد في آنية
معطرة بالمسك .

ولو رحت أعدد الأبيات التي قالها النابغة في الاعتذار للنعمان لطال بي الأمر ،
وحسبنا أن نقول : إن ليالي النابغة التي كان يتشكى فيها لهم ، ويتقلب على الجمر ، أو
على الشوك ، أو يتلوى من السم ، قد صارت مثلاً يضرب في الأدب العربي فقيلاً :
ليلة نابغة كما بقيت بعض أبياته في الاعتذار تتألق في جبين الشعر للعربي تألق الماسات
الفريدة من مثل قوله :

فإنك كالليل الذي هو مدركي . . . البيت

وقوله : نبئت أن أبا قابوس أوعدني	ولا قرار على زار من الأسد
وقوله : ولست بمستبق أخاً لا تله	على شعث ، أي الرجال المذهب ؟
وقوله : بأنك شمس والملوك كواكب	إذا طلعت لم يبد منهن كوكب
وقوله : ولو كفي اليمين بغتك خوفاً	لأفردت اليمين عن الشمال

إلى غير ذلك من الأبيات المشهورة ، والنابعة في اعتذارياته يتعرض لمدح النعمان ابن المنذر ، ويثني على جوده ، وأريحيته ، وقد يفهم من هذا أن الرغبة الملحة في نيل عطاياه هي التي ألهمت شاعريته ، وليس وخز الضمير ، والخوف على السعة والكرامة أن تظل مشوبة بالتمهم ، وليس الوفاء للباضي وما فيه من صداقة ومحبة هو الذي دفعه إلى هذا الاعتذار . والحق أن النابعة قد صرح بأنه لم يمدح النعمان بالكرم إلا ليقرر الوقائع ، لا ليطلب منه شيئاً ، وقد مرت بنا في أول هذه الفقرة الأبيات التي يعتز فيها بكرمه وأنه يهب المال في الجذب وعند الغنيمة كما يهب النعمان ، وهاك بيتاً يعد نصاً صريحاً في هذا الموضوع :

هذا الثناءُ فإن تسمع به حسناً فلم أعرضُ أبيت اللعن بالصفد^(١)

والصفد العطاء ، فهو لم يمدحه في اعتذارياته متعرضاً لعطائه . فإن ذلك يضعف حجته ويظهره أمام النعمان بمظهر الجشع الحريص على المال . وهيهات أن يعود إلى سابق منزلته لدى النعمان وهذه نظرته إليه . ولكن لا أبرى النابعة من أن محبة المال والرغبة في العطاء كانت من الدوافع الملحة التي جعلته يكثر من الاعتذار ويثني على كرم النعمان

- ٢ -

الوصف :

ومن الفنون الشعرية التي خلق فيها النابعة الوصف ، وهو كمثل الشعراء الفحول الذين أنجبتهم الصحراء^(١) قد وهب الملاحظة الدقيقة ، وأغرم بالطبيعة المحيطة به ووصف كثيراً من مناظرها الخلابة ، ولكنه امتاز عن سواه في الوصف بأمور منها : -

١ - ترى النابعة يعطيك صورة كاملة في بيت واحد ، مع دقة تامة ، وبلاغة تصوير ، وسهولة لفظ ، وعذوبة أسلوب ، فمن ذلك قوله يصف نفسه وقد وفد على عمرو بن الحارث الغساني :

(١) راجع ص ٢١ ، ٢٢ من هذا الكتاب

كأنتك عاريا خلقتا ثيابي على خوف تظن بي الظنون
فهذه صورة شريد خلق الثياب ، بل عارى الجسد ، يمشى مشية الخائف ، مروع
العين ، منزعج الضمير ، يفرق من الفء ، ويفزع من لا شيء ، له هيئة زرية ، وسحنة
كثيبة ، تدعو إلى الظنة والريبة .

ومن ذلك قوله في وصف المتجردة :

سقط النصف ولم ترد إسقاطه فتناولته واتقتنا باليد
وليس ثمة أبداع من تصوير الحركة في مثل هذا الإيجاز الرائع ، حتى كأن هذا
البيت تمثال افتنت في خلقه يد صناع ، فهو ينبض بالحياة ، بل إن المثل الحاذق ليعجز
عن تصوير ما أراده النابغة بقوله : « ولم ترد إسقاطه »
ومن ذلك قوله :

وبيض غريرات تفيض دموعها بمسكروه يذرينه بالانامل
ففيه تصوير شائق لهؤلاء النسوة الحسان الغريرات الباكيات ، التي تسح عيونهن
دمعاً يسقطنه بأناملهن ، وتصور الحركة هنا رائع على أيجازه
ومن ذلك قوله يصف الطيور الجارحة وقد جلست ترقب المعركة خلف الجيش
تنتظر القتلى وكأنها الشيوخ المتدثرون بفراء الأرانب :

تراهن خلف القوم خزرأ عيونها جلوس الشيوخ في ثياب المرانب
ومن ذلك قوله يصف بقر الوحش ، وقد ضرب بقرنه كلباً من كلاب الصيد ،
فأنفذ قرنه من كتفه ، وصار رواقه وقد تعلق به الكلب كأنه سفود شرب ، وقد
نسيه الندامى ، بعد أن لعبت بلبهم الراح أمام النار التي أوقدوها للشواء :
شكّ الفريضة بالمدري فأنفذه طعن المبيطر إذ يشفى من العضد^(١)

(١) الفريضة : بضعة في مرجع الكتف ، وقيل من مرجع الكتف إلى الخاصرة ، والمبيطر : البيطار
والعضد : داء يأخذ في العضد

كأنه خارجاً من جنب صفحته ^{سِفُودَ شَرَبَ نَسُوهُ} عند مُفْتَأَد (١)

فأى تصوير دقيق هذا ؟ ، وأى صورة تامة كاملة لا تحتاج إلى مزيد إيضاح ؟
قد يصور الرسّام الماهر الثور وقد نفذ قرنه في صفحة السكّاب ، فظل معلقاً به وهى
صورة مليحة ، ولكن الشاعر فى ألفاظ قليلة أتى لك بهذه الصورة ، وبصورة أخرى
تزيدها تضويحاً فى هذا التشبيه الرائع ، وهى صورة السفود عليه اللحم ، وقد نسيه
الندامى عند النار بعد أن ثملوا ، وهيهات أن يصل المصور إلى مثل هذا !

واستمع إليه كذلك يقول فى هذا البيت يصف السكّاب ، وقد اشتد به الألم وهو
معلق بأعلى الروق ، فانقبض وتجمع وأخذ يعض القرن الأسود الصلب الذى لا عوج
فيه ، عض المتألم اليأس الجريح .

فظلّ يعجم أعلى الروق منقبضاً فى حالك اللون صدق غير ذى أود (٢)
ومن هذا النوع من الوصف الذى اشتهر به النابغة قوله يصف الخيل فى سرعة
عدوها بالطير التى تجد فى رواحها نجاة من الشؤبوب البارد .

والخيل تمزع غرباً فى أعنتها كالطير تنجو من الشؤبوب ذى البرد
وهذا من أجمل ما قيل فى وصف سرعة الخيل ، فهى (تمزع) أى تمر مر سريعاً ،
(وتمزع غرباً) أى تمر مرأ سريعاً فى حدة وعنف ، كأنها الطير — والطير سريعة فى
اجتياز المسافات — ثم إنها طير تطلب النجاة من الشؤبوب ذى البرد ، والشؤبوب
الدفعة القوية من المطر ، فيزيد ذلك فى حدة طيرانها ، وسرعة نجاتها .

٢ — ومن مميزات وصفه توضيح المشبه به ، والاستطراد فى وصفه حتى يبرز
بروزاً كاملاً لا مزيد عليه ، وذلك توضيح ضمنى للمشبه واستيفاء للمعنى ، ودلالة على
شروء الخيال ، وسعته ، وهو فى هذا يجرى على طريقة العرب فى العناية بالتفاصيل

(١) الصفحة : الجانب ، والسفود : الحديدة التى يعلق فيها اللحم للشواء ، والشرب : جماعة الشاربين
والفتأد : موضع النار الذى يشوى فيه ، فأدت وافتأدت إذا شويت . وخارجاً : حال
(٢) الروق : القرن . منقبضاً : من الألم ، حالك اللون : أسود ، صدق : صلب ، وغير ذى أود : أى مستقيم

والجزئيات ، والنفاذ إلى صميم المعنى ، وتقليبه على شتى وجوهه ^(١) . فمن ذلك قوله
يمدح النعمان بن المنذر :

فما الفرات إذا جاشت غواربه ترمى أواديه العسبرين بالزبد ^(٢)
يمدّه كل وادٍ مُترعٍ تجلب فيه ركامٌ من الينبوت والخضد ^(٣)
يظلّ من خوفه الملاحُ معتصماً بالخيزرانة بعد الأين والنجد ^(٤)
يوماً بأجود منه سيد نافلة ولا يحولُ عطاءُ اليوم دون غد

فهو في هذه الأبيات يريد أن يصف الممدوح بأنه يعطى عن سعة ، وأن الفرات
في عنفوانه ، وشدة فيضانه ، إذا جاشت أمواجه ، واضطربت أواديه ، وفاضت على
العبرين زبداً ، وقد أمدته روافده المترعة اللجة المتدفقة بالماء الغزير ، حتى لترى فيه
ركام الينبوت والخضد ، وحتى ليخاف الملاح فيعتصم بخيزرانيته ، كيلا يطوح الموج
بسفينته ويرديها ، وقد بلغ منه الجهد مبلغاً عظيماً فتراه يتفصد عرقاً ، ويتضعضع
كلالاً وأيناً من كثرة ما يعانیه في المحافظة على نجاته ونجاة ، سفينته من هذه الأمواج
المتلاطمة .

ليس الفرات حينذاك ، والأرض تنتظر سيبه ، وتترقب فيضانه لتهتز وتربو
وتنبت من كل زوج بهيج ، بأجود من النعمان عطاءً ، وإذا كان الفرات يفيض في العام
مرة ، فإن عطاء النعمان اليوم لا يحول دون عطائه غداً فهو أجود من الفرات . فهذا
الاستطراد في وصف المشبه به ، وتصويره تصويراً دقيقاً تاماً ، توضيح كامل للمشبه .
وهو من ميزات النابغة التي برع فيها .

وهاك مثلاً آخر أشد روعة ، وأبهى تصويراً وأدق تفصيلاً من المثل السابق ،

(١) راجع ص ٥٣ ، ٥٤ من هذا الكتاب

(٢) جاشت : اضطربت ، وغواربه : أعاليه من الماء والأمواج ، وأواديّه : جمع أذى وهو الموج ،
والعبران : الشطان (٣) لجب : ذي صوت ، والركام : المتكاثف ، والينبوت : شجر الخشخاش أو شجر
الحروب ، والخضد : ما تسكسر وتخضد من أى نبات

(٤) الخيزرانة : قصبة تنثنى ، والأين : التعب والكلال ، والنجد : العرق من السكب

وذلك حين يصف ناقته بشور وحشى ثم تناسى الناقة ، وأمعن في تصوير هذا الشور
الوحشى حتى أعطى منه صورة زاهية الألوان ، واضحة القسمات ، جليلة الغاية ، ثم
أرجع الوصف إلى ناقته ، حيث يقول :

ومهمه نازح تعوى الذئاب به نائى المياه عن الورد مقفار ^(١)
جاوزته بعلى نداء مذكرة وعبر الطريق على الأحزان مضمار ^(٢)
كأنما الرجل منها فوق ذى جدد ذب الرياد إلى الأشباح نظار ^(٣)
مطر دأفردت عنه حلائله من وحش وجره أو من وحش ذى قار ^(٤)
سراته ما خلا لبائته لطق وفي القوائم مثل الوشم بالقار ^(٥)
وبات ضيفاً لأرطاة وأجلاه مع الظلام إليها وابل سار ^(٦)
حتى إذا ما انجلت ظلماء ليلته وأسفر الصبح عنه أى إسفار
أهوى له قانص يسعى بأكلبه عارى الأشاجع من قنص أنمار ^(٧)
محالف الصيد تباع له ، لحيم ما إن عليه ثياب غير أطمار ^(٨)
يسعى بغضف براها وهي طاوية طول ارتحال لها منه وتسيار ^(٩)

- (١) المهمه : المفازة البعيدة ، ومقفار : صيغة مبالغة من القفر وهو الإحمال ، والورد : الذين يردون الماء
(٢) على نداء : ناقة غليظة قوية ، مذكرة : قاطعة ، وعبر منصوبة بمذكرة ، ومضمار : تدرك الغاية
والأحزان : جمع حزن ، وهو الأرض الصلبة الجاسية
(٣) جدد : ج جدة بضم الجيم أى العلامة ؟ وذب الرياد : الذب الذى تختلف الأماكن التى يغشاها
فلا يستقيم فى مكان حذراً وخشية ، والرياد والرود والارتياح : الطلب .
(٤) وجره : موضع بين مكة والبصرة أربعون ميلاً ما فيها منزل فهى مرت للوحش - القاموس -
وذو قار : بين الكوفة وواسط
(٥) سراته : الجزء الأعلى من جسمه ؟ ولباته : جمع لبة وهى موضع القلادة من الصدر ، ولطق : أبيض
(٦) الأرطاة شجرة لها ثمر كالعنب مر تأكله الأبل
(٧) الأشاجع : ج أشجع كأحمد وأصبع وهى أصول الأصابع التى تتصل بعصب ظاهى الكف ، وأنمار
ابن ندار أخو مضر الحمراء ، فهذا الصائد من أنمار ، أو أنمار جمع نمر وهو الوحش المعروف
(٨) لحم : يحب اللحم ويشتهيه ، والأطمار : الثياب الخلق
(٩) غضف : جمع أغضف وغضف كلاب مسترخية الأذان مشهورة بالصيد . براها : أنحفها ، وطاوية : جائعة

حتى إذا الثورُ بعد النَّفَرِ أمكنه
فَكَرَّرَ حَمِيَّةً مِنْ أَنْ يَفَرَّ كما
فشكَّ بالرَّوْقِ منها صدر أولها
ثم انثنى يَعِدُ الثاني فأقصده
وأثبت الثالث الباقي بنا فذة
وظل في سبعة منها لحقنَ به
حتى إذا ما قضى منها لِبَانَتَهُ
انقضَّ كالسكوك الدرَى منصلتاً
فذاك شبهُ قلوصى إذ أضر بها
كم من صورة جميلة لمنظر صيد زينت بها جُدُرُ القصور العريقة في بلاد الغرب ،
ووقفت الأبصار أمامها دهشة ، والألباب معجبة مفتونة ، وإذا رحت نوازن بين هذه
الصور الجامدة ، وبين تلك الصورة التي تنبض بالحياة ، وتفيض بالحركة ، وتتعدد فيها
المناظر الخلابة ، وتنوع المشاهد الفتانة ، لو جدت البون شاسعاً ، وهيئات أن يستطيع
رسام مهما بلغ من الخدق والقدرة الخالقة أن يجمع في صورة واحدة كل هذه المناظر :

- (١) الفر : الابتعاد والسرعة ، وأشلى : أغرى وأصله أن تغرى الدابة بالخلة لتأتي إليك ، وضار :
متعود الافتراس
(٢) المشاعب : جمع مشعب وهو المنقب ، وأعشاراً بأعشار أى قطعاً قطعاً يقال : قلب أعشار ، وقدر
أعشار أى مكسرة على عشر قطع ، والرووق : القرن
(٣) أقصده : أصابه ، ونعار : يتفجر منه الدم من نعر كنع وضرب
(٤) الباسل : العابس الوجه غضباً أو شجاعة
(٥) أسوار بضم الهمزة وكسرهما : قائد الفرس ، أو الجيد الرمي بالسهم ويجمع على أسورة وأساور
(٦) لبانتة : غرضه وغايته
(٧) التقريب : ضرب من العدو أو أن يرفع يديه معاً ويضعهما معاً ، والإحضار : ارتفاع الفرس
في عدوه :
(٨) القلووس : الناقة

تخيل مفازة شاسعة ، يرتد فيها البصر وهو حسير ، جرداء ممحلة لا ترى فيها نبتة ، ولا تسمع فيها إلا عواء الذئاب الضارية ، ولا تلمح أثراً للماء عماد الحياة في مثل تلك المهامه الفحيح ؛ وتخيل النابغة يجتاز هذه المفازة بناقة غليظة قوية الأيد ، صبور على قطع الطرق الوعرة ، قادرة على احتمال الشدائد حتى تصل إلى غايتها . لقد ذكرته بصلافة عودها ، وسرعة إرقالها بثور الوحش ، بل كأن الرجل الذي علاها فوق ثور وحشى ذى مُجَدَّد ، كثير الحركة ، يختلف إلى مرابع شتى حذراً وخوفاً ، مروع الفؤاد ، حائر الطرف يظن بكل شبح سوءاً ؛ وهو ثور أبيض ما عدا صدره ، وقوائمه ، فهي سوداء كأنها مطلية بالقار ، وقد فاجأه المطر الشديد حين آذنت الشمس بالمغيب وأطبق الظلام فلجأ إلى أرطاة ، ونزل بها ضيقاً يقضى ليلته الممطرة تلك حتى ينقشع الديجور وما كادت الظلمة تنجاب ، ويسفر الصبح ، وتنجلي معالم السكون حتى رأى قانصاً من قناص أنمار ينحدر إليه مع أكلبه .

وهذا القناص معروق اليد ، خفيف اللحم ، رمز النشاط وسرعة الحركة ، وهو مغرم بالصيد ، ملح في اقتفاء أثر الفريسة ، محب للحم أكل له ، ليس عليه إلا ثياب خلق وأسما بالية .

ووراءه كلاب صيد ، مسترخية الأذان ، قد أهرلها - وهي سغبه طاوية - طول ارتحاله ، وكثرة تسياره وتجواله ، فهي تتلهظ للفريسة ؛ وتشتهى أن تلغ في دماها ، وتنهش لحمها ، وتعرق عظمها ، وهيئات إذا نحتها أن تفلت منها .

وقد فطن الثور لما يراد به من شر ، ففر يروم النجاة ، ولسكن الصياد حاصره وسد أمامه السبل حتى تمسكن منه ، ثم أغرى به كلابه النهمة الجائعة ، وأرسل هذه الغضف المدربة الضارية صوبه

وهنا ابتدأت الملاحمة في سبيل الحياة بين هذا الثور الشديد المنة ، وهذه الكلاب السغبه ؛ لقد رأى الثور أن لا سبيل إلى النجاة ، ولا وسيلة أمامه إلا السكفاح والنضال فسكر على هذه الكلاب حمية ، كما يكر المدافع عن نسوة الحى ، وقد روعته الغارة ،

حفاظاً على الشرف ، وخشية العار ، فهو يستبسل في الذود عن الحريم ، وتدفعه إلى خوض المعركة معانٍ سامية ، وحرص على الحياة الكريمة الحرة .

فشك بقرنه صدر أولها ، وطعنه طعنات نافذة في صدره كأن قرنه مشقب حاد ، حتى تقسم قلبه أعشاراً ، ثم التفت للثاني يهدده ، فلم يرتدع ، فأصماه بطعنة ذات ثغر ، بعيدة الغور ، ينبجس منها الدم ويتدفق ، وألصق الثالث بالأرض على أثر طعنة أخرى نافذة ، صوبها إليه مقاتل عبوس الوجه غضباً وحمية ، عالم بالطعن مفتن في طريقه ووسائله أما السبعة الباقية التي لحقت به ، فقد ظل يكر عليها بروقه الحاد الصلاب ، كر القائد الفارسي ذي الخنكة والشجاعة ، ومن يجيد الرمي بالسهم فلا تخيب له رمية ، فلها قضى منها لبائته ، وأنهكها تعباً ، وأخذ يقبل بينها ويدبر ، ويوجه إليها ضربات المردية ، وأعجزها عن أن تلحق به ، انقض يعدو كأنه السكوكب الدرى يهوى من علياء السماء أو السيف القاطع في يد فارس قوى شجاع يهوى به على الأعداء ، وراح يزع غرباً ، وينوع في عدوه فتارة يثب وثباً ، وتارة يحضر إحضاراً ، حتى نجا من خطر داهم ، وعدو ظالم ، منهوك القوى ، قد بلغ منه الأين والكلال والجهد مبلغه

أرأيت تلك الساقة الغليظة القوية التي ابتدأت الرحلة ، وهى أشد ما تكون أيداً وأصلب ما ترى عوداً ؟ لقد أنهكها التعب وطول السرى ، وسير الهاجرة والحر اللافح وتذليل الحزون ، واجتياز الفيافي ، فكأنها خاضت مع هذه البيد معركة صبرت فيها على الجهد والعطش والسير الطويل ، والأرض الجاسية ، وانتصرت عليها ، وإن خرجت بمجدة نصبة ، كما خاض هذا الثور معركة الحياة مع هذه الكلاب الضارية ، وأحرز الفلج وإن خرج من المعركة نصيباً .

فأى روعة ! وأى تصوير ! إن كل جزء من هذه الصورة قد بلغ من الدقة والإتقان الغاية ، وتجلت قدرة الشاعر وفنه وبراعته في ذلك التصوير المتقن بأوجز لفظ ، وأقصر عبارة ، ولكن اختيار الكلمات التي يلون بها الصورة ، ويرسم القسمات الواضحة فن لا يستطيعه إلا الموهوبون .

ثم هذه المشاهد المختلفة الرائعة : الصحراء ، والناقة ، والشور الوحشي بلونه وقوته والجو المحيط به ، والصياد وسناته ، والكلاب ومعالمها ، والملحمة ومشاهدها . إنها كلها زاهية فتانة خليقة بأن نباهي بها أرقى الآداب العالمية ، وأعلاها صيتاً ، وأسماها مجداً دون ادعاء أو تجن

٣ — ومن ميزات النابغة في الوصف تقليب المعنى الواحد في صور مختلفة ، إمعاناً في الإيضاح وزيادة في استيفاء المعنى واستقصاء كل دقائقه ؛ فمن ذلك قوله يصف الجبل الذي لجأ إليه حين فر من النعمان بن المنذر :

{ وَحَلَّتْ بِيوتِي فِي يَفَاعٍ مُمَنَّعٍ يَخَالُ بِهِ رَاعِي الْجَمُولَةِ طَائِراً ^(٢)
تَزِلُّ الْوَعُولُ الْعَصَمَ عَنْ قَذْفَاتِهِ وَتُضْحِي ذُرَاهُ بِالسَّحَابِ كَوَافِراً ^(٣)

إن بيوتته في جبل عال مشرف على الأرض ، وعر المسالك والشعاب . ولو اكتفى النابغة بهذا لأدرك الناس ما يريد ، ولسكنه يبرز علو هذا الجبل في صور ثلاث : فهو لعلوه يخال به راعي الأبل كأنه طائر لصغر حجمه وشموخ هذا الجبل . وهو لعلوه ووعورة شعابه تزل الوعول العصم عن قذفاته ، وهو لعلوه يفوق السحب وينفذ منها فترى قنته مغطاة بها

وهاك مثلاً آخر لتعداد صور المشبه به ، وقد ورد في وصفه للمتجردة نموذجان من هذه الميزة التي تدل على دقة وسعة خيال ، وقوة تصرف :

فِي إِثْرِ غَانِيَةٍ رَمَتْكَ بِسَهْمِهَا فَأَصَابَ قَلْبِكَ غَيْرَ أَنْ لَمْ تُقْصِدِ ^(١)
بِالدَّرِّ وَالْيَاقُوتِ زَيْنٍ نَحْرُهَا وَمَفْصَلٍ مِنْ لَوْلُؤٍ وَزَبْرَجِدٍ ^(٢)

(١) الغانية : التي استغنت بجمالها عن الزينة ، وسهمها : نظراتها ، وتقصد : تردى وتقتل أو تقصد بفتح التاء أى عن غير عمد

(٢) مفصل : حبة من لؤلؤ وحبة من زبرجد

- صفراء كالسَّيرامِ اكْمَلْ خَلْقَهَا
مخطوطة المتنين غير مُفَاَضَّة
قامت تَرامى بين سَجْفَى كَلَّة
أو درة صَدْفِيَّة غَوَاصُّهَا
أو دُمِيَّة من مَرْمَرٍ مَرْفُوعَةٍ
سَقَطَ النَّصِيفُ ولم تُرِدْ إسْقَاطُهُ
بِمَخْضَبِ رَخِصٍ كَأَن بَنَانَهُ
نَظَرْتُ إِلَيْكَ بِحَاجَةٍ لَمْ تَقْضِهَا
تَجَلَّوْا بِقَادِمَتِي حَمَامَةً أَيْكَةٍ
كَالْأَقْحَوَانِ عِدَادَةٌ غَبَّ سَمَائِهِ
لَوْ أَنهَا عَرَضَتْ لَأَشْمَطَ رَاهِبٍ
لَرْنَا لِرُؤْيَيْتِهَا وَحَسَنَ حَدِيثِهَا
- كالغصن في غُلُوَائِهِ الْمُتَأَوَّدُ (١)
رَبَّيَا الرُّوَادِفِ بَضَّةُ الْمُتَجَرِّدِ (٢)
كَالشَّمْسِ يَوْمَ طُلُوعِهَا بِالْأَسْعَدِ (٣)
بِهَجٍّ مَتَى يَرَاهَا يَهْرُلُ وَيَسْجُدُ
بُنِيَتْ بِآجَرٍ يَشَادُ بِقَرْمَدِ (٤)
فَتَنَاولَتْهُ وَاتَّقَتْنَا بِالْيَسَدِ
عَنَّمْ عَلَى أَغْصَانِهِ لَمْ يَعْقِدِ (٥)
نَظَرَ السَّقِيمَ إِلَى وَجْهِهِ الْعُودِ
بَرَدَا أَسْفَ لِسَانَهُ بِالْإِيمِدِ (٦)
جَفَّتْ أَعَالِيهِ وَأَسْفَلُهُ نَدِ (٧)
عَبَدَ آلَاهُ صَرُورَةَ الْمُتَعَبِدِ (٨)
وَلَخَالَهُ رَشْدًا وَإِنْ لَمْ يَرشُدِ

- (١) السَّيراء: ثوب من حرير فيه خطوط، وغُلُوَاءُ الغصن: امتداد طوله، والمتأوَّد: الذي يتثنى من اللين والنعمة
(٢) مخطوطة المتنين: متناها ألسان مكترزان، والمفاضة: الواسعة البطن الممتلئة باللحم والشحم، والريا: الممتلئة، والبضة: الرخصة الرطبة
(٣) السجف: الستر الرقيق المشقوق الوسط، والكَلَّة: غشاء رقيق يتقى به البعوض، والأسعد: برج الحمل
(٤) الدمية: التمثال والصورة، والمرمر: الرخام الأبيض والأحمر الناعم، يشاد: يطلى بالشيد وهو الجص، والآجر: الطوب الأحمر، والقَرْمَد: الحزف المطبوع
(٥) العنم: ثمر دقيق مستطيل أحمر يشبه أطراف الأصابع، ولم يعقد: لم يخف
(٦) القوادم: الريش المقدم في جناح الطائر، والأراكة: شجرة تتخذ منها المساويك، أسف: خلط، والأئمد: حجر يكتحل به
(٧) الأتخوان: نور أبيض
(٨) صرورة المتعبد: لم يتزوج قط

ولست في حاجة إلى تبيان ما اشتملت عليه هذه القصيدة من وصف جميل شائق لهذه الغاية الفتانة المترفة ، وحسبي في هذا المقام أن أوضح النموذجين اللذين أشرت إليهما آنفاً للدلالة على تعداد صور المشبه به :

فالنموذج الأول : حين قامت المتجردة تتراعى بين سجنى الكلة ، كأنها الشمس يوم طلوعها بالأسعد ، وهي في ذاك الوقت أجمل ما تكون ؛ إذ تظهر بين كهفات شفاقة من السحاب فتبدو محاسنها على أتم صورة ، كما بدت المتجردة بوجهها المشرق الصبوح بين سجنى السر ، أو كأنها درة تتألق حسناً بين صدفتين ، أو دمية من مرمر أبيض ناعم بنيت بآجر وطلبت بالقرمد بدل الشيد وهو الجص والنموذج الثاني : وصف ثناياها البيض اللامعة ، ولثاتها الحمراء الداكنة ، كأنها البرد ، وكأن لثاتها أسفت بالإئد ، أو كأنها الأقحوانة صديحة أمسية مطيرة ، فهي في أنضر وأنقى حالاتها ، جفت أعاليها ولا يزال أسفلها يترقرق عليه الندى فهو يلمع ويبرق ، فاللثات كأعلى الأقحوان ، والأسنان كأسافله الندية ، وهو المعنى الذي أتى به طرفة في قوله :

وتبسم عن ألمى كأن منوراً تخلل حرّ الرمل دَعَصَ له ند^(١)

٤ - وما أمتاز به النابغة في الوصف تأثره بالحضارة ومظاهرها ، ولا بدع فقد تقلب في أعطاف النعمة زماناً ، وجالس الملوك ، واقتنى التحف الغالية ، وأكل في صحاف الذهب والفضة ، وقد ظهر هذا الأثر في أمرين :

(١) في التشبيهات الحضرية ، ووصف مظاهر الغنى والترّف ، وفي قصيدة المتجردة التي مرت بنا كثير من هذه التشبيهات الحضرية ، من مثل قوله : « صفراء كالسيرا » ، فتلک الثياب الحريرية ليست من لباس أهل البادية ، وقوله :

(١) الأملی : الأسمر اللثة وهم يمدحون سمرة اللثة لتظهر بياض الأسنان ، والنور : الأفحوان ، والدعص السكيب ، وتقدير البيت : وتبسم عن ثغر ألمى كأنه الأفحوان تخلل حر الرمل له دعص ند

بالدر والياقوت زين نحرها ومفصل من أولؤ وزبرجد
وأنى لفتاة البادية مهما أوتيت من ثروة أن تتحلى بالدر والياقوت، وبعد فصلت
حباته من أولؤ وزبرجد، وهذه الزينة لا تتأق إلا للنساء الملوك
وكقوله: « قامت ترامى بين سجنى كلة »، والسكلة لا تستعمل إلا عند المترفين،
الذين رقت جلودهم، لا عند أهل البادية أبناء الطبيعة، الذين يعنون بضرورات الحياة
وكقوله:

أو دمية من مرمر مرفوعة بنيت بأجر يشاد بقرمد
وليست دمي النساء المصنوعة من المرمر الناعم الأبيض المبنية بالآجر، والمطلية
بالخزف المطبوخ مما يعرف أهل البادية، أو يستطيعون له صنعا، وإنما هذه صناعة
الروم وأهل فارس ممن بلغوا شأوا غير قليل في الحضارة، ولا سيما ومعابد الروم
من قديم تحوى مثل هذه الدمي والتماثيل، وكقوله

رقاق النعال طيب ججزاتهم يحيون بالريحان يوم السبابس
تحميمهم بيض الولائد بينهم وأكسية الإضريج فوق المشاجب
والإضريج الخز الأحمر، والمشاجب من علامة الترف، وسمات الحضر، ورقة
النعل كناية عن الرفاهية، وقلة المشى نعمة وترفا،

على أن النابغة، والحق يقال قد استمد معظم تشبيهاته وموصوفاته من البادية والطبيعة
التي درج بين أحضانها طفلا، وأثر الحضارة في شعره لا يعدو أحيانا متفرقة، ولكنها
تم عن مشاهدته لهذه المظاهر وتشبع مخيلته بها حتى أجاد وصفها

(٢) والأمر الثاني هو ذلك الأسلوب القصصى الذى ظهر في بعض قصائده، وقد
مر بنا مثلاً على هذا: مثل في قصة ذات الصفا (١)، ومثل المعركة بين الثور الوحشى
وكلاب الصيد، على أن هذا الضرب من الشعر قليل لدى النابغة، ومعظم قصائده

بنيت على طريقة أهل البادية في نظمهم^(١) ، وما كان للنابغة أن يشذ وهو ربيب الصحراء .

أما موضوعات وصفه فهي لا تعدو ما يراه في البادية من حيوان ، أو نبات ، أو سحب مُمِلَّة هائلة ، أو رياح زفوف عاتية ، أو جبال باذخة صعبة المرتقى ، أو معركة حامية الوطيس ، مستعرة الأوار ، أو دمية عفت رسومها . . . إلى غير ذلك مما تثيره الصحراء في نفسه وتهيج شاعريته ، على أنه قد تعرض لوصف بعض مظاهر الحضارة كما مرّ بنا ، فوصف الغساسنة في أعيادهم^(٢) والمناذرة في قصورهم^(٣) وقد مرت بنا أمثلة على كل ما ذكرنا ، فلا داعي لتكرارها .

- ٣ -

المديح :

والنابغة لم يمدح سوى الملوك إلا النعمان بن الجُلّاح^(٤) اللبنة التي أسداها إليه ، وقد اعتذر لمدحه إياه :

وكنتُ امرءاً لا أمدح الدهرُ سوقاً فلستُ على خير أذاك بحاسد
وإلا هُوَذة بن أبي عمرو العُذرى ، وكان يقال له : رب الحجاز ، وأمه بنت الحارث بن مِيّاد بن حُن بن ربيعة بن حرام بن ضبة بن عبد كعب بن عُدرة ، وذلك حيث يقول فيه :^(٥)

ويل أم خُلَّة ماجد آخيته كان ابنُ أشفة غير قيل الباطل
كان ابن أشفة طيباً أثوابه عَمَّا شمائله غزير النائل

(١) راجع ص ٥٢ و ٥٣ من هذا الكتاب

(٢) راجع ص ١٤٣ من هذا الكتاب (٣) انظر وصف المتجردة ص ١٨١

(٤) راجع ص ١٢٦ ، ١٢٧ من هذا الكتاب

(٥) وردت هذه الأبيات في مخطوطة ساوة ص ٤٨

يهب الجياد بسرجهما ولجامها والعنُس تخطرُ باليَمَانِ الكامل
أثنى على ذى آل عذرة إنه قد كان قدماً قبل قيل القائل

ولم يكن الشعراء قبل النابغة يتكسبون بشعرهم ، وبذلك كان أول من خرج على
تقاليد الشعر الجاهلي في المديح ؛ إذ لم يعد شاعر القبيلة الذي يفتخر بها ، ويمجدها
دون سواها ، ويجعل شعره وقفا عليها ، كما كان شعراء العصر الجاهلي قبله يفعلون .
ولقد مدح زهير بن أبي سُلمى وجوزى على مديحه ، ولكنه يختلف عن النابغة اختلافاً
بيناً في الغاية من المديح ؛ إذ لم يكن هدف زهير المال ، وإنما الإشادة بفضل من حقن
الدماء ، ورد السيوف إلى أغمارها ، ونشر السلام بين قومه ، واحتمل من حرٍّ ما له
ما عليهم من ديات ، وهى مكارم هاجت شاعريته ، وألهجت لسانه بالثناء على من قدم
هذا الصنيع الجميل .

أما النابغة فقد تكون البواعث التى دفعته إلى المديح أول الأمر دوافع نبيلة ،
ولذلك تردد طويلاً فى مدح النعمان بن المنذر أيام أن كان معه قبل الجفوة ، ومدح
الغساسنة ، لأنه وجدهم ملاذاً يعوذ به إبان المحنة ، ورآهم يكرمون قومه من أجله ،
ولكنه بعد أن ذاق حلاوة العطاء ، ولذة الغنى ، لم يستطع سلو الحباء ، فكانت الرغبة
العارمة فى نيله هى التى تحرك لهاته ، وتطلق لسانه فى بعض الأحيان ، وإن ترفع عن
مديح غير الملوك ، بيد أن هذا السبيل الذى سلكه جعله أمام الشعراء المتكسبين
جميعاً ، واقتفى الأعشى أثره ، ولم يفرق بين الملوك والسوقة والصعاليك ، ومدح كل
من أغدق عليه قليلاً أو كثيراً .

والسنة التى سننها النابغة أضرت الشعر العربى ، وأفادته ، وأضرته ؛ لأنها جعلت الشعر
العربى بعده ينزلق فى مهواة المديح ، والتلق ، والنفاق ، ولأنها عاقت الشعراء عن أن
يفتنوا فنوناً جديدة فى الشعر ، فيدرسوا المجتمع ، ويلتفتوا إلى الشعب ، بل انصرفوا
بكل عبقريتهم نحو الملوك ، يمشون فى ركابهم ويثنون على كل حقير مهين من أفعالهم .

وندر أن يهيج شاعريتهم منظر فيصفوه ، وإنما جاءت أوصافهم عرضاً في ثنايا القصائد مع أغراض أخرى ، حتى الطرد لم يقولوا فيه في العصر العباسي وما تلاه إلا لأن الملوك والأمراء ، ومن يهبون بدر المال مارسوه .

وأفادته لأنها جعلت الشعراء يفتنون في توليد المعاني ، ويحاولون جهدهم إرضاء الممدوح بوصفه بكل مكرمة فجدوا الصفات الحميدة ، وشجعوا الأغنياء على الأعمال السامية .

ولو لا خلال سننها الشعر ما درى بناء العلا من أين تؤتى المسكارم

فكانوا بذلك يضعون مثلاً علياً للأغنياء وذوى المكانة ، ويوجهونهم صوب الخير ، وأفادته لأن الشعراء وجدوا في أحضان الملوك ما يغنيهم عن السعي في طلب العيش واحتراف المهن الوضيعة ، وقد تقبر ملكاتهم ، ويشغلون بتكاليف الحياة ، ورعاية الولد ، وسد الخلة عن قول الشعر . ولكن الضرر كان أكثر من النفع ؛ لأن الشعر العربي لون بلون مادي رخيص ، يحاول اليوم أن يتحرر من رقيقته ، ويسمو عن التزلف والرياء والكذب . ويعبر تعبيراً صادقاً عن أحاسيس الشاعر ، وما يتجاوب في فؤاده من عواطف وانفعالات ، بعيداً عن شهوة الحباء ، ولذة العطاء .

ثم إن النابغة حاد كذلك عن طريق شعراء الجاهلية في مديحه ؛ لأن الرغبة في إرضاء الممدوح دفعته إلى جريرتين لم يقترفهما جاهلي قبله إلا نادراً وعن غير قصد ، أولاهما المبالغة في النعوت التي يضيفها على الممدوح وأفعاله ، وتصويره بصورة تسمو عن البشرية . أو التهويل في قوته وعظمته ، حتى يرضى ، وينبسط كفه بالندى ، ويتفتح قلبه بالأريحية . من مثل قوله :

وتوقد بالصفاح نار الحباحب	تقد السلوقي المضاعف نسجه
إذا طلعت لم يبد منهن كوكب	وقوله : بأنك شمس والملوك كواكب
وإن خلت أن المنتأى عنك واسع	وقوله : فكأنك كالليل الذي هو مدركي

وقوله: ولا أرى فاعلاً في الناس يشبهه ولا أحاشى من الأقوام من أحد

وقوله: لهم شقيقة لم يعطها الله غيرهم من الجود والأحلام غير عواذب

والجريرة الثانية: تذله وخشوعه، وانهيأه، ففسى أنفته وعرويته. ومهما كان وخز الضمير قوياً، والمحافظة على السمعة والمجد الذي بناه تملأ جوانح صدره، فإنه كان يستطيع أن يعتذر في رفق وكرامة، وألا يصف نفسه بالعبودية كقوله:

فإن أك مظلوماً فعبدٌ ظلمته وإن تك ذا عتي فشك يُعْتَبُ

وقوله: أتوعد عبداً لم يخنك أمانة ويترك عبداً ظالم وهو رافع

حقاً إن النابغة حاول أن يظهر بادي الأمر بمظهر الأبي ذى الأنفة، ولكنه لم يثبت على حاله تلك، وأخذ يستخدم كل وسائل الاعتذار، ومن ذلك إظهار الذلة.

هذا والرغبة في السكسب دفعته إلى أن يحود في شعره، ويفتن في معانيه، ولم يعد في كثير من الأحيان ذلك البدوي المرتجل الذي ينطق بما يجيش به صدره، وإنما يدير الصورة في عقله، ويهذبها وينميتها، ثم ينطق بها: وقد مرَّ بنا في الوصف أمثلة من هذا. وهنا كذلك يفترق النابغة عن شعراء الجاهلية. إذ لم يكن همه تجويد الصورة فحسب، ولكن تجويد اللفظ، والأسلوب، والموسيقى، ولهذا جاء شعره رائعاً حقاً، له صلصلة في الأذن، وتجاوب موسيقى ساحر يحببه إلى القلوب. ومن هنا تدرك السر في قلة قصائد المديح التي قالها النابغة في النعمان وغيره؛ لأنه كان يتأني فيها، ويعمل في إخراجها شأن الفنان المحترف. ومع هذا لم يسلم شعره من هفوات معروفة، ولكنها نادرة.

ولقد مرت بنا أمثلة على طريقته في المدح، سواء كان مدحاً بحتاً كما في قصيدة التي أثني بها على الغساسنة ومطلعها^(١).

كليني لهم يا أميمة ناصب وليل أقاسيه بطل السكواكب

(١) راجع ص ١٤١ من هذا الكتاب

أو شكرأ على يد كريمة كما فعل مع ابن الجلاح^(١) ، أو مشوباً بالاعتذار كمدحه
للنعمان بن المنذر ، ولقد عيب عليه إظهاره الجزع على الممدوح أحياناً ، وفي ذلك ما فيه
من التطير والتشاؤم ، من مثل قوله يمدح النعمان بن الحارث الغساني :

إن يرجع النعمان نفرح ونبتهج ويأت مَعْدَأُ مُلْسَكُهَا وربيعها
ويرجع إلى غسان ملك وسودد^(٢) وتلك المني لو أننا نستطيعها
وإن يهلك النعمان تُعر مطية^(٣) ويلق إلى جنب الفناء قطوعها^(٢)
وتنحط حصان آخر الليل نَحْطَةً تقض مض منها أو تكاد ضلوعها^(٣)
على إثر خير الناس إن كان ها لكا وإن كان في جنب الفتاة ضجيعها^(٤)

ومن ذلك قوله :

فإن يهلك أبو قابوس يهلك ربيع الناس والشهر الحرام

وذلك أسلوب في المديح تنفر منه أذواقنا اليوم ، ولعله كان مقبولا حينذاك ،
ومما يلاحظ أن أعظم صفات الممدوح قيمة في نظر النابغة هي أنه وهوب للمال ، كريم
معطاء ، وقلبا خلت قصيدة مدح في النعمان بن المنذر من ذكر عطائه وجوده . أما
الغساسنة فيذكر شجاعته ، ودينهم ، وألوان الترف لديهم ، وكريم حسبيهم ، ولعل
للمعارك التي كانت بين الغساسنة وبين قومه ، وعفو الغساسنة عن أسراهم مع فليجهم
في ميدان الوغى ما جعل النابغة يشيد بحروبهم وظفرهم ، وقوة شكيمتهم ، وشجاعته ،

(١) راجع ص ١٢٦

(٢) القطوع: ج قطع وهو البساط أو الفرقة أو الطنفسة يضعها الراكب تحته وتغطي كتفي البعير.
يريد أنه إذا هلك النعمان ترك كل وافد الرحلة ، ولم يستعمل مطيته ورمى برجلها وفرشها في جانب الفناء ،
إذ مات الجود بعده .

(٣) تنحط: تزفر حزنا ، والحصان: المرأة العفيفة . إذا تذكرت معروفه بكت حزنا ، وذكر
آخر الليل لأنه وقت الغارات وكان النعمان يدافع عنهم .

(٤) تبكى على النعمان وتذكر معروفه وأياديه ولو كان زوجها بجانبها ولا تحتشم .

وإن لم ينس جودهم وأريحيتهم كما قال في عمرو بن الحارث :

تحين بكفيه المنايا وتارة تسحان سخا من عطاء ونائل

الرماء :

والرثاء قليل في شعر النابغة ، والنابغة لا يبكي الميت ، وإنما يبكي الضرر الذي يصيبه ويصيب غيره لفقده ، وهو يعدد مآثره من شجاعة وجود ، ولكنه يتجنب الحكم المتبذلة ، والأسى المصطنع . وأحياناً يبالغ مبالغة تنافي الطبع الجاهلي . كقوله يرثي حصن بن حذيفة الفزاري سيد قومه حين بلغه منعه ، وكان لحصن شأن عظيم في حرب داحس والغبراء ، وفي حروب ذبيان مع الغساسنة :

يقولون حصن ثم تأبى نفوسهم	وكيف بحصن والجمال جنوح !
ولم تلفظ الموقى القبور ، ولم تزل	نجوم السماء ، والأديم صحيح
فعما قليل ثم جاش نعيه	فبات ندى القوم وهو ينوح

يقولون : حصن قد مات ، وتأبى نفوسهم تصديق ذلك ، لعظم الخطب وفداحته ، وكيف يصدقون موته ولا يزالون يرون الجبال مطلة عليهم من عل ، ولم تندك دكا . وتخر هدأ ، ولم تلفظ القبور الموقى ، لأن موت حصن هو يوم الحشر ، ونهاية الدنيا ، ولم تنهوا نجوم السماء عن مواضعها ، بل لم تسقط السماء كسفا ، فيختل نظام العالم وتقوم الساعة ، وأديم الأرض لا يزال صحيحاً فلم يعد هباء منبثاً ؛ حزناً وإشفاقاً لموت حصن . وهذه كلها مبالغات تدل على عظم مكانة حصن في قومه ، وأنهم جزعوا لموته جزعاً شديداً ، وهم أشد الناس حاجة إليه في حروبهم الطاحنة .

ومن الأمثلة التي تتجلى فيها خصائص رثائه قصيدته التي يرثي بها النعمان بن الحارث الغساني والتي مطلعها :

دعاك الهوى واستجها لك المنازل وكيف تصابى المرء والشيب شامل

وفيهما يقول :

فلا يهني الأعداء مصرع مَلِكِهِمْ وما عَتَقَتْ مِنْهُ تَمِيمٌ وَوَائِلُ (١)
 وكانت لهم ربيعةٌ يحذرونها إذا خَضَخَصَتْ ماءَ السَّيْمِ القَبَائِلُ (٢)
 يسير بها النعمانُ تغلى قُدُورُهُ تجيش بأسباب المنايا المراجِلُ (٣)
 يقول رجالٌ يشكرون خَلِيقِي لعل زياداً لا أبالك غافلُ (٤)
 أبى غفلنى أنى إذا ما ذكرته تحرك دأماً فى فؤادى داخلُ (٥)
 وإن تلادى إن ذكرتُ وشكيتُ ومهرى وما ضمت لى الأناملُ (٦)
 حباؤك والعيسُ العتاق كأنها هجان المها تحدى عليها الرحائلُ
 فإن تك قد ودعت غير مذمم أواسى مُلْكٌ ثَبَّتَهَا الأوائِلُ (٧)
 فلا تبعدن إن المنية موعده وكل امرئ يومآ به الحال زائلُ (٨)
 فما كان بين الخير لوجاء سالما أبو حَجْرٍ إلا ليالٍ قلائِلُ
 فإن تحى لا أملل حياقى وإن تمت فما فى حياة بعد موتك طائلُ
 فأب مصلوه بعين جليّة وغودرَ بالجولان حزمٌ ونائلُ (٩)

(١) يقال : أعتق العبد فعتق بفتح العين ، ومعناه نجا ، و (ما) فى (ما عتقت) مصدرية معطوفة على مصرع أى لا يهني الأعداء موت النعمان ونجاتهم منه .

(٢) ربيعة : غزوة فى الربيع . وكان معظم الغزو فى أيام الشتاء لتوفر الماء فكان يغزو فى أوقات لا ينتظر فيها الغزو ، وخضخضت : حركت الماء باستقامتها منه بالدلاء .

(٣) غليان القدر : استعار الحرب وشدة ما ينال العدو (٤) غافل عن رثائه ، ويروى عاقل أى قد ثاب إلى رشده (٥) تقدير البيت : أبى غفلنى التذكر ، فإن وما بعدها فاعل

(٦) سبق شرح هذا البيت والذي بعده (٧) الأواسى : ج آسية وهى الدعامة

(٨) لا تبعدن : دعاء استعمل فى غير موضعه ، لأنه لا يقال : لا تهلك لمن هلك ، وإنما فعلوا هذا استراحة لئلا يحققوا الموت .

(٩) مصلوه : أى الذين جاءوا بعد من نجاه أولاً ، أو الرهبان الذين صلوا عليه ، ويروى مصلوه أى الذين دفنوه وهو أحسن . بعين جلية : أى شاهدوا دفنه وثبتوا من موته ، والجولان من مدن الغساسنة على حدود البادية .

سقى الغيثُ قبرَ ابنِ بَصْرَى وجاسمٍ بغيثٍ من الوَسْمَى قطُرٌ وواہل^(١)
ولا زال ريحانٌ ومسكٌ وعنبر على منتہاء ديمَةٍ ثم هاطل

وفي هذا الرثاء سداجة الفطرة ، فإن النابغة كان يترقب سلامته ليصيبه الخير ، وما كان بين هذا الخير لوجاء سالما وبين النابغة إلا ليال قلائل ، فواحسرتاه على هذا الخير ؟ ، وفيه إظهار الجزع حين يقول : إن حيدتَ لا أمل الحياة لما أناله من الخير على يدك ، وإن مت فما في الحياة نفع بعدك ، وفيه ثناء على شجاعته ، وعلى كرمه ، ودعاء له بالرحمة ، وتقدير لمنزلته بين الناس ، ويختم القصيدة بقوله :

بكي الحارث الجولانُ من فقد ربه وحوُرانُ منه موحش متضائل
قعوداً له غسانُ يرجون أو به وترك ورهطُ الأعجمين وكاهلُ

وحسبنا هذه القصيدة نموذجاً على طريقته في الرثاء .

النسيب :

ذكرنا آنفاً أن النابغة كان صاحب جد ، شغل بأمور جليلة الخطر في حياته^(٢) ، ولذلك قل في شعره الحديث عن النساء ، إلا ما أتى في أوائل القصائد من نسيب ، والنسيب خطوة طبيعية في بناء القصيدة كما مر بنا^(٣) ، وهو ذكريات الماضي الحبيبة ، والتحدث عن أوقات الأُنس والسمَر واللهو البريء ، تهيجه رؤية الأثافي ، والدمن ، والأطلال الدارسة بعد أن رحل الأحبة عنها . وقد امتاز النابغة في نسيبه بالركة ،

(١) الوسمى : أول المطر لأنه يسم الأرض بالنبات .

(٢) راجع ص ١١١ من هذا الكتاب

(٣) انظر ص ٥٢ من هذا الكتاب

والتشبيهات المستملحة ، وهاك مثلاً من قصيدته التي تعد أول بحمهرات العرب ومطلعها :
عوجوا فخيوا لنعم دمنة الدار ماذا تحيون من نُؤَى وأحجار (١)
وفيه يقول :

وقد أراى ونُعْمًا لا بئين معاً والدهر والعيش لم يهْمُ بامرار
أيامَ تخبرنى نَعْمٌ وأخبرها ما أكتُمُ الناسَ من باد وأسرار
لولا حبائل من نعم علقَتْ بها لأقصر القلبُ عنها أىَّ إقصار
فإن أفاق لقد طالت عمايئة والمرءُ يُخلَقُ طوراً بعد أطوار
تبيتُ نعمٌ على الهجران عاتبةً سَقِيًّا ورعيًّا لذاك العاتب الزارى (٢)
رأيتُ نعماً وأصحابي على عجل والعيسُ للبين قد شُدَّتْ بأكوار
فريعَ قلبي وكانت نظرةً عرضت حيناً وتوفيقَ أقدار لأقدار
بيضاء كالشمس وافت يوم أسعدها لم تؤذ أهلاً ولم تفحشُ على جار
أقول والنجم قد مالت أو آخره إلى المغيب تبينُ نظرة حار (٣)
ألحمةً من سنا برق رأى بصرى أم وجهُ نعم بدا لي أم سنا نار ؟
بل وجهُ نعم بدا والليل معتمكر فلاح من بين أثواب وأستار
إن الحمُولَ التي راحت مُهَجَّرةً يتبعنُ أمر سفيه الرأي مِغْيَار (٤)
نواعم مثل بيضات بمخنية يحفهنَ ظليمٌ في نقأ هار (٥)
إذا تغنى الحمامُ الورقُ ذكرنى ولو تغربت عنا أمَّ عمَّار

وقد أبدع أيما إبداع في استفهامه عما رأى من الضياء ، والليل أوشك أن ينصرم
وقد أخذ القوم يهْمون بالرحيل في أخريات الليل ، وخرجت معهم نعم فلاح وجهها
الجميل فتساءل : أهو سنا برق ؟ ، أم وجه نعم ؟ أم سنا نار ؟ ثم أكد أنه وجه نعم

(١) الدمنة : آثار الدار ، والنؤى : الحفير حول الحباء يمنع السيل .

(٢) زرى عليه : عابه وعاتبه زرياً وزراية كالأزري

(٣) حار : مرخم حارث (٤) الحمُول : الأبل ، ومغيار : شديد الغيرة

(٥) الظليم : ذكر النعام ، النقا : الرمل ، وهار : منهاج

هو الذى يضىء ويبدد سدفة الليل ، وقد لاح من بين أثواب وأستار ، فلمع كما يلمع البرق فى صفحة السماء . وهذا معنى ليس فيه عمق ، وإنما أضفى الأسلوب عليه هذه الطلاوة .

كما أن قوله : إذا تغنى الحمام الورق ذكرنى . . . البيت ، فيه رقة ، ودماثة الخضر ، وقوله : لم تؤذ أهلاً ولم تفحش على جار ، ثناء على طيب خلقها ، وهذا نادر فى النسيب الجاهلى ، وإن كان النابغة أتى به سلبياً ، وكان الأولى أن يكون إيجابياً ، ولكن الشعر الجاهلى لم يعرف من المرأة إلا جسمها ومحاسنها الخلقية ، ونذر أن يلتفت إلى كلها المعنوى .

— ٥ —

فن النابغة :

١ — أهم ما يسترعى انتباه المتأمل فى شعر النابغة روعة موسيقاه ، فهو ينتقى الألفاظ ، ويؤلف بينها تأليفاً بديعاً ، ويراعى مخارج حروفها ، ولا ندعى أن النابغة كان يعكف على شعره طويلاً كما كان يعكف زهير ، ينقى منه الغث ، ويلائم بين كلماته ، ويستمع إلى رنينه فى الأذن حولاً كاملاً ، ولكن بما لا ريب فيه أن النابغة لم يكن من مدرسة المرتجلين ، بل مدرسة المجودين فى الشعر ، الذين يتأنون فى إخراجهم . أضف إلى ذلك موهبة فذة مكنته من ذلك النظم الموسيقى البالغ الانسجام ، الشديد الأسر ، المتمكن القافية ، ولقد مرت بنا نماذج كثيرة من شعره ، كلها يأخذ بمجامع القلوب ، ويسحر الآذان قبل العقول ، استمع إلى قوله :

قوافى كالسلام إذا استمرت فليس يرد مذهبها التظنى

فكيف ترى هذه السينات تتردد فى البيت كما تتردد النغمة البديعة فى القطعة الموسيقية أو قوله :

كأنك من جمال بنى أقيش يققع خلف رجليه بشن

فهذه الشين في الشطر الأول ونظيرتها في الشطر الثاني ، وهذه المتانة في النسيج أعطت البيت روعة وجزالة . والتآلف بين الكلمات ، وعدم تنافرها في المخرج من أول شروط الفصاحة ، فكيف إذا كان بينها انسجام تام ؟ ، وهذه ظاهرة ترى واضحة في كل شعر النابغة ، وليست بذات العمل البحت ، ولكنها السليقة والموهبة ، والتمسك الطبيعي من زمام اللغة ، وقدرة الفطرة . استمع إليه كذلك في قوله :

وهم زحفوا لغسان بزحف رحيب السَّرب أرعن مرجحن

فانظر الحاء كيف تتكرر ، وتأتى معها بعض حروف الحلق ، والسين كيف تأتى في الشطرين ، وانظر اختيار الكلمات وشدة وقعها في الأذن ، وصلصلة جرسها . وهو يختار الكلمات القوية للمعنى القوي ، والألفاظ الرقيقة للمعنى الرقيق ، ويؤلف بين المعنى واللفظ تأليفاً يحار فيه المتأمل ، حتى ليظن أن النابغة كان يعتمد ذلك تعمداً ولكن المتعمد المتكلف قلما يسلم له القليل ، فضلاً عن الكثير ، ومهما أوتى من مقدرة فإن أثر التكلف يبدو على فنه ، وينم عليه شعره . استمع إليه في قوله :

وقلت : يا قوم إن الليث منقبض على برائنه للوثبة الضارى

لا أعرفن ربرباً حوراً مدامعها كأن أبكارها نعاج دُورار

فالتاء والضاد في البيت الأول ، والراء والذال في البيت الثانى دليل تلك الظاهرة الموسيقية ؛ ثم اختيار الألفاظ القوية في البيت الأول ، والكلمات الرقيقة في البيت الثانى دليل تلك الموهبة الشعرية . وندر أن تجد بيتاً خلا من هذا الانسجام ، والتأليف بين اللفظ والمعنى ، استمع إليه كذلك حيث يقول :

ظلت أقاطيع أنعام مؤبلة لدى صليب على الزوراء منصوب

فإذ وقيت بحمد الله شررتها فأنجى فزار إلى الأطواد فاللوب

فكيف ترى هذه اللام المشددة . واللام المفردة تتردد في البيتين ؟ ، وكيف تحس بالصاد المتكررة في البيت الأول ، والتاء والطاء في البيت الثانى ؟ ، وما عليك إلا أن تأخذ أى قصيدة ، بل أى بيت للنابغة ، وستجد هذه الموسيقى الحلوة التى تأسر القلوب

وستجد لشعره روعة وجلجلة وقوة نسج، حتى ليسهل على من يدرس شعر النابغة دراسة متقنة أن يميز بين الصحيح والمدسوس عليه بكل يسر .

إن اختيار الألفاظ ذات الحروف المتشابهة المخرج بمثابة الألوان والأصباغ في الصورة الفنية التي يبدعها مصور مقتدر عبقرى ، أو النغمة في القطعة الموسيقية التي يؤلفها فنان موهوب ، والنابغة شاعر فذ في شاعريته ، ينظم الشعر الرائع ، ولكنه شعر الفطرة التي لم تفسدها الحضارة والتكلف . استمع إليه يقول :

تقد السَّلَوقِيَّ المضاعفَ نَسْجِه وتوقد بالصفاح نار الجباب

بضرب يزيل الهام عن سَكِنَاتِه وطعن كإبزاع المخاض الضوارب

ألا تشعر بذلك الانسجام الموسيقي الأخاذ ، الذي زاده فتنة أنه طبيعي لا تكلف فيه ؟ وماذا عساي أن أضرب من الأمثلة ، وكل شعره على هذا النمط العلوى ، مصقول من جميع نواحيه ، وكأنما عناه النابغة بقوله :

أو دمية من مرمر مرفوعة بنيت بأجر تشاد بقرمد

وجمال الشعر في أن يهيج الشعور والعاطفة ، لا أن يخاطب العقل والمنطق . وليس أبلغ من الموسيقى في إثارة الشعور وقد بلغ النابغة في ذلك الذروة

٢ - أما بيان الصور وجلالها ، فقد سلك النابغة فيها طرقاً شتى ، فأحياناً يعتمد إلى استخلاص الصورة مما يحيط بها ، ويبعد عنها كل شائبة ، ويخرجها إخراجاً جديداً من غير أن يلجأ إلى الاستعارة أو التشبيه أو المجاز ، وإنما يصور الواقع كما هو ، ولهذا النوع من الصور جماله ، ويدل على مقدرة قوية ؛ لأنه لا يستعين في التوضيح والبيان بغير إبراز الحقيقة قوية ناصعة وذلك كقوله مثلاً يصف فرسان بني أسد :

يهزون أرماحاً طوالاً متونها بأيدي طوال عاريات الأشاجع

أو قوله يصف أثر معركة ، وكيف نكل قومه بالأعداء :

كم غادرت خيلنا منكم بمعترك }
 يا رب ذات خليل قد جفعت به }
 والخيل تعلم أننا في تجاوزنا }
 ولوا وكبشهم يكبو لجهته }
 للخامعات أكفأ بعد أقدام (١)
 وموتمين وكانوا غير أيتام (٢)
 عند الطعان أولو بؤسى وإنعام (٣)
 عند السكامة صريعاً جوفه دام (٤)

فهنأ يصف ما نكسب به هؤلاء القوم ، فقد تركوهم في ميدان القتال صرعى : تركوا
 للضباع الأكف بعد الأقدام ، والنساء أرامل ، والأطفال يتامى ، وأصابوا من شاءوا
 وفكروا من أرادوا ، وأما سيد القوم فقد تركه قومه وهو منسكب على جبهته بين يدي
 السكامة صريعاً وقد بُقر جوفه وانشخب منه الدم . فهي صورة واقعية لم يستخدم فيها
 أى نوع من أنواع الخيال ، ولكن جردها من كل عنصر غير أساسى ، وأبرزها واضحة
 جلية بليغة الحديث :

ومن ذلك قوله يصف حية :

صل صفا لا تنطوى من القصر }
 داهية قد صغرّت من الكبر }
 مهرورة الشدقين حولاء النظر }
 طويلة الإطراق من غير خقره (٥)
 كأنما قد ذهبت بها الفسكر }
 تفرّ عن عوج حداد كالإبر (٦)

وإذا تجاوزنا عن تشبيه أنيابها بالإبر فإننا نراه يصف الحية كما هي ، ويصور الحقيقة
 المجردة من غير أن يستعين بأى ضرب من ضروب الخيال ، ولكنه أعطى صورة كاملة
 واضحة القسمات والمعالم لهذه الحية الصفراء الدقيقة ، فهي قصيرة لا تنطوى ، طويلة
 الإطراق ، لا عن خفر وحياء ، بل عن خبث ودهاء ، قد ضؤل جسمها لكبر سنها ،
 وكأنما الأفكار انتابتها فأسقمتمتها ، واسعة الشدقين حولاء النظر : لها أسنان عوج حداد

(١) الخامعات : الضباع (٢) موتمين : ميتمين (٣) بؤسى : أي تؤذي من نشاء ونبسه
 وإنعام : نعم على من نريد ونفك أسرهم (٤) كبش القوم : سيدهم ، والكمة : جمع كى وهو الفارس
 المدجج بالسلاح (٥) الصل : الحية الدقيقة الصفراء ، والصفاء : ج صفاة وهي الحجر
 (٦) مهرورة الشدقين : واسعة الشدقين

والأمثلة على هذا النوع من الصور التي عمد فيها النابغة إلى الحقيقة دون سواها كثيرة في شعره ، وفيما سقناه من شعره أنفأ نماذج عدة يمكن الرجوع إليها .

وأحياناً يبرز النابغة الصورة ، ويوضحها بالتشبيه ، وبلاغة التشبيه في أنه ينقل الذهن من شيء إلى آخر طريف يشبهه ، أو صورة بارعة تمثله ، وكلما كان هذا الانتقال بعيداً قليل الخطور بالبال . أو ممتزجاً بقليل أو كثير من الخيال ، كان التشبيه أروع للنفس ، وأدعى إلى إعجابها واعتزازها . وقد أفضنا في الحديث عن التشبيه عند الكلام على الوصف في شعر النابغة ، وضررنا لذلك أمثلة عدة ، وذكرنا الطرق التي لجأ إليها في تبيان الصورة وتوضيحها عن طريق التشبيه فلا داعي لتكرار ذلك

والتشبيه أوسع ضروب البيان استعمالاً في شعر النابغة ، وهو بارع فيه براعة الفنان المقتدر ، استمع إليه وهو يصف الفرسان وقد تغيرت رائحتهم من كثرة ما يحملون من السلاح ، وبشعت مناظرهم حتى كأنهم من الجن :

سَمَكِينَ مِنْ صَدَا الْحَدِيدِ كَأَنَّهُمْ تَحْتَ السَّنَوْرِ جَنَّةُ الْبَقَارِ
وتأمل هذا الحلي الذي يخطف الأبصار سناؤه على ترائب الحسناء ، كيف يتقد ويزداد وهجا كأنه الجمر المنشور في الظلماء ، حيث يظهر توقده ، ويشتد بريقه :

ترائب يستضيء الحلي فيها كحمر النار بذر في الظلام
وهو أحسن عندي من بيت امرئ القيس في هذا المعنى :

كَأَنَّ عَلَى لَبَاتِهَا جَمْرَ مِصْطَلٍ أَصَابَ غَضًّا جَزْلاً وَكُفَّ بِأَجْزَالٍ^(١)

وشتان بين البيتين ، فقد بالغ امرؤ القيس حتى لتحسب المرأة تحترق ؛ إذ جعل على لباتها جمراً ، ولم يكتف بهذا بل جعله جمر مصطل يذكيه ، ويزيده اشتعالاً ، ثم جعله من شجر الغضا ، وهو أحسن الشجر وقوداً ، وأدومه ناراً ، وجعل الغضا جزلاً له كفاف من أصول الشجر . أما النابغة فقد أبرز سنا الحلي وضومه ، ووضح هذا بأن شبهه

(١) كف : جعل له كفافاً من أصول الشجر وهي الأجزاء حتى تريد في توقده

بجمر النار نثر في الظلام ليظهر وهجه وسناؤه ، دون أن يبالغ تلك المبالغة التي ينفر منها الذوق .

ولا أريد أن أردد الحديث عن التشبيه في شعر النابغة ، فحسبي ما ذكرت في باب الوصف ، وإن كان بعض النقاد يحاول التفرقة بين الوصف والتشبيه ، فيجعل الوصف إخباراً عن الحقيقة ، والتشبيه مجازاً وتمثيلاً^(١) ، ولسكني لا أذهب مذهب هذا ، فالوصف تصوير بطرق شتى ، منها إبراز الحقائق العارية عن الخيال ، ومنها الالتجاء إلى المجاز من تشبيه واستعارة وكناية .

وإذا كان التشبيه مركباً ذلولاً برع فيه كثير من الشعراء ، فإن الاستعارة ليست مثله يسراً وتأثيلاً ، ولا سيما في العصر الجاهلي ، فليس يخفى أن العربي الذي يجيء بالاستعارة المتيمة إنما كان ينظر فيها أو يديرها إدارة ، بحيث لا تتفق اتفاقاً ، ولا تجيء عفواً إلا في النادر ، ولذلك قل الجيد منها في كلامهم حتى نزل القرآن ، فتكون من هذه الجهة اختراعاً يدل على قوة غير قوة الفطرة^(٢) ولقد زعم ابن وكيع^(٣) أن أول استعارة وقعت في الكلام قول امرئ القيس :

وليل كموج البحر أرخى سدوله على بأنواع الهموم ليبتلى
فقلت له لما تمطى بصلمه وأردف أعجازاً وناء بكلكل
نما يدل على أنها نادرة في شعر الجاهليين ، وأن امرأ القيس هو الذي شق هذه الصدفة ، ثم جرى في ذلك الشعراء على أثره

والاستعارة مبنية على تناسي التشبيه ، فهي من هذه الجهة أبلغ في الخيال ، وأقوى في التصوير ، وإذا كان امرؤ القيس هو مبتكر الاستعارات ، وكانت استعاراته محدودة فإن النابغة قد برع في هذا النوع ، على الرغم من أن النقاد لم يفتنوا إلى استعاراته الجميلة

(٢) نفس المصدر ص ٢١١

(١) تاريخ آداب العرب للرافعي ج ٣ ص ١٢٤

(٣) العمدة لابن رشيق ج ١ ص ١٨٦

المتمكنة ، وخصوا بعنايتهم امرأ القيس ، وسأذكر فيما يلي بعض استعاراته على سبيل
المثال لا على سبيل الحصر ، فمن ذلك قوله

فهم يتساقون المنية بينهم بأيديهم — بيض رقاق المضارب
وقوله : ونمسك بعده بذناب عيش أجب الظم — ليس له سنام
وقوله في وصف المتجردة :

في إثر غانية رمتك بسهمها فأصاب قابك غير أن لم تقصد
وقوله يمدح :

تحن بكفيه المنايا وتارة تسحان سحاً من عظام ونائل
وقوله في وصف الليل :

تطاول حتى قلت ليس بمنقص . وليس الذي يرعى النجوم بأيب
وكلها استعارات قوية متمكنة ، تدل على فطنة الشاعر ، وحدة فؤاده ، وأن له من
قوة الفطرة ما يقوم مقام الصنعة ، وإذا كان المولدون قد برعوا في الاستعارة ، وأتوا
فيها بكل عجيب ، فحسب هذا الشاعر الجاهلي أن تسلم له بعض تلك الاستعارات الجميلة
فطرة وطبعاً ، ولو سمع هذا الشاعر القرآن ، وكان أمويّاً أو عباسياً لسكان له في هذا
الباب شأن أي شأن ، وكفاه فخراً أنه من رواد هذا الضرب العسر من البيان وأنه ينطق
به بوحى الفطرة ، وأنه قد سلم له منه ما كان نموذجاً للشعراء من بعده ،

أما كنيات النابغة فهي رقيقة دمثة وكثيرة ، من مثل قوله :

رقاق النعال ، طيب حُجزاتهم يحْيُون بالريحان يوم السباب

فرقاق النعال : كناية عن رفاهيتهم ، وطيب حُجزاتهم : كناية عن عفتهم
وقوله :

ليست من السود أعقاباً إذ انصرفت ولا تبيع بجنبى نخلة البرما (١)
أى أنها مصونة مخدرة لا تتمن في الخدمة . والكناية مظهر من مظاهر البلاغة
وغاية لا يصل إليها إلا من لطف طبعه ، وصفت قريحته ، والسر في بلاغتها أنها في صور
كثيرة تعطيك الحقيقة مصحوبة بدليلها ، والقضية وفي طيها برهانها ، وتضع المعاني في

(١) البرما : ج برمة وهي قدر من حجارة

صورة المحسّسات ، وهذه خاصة الفنون ، فإن المصور إذا صور لك صورة للأمل أو اليأس بهرك ، وجعلك ترى ما كنت تعجز عن التعبير عنه واضحاً ملموساً وقد ذكر علماء البلاغة بعض أبيات للناطقة استشهدوا بها في علم البديع كقوله :

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بهن فلول من قراع الكتائب

فإنه تأكيد للدمح بما يشبه الذم ، وقوله :

تقد السلوقي المضاعف نسجه وتوقد بالصفاح نار الحبايح

فإنه من الغلو . . . إلى غير ذلك من الأبيات التي ليس من همنا إحصاؤها فإن هذا النوع من الزخرفة إن وقع في شعر الجاهليين فعن غير عمد ، لأنهم كانوا ينطقون عن فطرة وطبع صادق ، ولا يتكلفون الشعر تكلفاً .

ولعلك أدركت من هذا الباب أن شاعرية الناطقة كانت كاملة ، وأنه لم يعد في الطبقة الأولى من شعراء الجاهلية اعتباطاً ، فوسيقية ألفاظه ، ومتانة أسلوبه ، وروعة تشابيهه وقوة استعاراته ، ورقة كنياته ، أحلته هذه المنزلة السامية في موكب الشعر العربي .

أبيات وهنات :

هذا وللناطقة أبيات خالدة قد حاكها الشعراء من بعده ، وحاولوا أن يزيدوا على معانيها ، ولكنها ظلت فريدة تتحدى الزمن فمن ذلك قوله :

فلو كفى اليمين بغتك خوفاً لأفردت اليمين عن الشمال

وقد أخذه المثقب العبدى فقال من نونيته :

ولو أنى تخالفنى شمالى بنصر لم تصاحبها يمينى

وقوله :

فخملتني ذنب امرئ وتركته كذى العر يكوى غيره وهو راتع

وقد أخذه السكيت إذ يقول :

ولا أكرى الصحاح برائعات
 وقوله : وإستبق ودك للصديق ولا تسكن
 أخذه ابن ميادة فقال :

ما إن ألح على الإخوان أسألهم
 ومن ذلك قوله :

نظرت إليك بحاجة لم تقضها
 وأحسن فيه أبو نواس إذ يقول :

ضعيفة ككر الطرف تحسب أنها
 وقوله : لو أنها عرضت لأشمت راهب
 لرنأ لرؤيتها وحسن حديثها
 أخذهما ربيعة بن مقروم وقال :

لو أنها عرضت لأشمت راهب
 لرنأ لبهجتها وحسن حديثها
 ومن ذلك قوله :

إذا ما غزوا بالجيش حلق فوقهم
 جوانح قد أيقن أن قبيله
 وقد توارد عليه كثير من الشعراء فقال أبو نواس :

تتمنى الطير غزوته
 وقال مسلم بن الوليد :

قد عود الطير عادات وثقن بها
 وقال أبو تمام :

وقد ظللت أعناق أعلامه ضحى
 بعقبان طير في الدماء نواهل

من العر قبلى ما كويننا
 قتباً يعرض بغارب ملحاحا

كما يلح بعض الغارب القتب

نظر السقيم إلى وجوه العود

قريبة عهد بالإفاقة من سقيم
 عبد الآله ضرورة المتعب
 ولخاله رشداً ، وإن لم يرشد

في رأس مشرفة الذرى يتبتل
 ولهم من ناموسه يتنزل

عصائب طير تهتدى بعصائب
 إذا ما التقى الجمعان أول غالب

ثقة باللحم من جزره

فمن يتبعنه في كل مر تحل

أقامت مع الرايات حتى كأنها من الجيش إلا أنها لم تقاتل
وقال المتنبي :

تفدى أتم الطير عمراً سلاحه نسور الملائم أحداها والقشاعم
وما ضرها خلقٌ بغير مخالب وقد خلقت أسيافه والقوائم
ومن أوليات النابغة :

فإن يك عامرٌ قد قال جهلاً فإن مظنة الجهل الشباب //

وقوله : وأنت كالدهر مبثوثاً حباله والدهر لا ملجأ منه ولا هرب

وقوله : أضحت خلاء وأضحى أهلها احتملوا أخنى عليها الذى أخنى على لبد

وعلى الرغم من دقة النابغة وتجويده اللفظ والمعنى ، وسبقه إلى كثير من فرائد
المعاني فقد بدرت في شعره كهفاتٌ نذكر منها : كراهة الفصل مع سماجة اللفظ في قوله :

من الضاريات بالدماء الدوارب ، كما أخذ عليه الإقواء في قوله :

زعم البوارح أن رحلتنا غداً وبذاك خبرنا الغراب الأسود

والقافية دالية مكسورة ، وكذلك قوله في وصف المتجردة :

بمخضب رخص كأن بنانه غم يكاد من اللطافة يعقد

والقافية دالية مكسورة ، وكان الناس لا يجرمون على انتقاد النابغة ، فذهب إلى
المدينة مرة ، وأوعزوا إلى قينة تغنى بهذه الأبيات ، ففطن النابغة إلى ما بها من إقواء فغير
البيت الأول إلى قوله : وبذاك تنعاب الغراب الأسود ، والبيت الثاني إلى قوله :

غم على أغصانه لم يعقد ، وبذلك سلم شعره من الهنوات . كما أخذ عليه أنه لم يحسن
التشبيه في قوله يصف الثور الوحشى بالسيف المجرد من الغمد ، وإن كان مما سبق إليه :

من وحش وجرة موشى أكارعه طاوى المصير كسيف الصيقل الفرد

ولم تسمع كلمة الفرد إلا في هذا ، وقد أحسن فيه الطرماح إذ يقول :

يبدو وتضمرة البلاد كأنه سيفٌ على شرف البلاد يسل ويغمد

مترانه :

ومهما يكن من أمر فإن النابغة قد احتل مكانة أدبية عظيمة لدى شعراء الجاهلية حتى كانوا يضربون له قبة من أدم ويحكمونه فيما بينهم في سوق عكاظ ، وقد أنشدته الخنساء قصيدتها التي ترثي فيها أخاها صخرأ :

وإن صخرأ لتأتم الهداة به كأنه علم في رأسه نار
فقال : والله لولا أن أبا بصير (الأعشى) أنشدني آنفاً لقلت إنك أشعر الجن
والإنس ، فقام حسان وقال : والله لأنا أشعر منك ومن أبيك ، قال حيث تقول ماذا ؟
قال حيث أقول :

لنا الجففات الغر يلعن في الضحى وأسيفنا يقطرن من نجدة دما
ولدنا بنى العنقاء ، وابن محرق فأكرم بنا خالا وأكرم بنا ابنما
فقال له النابغة : أنت شاعر ولستك أقلت جفانك وأسيفك ، ونخرت بمن ولدت
ولم تفتخر بمن ولدك ^(١) . يا ابن أخى إنك لا تحسن أن تقول :

فإنك كالليل الذي هو مدركى وإن خلت إن المستأى عنك واسع
خطا طيف حجن في حبال متينة تمد بها أيد إليك نوازع
خنس حسان . وهذه القصة تدلنا على مكانة النابغة لدى الشعراء ، وعلى بصره
الواسع بالشعر ، وعلى صفاء ديباجته ، وتجويده له من كل نواحيه .

وقد روى صاحب الأغاني أن عمر بن الخطاب سأل : من أشعر الناس ؟ قالوا :
أنت أعلم يا أمير المؤمنين ، قال من الذى يقول ؟ :

إلا سليمان إذ قال الآله له قم في البرية فاحدد لها عن الفند
وخبير الجن إني قد أذنت لهم يبنون تدمر بالصفاح والعمد
قالوا : النابغة ، قال فمن الذى يقول ؟ :

(١) قال الصولى : فانظر إلى هذا النقد الجليل الذى يدل عليه لقاء كلام النابغة ، ودباجة شعره لأنه قال
وأسيفنا ، وأسيف جمع لأدنى العدد والكثير سيوف ، والجففات لأدنى العدد والكثير جفان ، وترك
الفخر بآبائه ونخر بمن ولد نساؤه . وقيل عابه كذلك فى يلعن بالضحى ، ويقطرن ، راجع الموشح للعرزبانى
وابن أبى الإصبع فى باب (الإفراط فى الصنعة) من كتاب تحرير التعبير ، والأغاني ج ٩ ص ١٥٦ ط الساسى

أتيتك عارياً خالئاً ثيابي على خوف تظن بي الظنون
قالوا: النابغة، قال فمن الذي يقول ؟

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة . . . الأبيات

قالوا: النابغة، قال فهو أشعر العرب. وهذا تقدير عظيم من عمر العبقري الذي
كان الوحي ينزل أحياناً بما يقول. وسأل رجل ابن عباس عن أشعر الناس، فقال:
أجبه يا أبا الأسود الدؤلي، قال الذي يقول:

فإنك كالليل الذي هو مدركي . . . البيت

وقام رجل في حضرة عبد الملك بن مروان فاعتذر من أمر وحلف عليه، فقال له
عبد الملك: ما كنت حرياً أن تفعل ولا تعتذر، ثم أقبل على أهل الشام فقال: أيكم
يروى من اعتذار النابغة إلى النعمان: حلفت فلم أترك لنفسك ريبة . . البيت؟ فلما
رويت له، قال: هذا أشعر العرب ^(١). وسئل حماد الراوية ^(٢): بم يقدم النابغة قال:
باكتفائك البيت الواحد من شعره، لا بل بنصف البيت، لا بل بربع البيت مثل قوله:
حلفت فلم أترك لنفسك ريبة . . البيت، ومثل قوله:

ولست بمستبق أخاً لا تلبه على شعث أي الرجال المهذب؟

وعده ابن ملام في طبقات الشعراء من الطبقة الأولى، وقرنه بامرئ القيس وزهير
والأعشى، واختلف في أيهم أشعر، وقال: إن من يقدم النابغة يقول: هو أحسنهم
ديباجة شعر وأكثرهم رونق كلام، وأجزلهم بيتاً ^(٣).

وقال أبو عبيدة الراوية: يقول من فضل النابغة على جميع الشعراء: هو أوضحهم
كلاماً، وأقلهم سقطاً وحشواً، وأجودهم مقاطع، وأحسنهم مطالع، ولشعره ديباجة
إن شئت قلت: ليس بشعر مؤلف، من تأثته ولينه، وإن شئت قلت: صخرة لو رُدَّت
بها الجبال لأزالتهاء قال: وسمعت أبا عمرو بن العلاء يقول: كان الأخطل يشبهه بالنابغة ^(٤)
هذا بعض ما قيل في النابغة قديماً، ولعلني أكون قد أبنت عن شاعريته، ووفيته

بعض حقه في هذه الترجمة على ما بها من إيجاز

جمادى الأولى ١٣٦٨

مارس ١٩٤٩

(٢) نفس المصدر

(١) الأغاني ج ٩ ص ١٥٦

(٤) الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ١١٩ — ١٢٠

(٣) طبقات الشعراء ص ١٧

أهم المراجع

أولا : والمراجع العربية

- الدكتور ابراهيم أنيس . . . : اللهجات اللغوية
 أحمد الاسكندري ومصطفى عناني . : الوسيط
 أحمد أمين بك : . . . : فجر الإسلام
 أحمد صبرى . . . : مجلة الأنصار
 الأزرق . . . : تاريخ مكة
 ابن خلكان . . . : وفیات الاعیان
 ابن دريد . . . : الاشتاق
 ابن رشيق . . . : العمدة
 ابن سلام . . . : طبقات الشعراء
 ابن عبد ربه . . . : العقد الفريد
 ابن قتيبة . . . : الشعر والشعراء
 أبو زيد القرشي . . . : الجهرة
 أبو علي القالى . . . : ذيل الأمالی
 أبو الفرج الأصبهانی . . . : الأغاني
 اسرائيل ولفنسون . . . : تاريخ اللغات السامية
 أغناطيوس جويدي . . . : المختصر في علم اللغة العربية الجنوبية
 الالوسي . . . : بلوغ الأرب
 البغدادی . . . : خزانة الأدب
 التبریزی . . . : شرح القصائد العشر
 جاد المولى بك وعلى البجاوى، وأبو الفضل ابراهيم : أيام العرب
 الدكتور جواد على . . . : مجلة الرسالة ٩/١٢/١٩٤٥
 جورجى ريدان . . . : تاريخ اللغة العربية ، وتاريخ الآداب العربية
 حافظ وهبه . . . : جزيرة العرب في القرن العشرين
 سليمان البستاني . . . : مقدمة الإلياذة

السيوطي	: المزهر
الشنقيطي	: شرح المعلقات
الدكتور طه حسين بك	: في الشعر الجاهلي ، وفي الأدب الجاهلي
الدكتور علي عبد الواحد وافي	: فقه اللغة
فؤاد أفرام البستاني	: الروائع
القلقشندى	: صبح الأعشى
الأب لويس شيخو	: شعراء النصرانية
محمد الخضر حسين	: نقض كتاب في الأدب الجاهلي
محمد الخضري بك	: تاريخ الأمم الإسلامية
محمد الغمراوي	: النقد التحليلي للكتاب في الأدب الجاهلي
محمد فخر الدين بك	: تاريخ العرب القدامى
محمد مبروك نافع	: تاريخ العرب — عصر ما قبل الإسلام
المرزباني	: الموشح
مصطفى الرافعي	: تاريخ آداب العرب
الهمداني	: الإكليل ، وصفة جزيرة العرب
ياقوت الحموي	: معجم الأدباء

ثانيا : المراجع الأجنبية

- العقد الثمين ومقدمته بالانجليزية : W. Ahlwardt
- Carl Brockelmann : Semitische Sprachwissenschaft.
- Braunschvig (Dr Marcel) : Notrs Littrature étudiée dan les textes.
- H. A. R. Gibb. Modern Trends in Islam.
- Glaser : Zwei Inschriften uber den Dambruch von Marib.
- Derenbourg (Hartwig) : Schefer ديوان النابغة ، ومقدمته بالفرنسية ، ومخطوطة ساوة
- Huart : Histoire des Arabes.
- Rossini (Karolus) : Chrestomathia Arabica Meridionalis Epigraphica.
- Renan (Ernest) : Histoire Génrale et Système-Comparé des langues Sèmitiques
- Noldeke : Die Ghassanischen Furstn aus dem Hanse Gafna's
- de Perceval—Caussin : Essai sur l,histoire des Arabes avant l'islamisme.
- Müller : Die Burgen und Schlosser Sudarbiens.
- Sedillot : Histoire Gènrale des Arabes.

الفهرس

صفحة	مقدمة
٦ - ٣	تمهيد تاريخي
٣٥ - ٦	الأمة العربية ٧ - تاريخ اللغة العربية ٩ - اتصال العرب بالحضارة ٢٤
٩٤ - ٣٦	بيئة النابغة
	القبيلة ٣٦ - أثر القبيلة في الشعر ٤٠ - الصحراء ٤٥ - أثر الصحراء
	في الفكر العربي ٤٧ - العرب والميثولوجيا ٤٩ - العرب والفلسفة ٥١ -
	أثر الصحراء في الشعر ٥٢ - وحدة القصيدة ٥٣ - حروب ذبيان ٥٦ -
	الشعر العربي والملاحم ٦٣ - منزلة الشعر الغنائي بين الآداب العالمية ٦٤ -
	أيام ذبيان ٦٩ - حرب داحس والغبراء ٧١ - غارات ذبيان على
	الغساسنة ٧٨ - الحيرة ٨٠ - غسان ٨٩
١٠٥ - ٩٥	ديوان النابغة الذبياني
	الاهتمام بجمع الشعر ٩٥ - رواة الديوان ٩٨ - طبقات الديوان ٩٩ -
	النسخ الخطية ١٠٠
١٦١ - ١٠٦	النابغة الذبياني
	أسمه ولقبه ١٠٦ - منته وشبابه ١٠٨ - النابغة والشئون العامة ١١٣ -
	النابغة في حرب داحس والغبراء ١١٦ - النابغة في حروب الغساسنة ١٢٣ -
	اتصاله بالنعمان بن المنذر ١٣٢ - هربه من الحيرة ١٣٩ - النابغة لدى
	الغساسنة ١٤١ - عودته إلى النعمان ١٥٠ - صفاته ودينه ١٥٤ -
٢٠٥ - ١٦٢	شعر النابغة
	فنون النابغة ١٦٢ - الاعتذار ١٦٣ - الوصف ١٧٣ - المديح ١٨٥
	الرثاء ١٩٠ - النسيب ١٩٢ - فن النابغة ١٩٤ - الموسيقى ١٩٤ -
	الخيال ١٩٦ - أولياته وهناته ٢٠١ - منزلته ٢٠٤
	استمدراك

خفاص
في كتاب النابغة
١٩٦

صفحة	سطر	خطأ	صواب
١٣	هامش	الشعراء	الفرقان
٤٠	١٦	ولو	إذا كان
٤٦	٦	الرمال	الرمل
٩٠	٩	٥٢١	٥٣١
١٤٦	١٦	بعض أبياتا	أبياتا



6,175 26932
1-11843378

11 JUL 2001

400 - LIBRARY



